



المؤرخ العربي



مركز بحوث التاريخ الإسلامي والثقافة

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد الخامس عشر

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

العدد الخامس عشر

١٩٨٠

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

محتويات العدد الخامس عشر من المجلة

الموضوع	ص
١ - الدولة السامانية	د. حسين امين العراق ٧
٢ - ملابسات فتح دمشق	د. امينة البيطار سوريا ٢٣
٣ - روسيا ومشروع سكة حديد بغداد	د. نوري عبدالبخيت البصرة ٤٠
٤ - تاريخ الحركة الديمقراطية الاولى في الخليج العربي	محمد جابر الانصاري قطر ٦٤
٥ - اثر الفرنسيين في القضاء على مكانة اللغة العربية	د. عبدالقادر زبادية الجزائر ٨١
٦ - العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري	د. فاروق عمر فوزي العراق ١٠٠
٧ - بيئات علماء اسفرايين	د. محمد بدري عبدالجليل اسكندرية ١٧٥
٨ - شهرات نساء العراق الاموي	د. رمزية الاطرقجي العراق ٢١٥
٩ - الفكر العربي بين الجبر والاختيار	د. صالح الحمارنة الاردن ٢٥٤
١٠ - تيمورلنك في ديار بكر	علي عقيل عدن ٢٨٧
١١ - لمحة عن مخطوطة تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن	د. عماد الدين خليل العراق ٢٦٦
١٢ - ملامح من الهجرة الاجنبية الى منطقة الخليج العربي	علي عجيل منهل بغداد ٢٩٩
١٣ - بنو معن ثم آل زريع في عدن	د. محمد امين صالح مصر ٣١٧
١٤ - النشاطات التي يعتزم الاتحاد القيام بها	

The Free Yemeni Movement and its ideas on reform .Dr. Al. Tayib. Al. Abdin p. 29

The Cultural weight of the Arabic Language .

Dr. Khalil. Al Hamash p. 5

اللجنة الاستشارية

١ - الدكتور حسين امين / الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب رئيس تحرير
المجلة

٢ - الدكتور مختار العبادي / استاذ في قسم التاريخ - الاسكندرية

٣ - الدكتور يوسف فضل / مدير معهد الدراسات الافريقية - الخرطوم

٤ - الدكتور عبدالامير محمد امين / استاذ في قسم التاريخ - بغداد

٥ - الدكتور محمد زهير / رئيس قسم التاريخ - جامعة محمد الخامس

٦ - الدكتور عبدالكريم غرايبة / وكيل الجامعة الاردنية

٧ - الدكتور عبدالقادر زبادية / رئيس قسم التاريخ - جامعة الجزائر

٨ - الاستاذ ابراهيم البغلي / مدير الآثار والمتاحف - الكويت

٩ - الاستاذ شايف عبده سعيد / رئيس قسم التاريخ - جامعة عدن

١٠ - الدكتور عبد المالك خلف التميمي / قسم التاريخ - جامعة الكويت

١١ - الاستاذ سالم الشيباني / وكيل جامعة قاريونس - بنغازي

١٢ - الدكتور عبدالله يونس الشبل / امين عام جامعة الامام محمد بن
سعود الاسلامية - الرياض

السيد صباح غزال رحيم السامرائي / سكرتير التحرير الفني

السيد اسماعيل عبد العزيز البياتي / سكرتير التحرير الاداري

مقدمة

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب اذ تقدم بكل فخر واعتزاز للباحث العربي العدد الخامس عشر من مجلته العلمية - المؤرخ العربي - والتي تبرز المكانة الحضارية للمؤرخين العرب وقدرتهم الفائقة على منهجية البحث التي تتمثل فيه الروح الموضوعية واتباع أساليب علمية في الكتابة التاريخية نعاهدهم اننا سنعمل وبكل اخلاص وصدق وبغزيرة ثابتة على ازدهار الدراسات التاريخية وتوثيق الصلات المتينة بين المؤرخين والباحثين العرب كافة وتحقيق رسالتنا الانسانية النبيلة في الحفاظ على تراث امتنا الخالد وتاريخها المجيد .

تحية اجلال واكبار الى اخواننا وزملائنا المؤرخين والباحثين العرب أينما كانوا والى الاقلام الخيرة الصادقة التي تدعم مسيرتنا الثقافية وتسهم في اغناء مجلتنا ببحوثهم العلمية القيمة .

والله نسأل ان يوفقنا لخدمة أمتنا الكريمة بما يحقق عزتها ورفعتها .

الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

الدولة السامانية

الدكتور حسين أمين
الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

هي من الدويلات التي استقلت من جسم الدولة العباسية ذاتيا ولعبت دورا مهما في تاريخ الحضارة الاسلامية ، وتنتسب هذه الدولة الى اسرة فارسية قديمة أصلها من بلخ ، ويدعى جداهم الاعلى سامان ابن خدات ، وقد أسلم في العهد الاموي على يد أسد بن عبد الله القسري ، والي خراسان ، ونال أحفاد سامان حظوة كبيرة من لدن الخليفة المأمون ، فتولى بعضهم وظائف سامية . فقد تولى نوح بن اسد ابن سامان مدينة سمرقند وأخوه أحمد على فرغانة وأخوه الثالث يحيى على مدينة الشاش والياس على هرات^(١) ، وقد ورث أحمد اخوته الذين توفوا فتولى أمر سمرقند وفرغانة والشاش وقسما من الصفد سنة ٢٤٤ هـ - ٨٥٥ م وورثه ابنه نصر الذي اتخذ مدينة سمرقند حاضرة لدولته . وفي عهد نصر قويت الدولة السامانية وتمكن نصر من ضم بخارى وتولية اخيه اسماعيل عليها سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م ، وفي السنة

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٦ ص ٣ .

التالية حصل نصر على عهد من الخليفة العباسي المعتمد بولاية ما وراء النهر بكامله .

ان تاريخ الدولة السامانية لم يخلو من نزاع بين افراد العائلة الحاكمة فقد جرى نزاع بين نصر وأخيه اسماعيل ، ولكنه كما يبدو كان نزاعا عائليا ، فقد ساءت العلاقة بين الاخوين وقصد نصر أخاه اسماعيل سنة ٢٧٢هـ ، ولكنها تصالحا ، ثم ساءت العلاقة بينهما من جديد وقامت الحرب بينهما سنة ٢٧٥هـ وظهر اسماعيل بأخيه نصر فلما حمل اليه ترجل له اسماعيل وقبل يديه ورده في موضعه الى سمرقند وناب عنه في ولاية بخارى . ولما مات نصر سنة ٢٧٩ هـ (٢) أصبحت الزعامة السياسية في الدولة السامانية لأخيه اسماعيل . وفي عهد اسماعيل تظهر الدولة السامانية دولة قوية تدحر الدولة الصفارية .

نجح اسماعيل من فتح طبرستان ، وتمكن من صد هجوم الاتراك الذين أغاروا على حدود بلاده الشرقية ومات اسماعيل في مدينة بخارى سنة ٢٩٥ هـ (٣) ، ولا يزال قبره حتى اليوم في مدينة بخارى . وبوفاة اسماعيل أمر الخليفة المكتفي ابنه ابا نصر أحمد بن اسماعيل على ولاية ابيه وخلع عليه . ولم تطل ولايته فقد قتل سنة ٣٠١هـ اذ هجم عليه بعض غلمانه فذبحوه وهو على سريريه وهربوا وحمل الى بخارى فدفن فيها ولقب بالشهيد (٤) . وكان قد خلف ولدا صغيرا يدعى ابو الحسن نصر بن احمد الساماني فاستصغر الناس سنه واستضعفوه ، واعتقدوا

(٢) - ابن تغري بردى - النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٣ .

(٣) ابن الاثير - ج ٦ ص ١١٧ .

(٤) ابن خلدون - تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٣٣٦ .

أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه اسحاق بن احمد بن أسد صاحب سمرقند الذي استمال الناس في بلاد ما وراء النهر - عدا بخارى - اليه والى أولاده ، وأرسل بعض أمراء البيت الساماني الى الخليفة العباسي المقتد يسأله أن يوليهم ناحية من نواحي خراسان ولكن الخليفة اقر نصرا على بلاد أبيه . وقد حاول اسحاق بن احمد بن أسد الساماني وابنه الياس بن اسحاق الثورة ضد نصر ولكن الهزيمة حلت بجيوشهما واستولى نصر على سمرقند، وقد حاول الياس بن اسحاق أن يعيد الكرة في القضاء على نصر ولكنه لم يفلح .

أما عن علاقة الدولة السامانية بمقام الخلافة العباسية فانها كانت تقوم على أساس المودة ^(٥)، وكان الخلفاء العباسيون يعتمدون على أمراء البيت الساماني في اقرار سلطانهم في بلاد المشرق .

وقد عرف ان نصر كان ميالا الى الاسماعيلية ، لذا فان قواد الدولة السامانية حاولوا قتله ، ولما علم نصر بذلك تنازل عن الامارة لابنه نوح، الذي حمل بشدة على الاسماعيلية ومن الجدير بالذكر أن المقرئ ذكر أن نصر بن أحمد الساماني بعث الى عبيد الله المهدي يعترف فيه بسلطته الروحية ويعد بامداده بالرجال .

وفي عهد نوح يبدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين وقد تبادلوا النصر والهزيمة ، وقد نجح نصر من ايقاع الهزيمة بالبويهيين والسيطرة على مدينة الري . وتوفي نوح سنة ٣٤٣ هـ ^(٦)، فتولى السلطة أخوه

(٥) آدم ميتز - الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٤٩ .

(٦) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٤٦ .

منصور بن نوح • وفي عصره بدأ الضعف يسدب في جسم الدولة السامانية وفي عهده وقع الصلح بين البويهيين والسامانيين سنة ٣٦١ هـ (٧) • وتزوج نوح بن منصور الساماني بابنة عضد الدولة • ولما مات منصور بن نوح تولى أمر السامانيين نوح الثاني بن منصور وأخذت الدولة تتداعى وتضمحل نتيجة النزاع المستمر بين افراد البيت الساماني وبسبب ظهور الدولة البويهية ، وقام بعض قواد الدولة بالاستيلاء على بعض البلدان • ومن الجدير بالذكر أن قيام الدولة الغزنوية كان عاملا من عوامل سقوط هذه الدولة ، كما ان خانات تركستان كانوا كثيرا ما يحاولون اقتطاع اجزاء من جسم الدولة • فقد هاجم ايلك (خان ما وراء النهر) مدينة بخارى في السنة التي تولى فيها محمود على خراسان سنة ٣٨٣ هـ (٨) وظفر بعبد الملك واسره بافكند الى أن مات بها •

للدولة السامانية فضل كبير في نمو الادب كما انتعشت علوم الطب والفلك والفلسفة وقد ألقت فيها كتب كثيرة في اللغة العربية، ومن أشهر كتب هذا العصر في الطب الكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي وأهداه الى أبي صالح منصور بن اسحاق الساماني الذي ولي سجستان نيابة عن السامانيين • وقد عاصر ابن سينا الفيلسوف المشهور بعضا من امراء السامانيين •

وجدير بالذكر أن السلاجقة الاتراك تأثروا بالسامانيين خاصة في مذهبهم الحنفي ، كما أن السلاجقة صاروا يتوسعون على حساب

(٧) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٢ •

(٨) ابن الاثير ج ٧ ص ١٦٠ •

دولتهم • كما أن آخر معقل للسامانيين سقط سنة ٩٩٩م وكان ذلك على يد الترك القرخانيين الذين دخلوا بخارى قاعدة السامانيين •

إن إقليم الصغد هو أهم المناطق التي شملتها دولة السامانيين ، ويعتبر من أخصب الأقاليم الواقعة بين نهري جيحون وسيحون التي كانت تسقيها مياه نهريين ، هما زرفشان أي نهر الصغد وعليه كانت تقوم مدينة بخارى وسمرقند والنهر المنساب حيال مدينتي كترونسف وكان هذان النهران ينتهيان إلى مستنقعات أو بحيرات ضحلة في المفازة الغربية من جهة خوارزم • وكان الصغد يحسب إحدى جنات الدنيا الأربع ، وقد بلغ أوج ازدهاره في النصف الأخير من المئة الثالثة للهجرة في أيام الأمراء السامانيين ، وكانت من أجمل مدنه سمرقند وبخارى ، ويمكن أن يقال أن سمرقند كانت مركزه السياسي ، بينما كانت بخارى عاصمته الدينية ، وإن كلا من المدينتين كانت في مرتبة واحدة وتعدان قضيتي الصغد •

ولمدينة بخارى سور وليس بالقرب منها وحولها كثير من المدن والقصور والبساتين ، ولصور المدينة أبواب ، وهناك خرائب بخارى القديمة التي كانت قائمة قبل الإسلام ويقال لتلك الخرائب (ريامين) وحافظت بخارى عن مكانتها الرفيعة في أوائل العصور الوسطى ولكن في سنة ٦١٧هـ - ١٢١٩م دخلها المغول ونهبوها ودمرت عن آخرها^(٩) ، وفي عهد تيمورلنك الذي اتخذ سمرقند عاصمة له استعادت بخارى شيئاً من سابق عهدها •

وقد أنشأ اسماعيل الساماني في بخارى قصراً فخماً كان قد أنشئ

(٩) المرجع السابق ص ٣٣٠ - ٣٣٣ •

أصلاً قبل الإسلام حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصبح بذلك مقراً للامير الحاكم وكبار رجال الدولة ، ثم أقام قصراً آخر على ضفاف القناة التي تعرف بهذا الاسم وقد صُرف اسماعيل الاموال الطائلة على اظهاره بشكل يليق بمعظم الامراء ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه ، وكانت تحيط به الحـدائق والمروج وأحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية . كذلك مد اسماعيل أسوار المدينة وحصنها وكانت هذه قد بناها الحاكم ابو العباس الطوسي في عهد الخليفة المهدي العباسي ، ويقال أن عدد المدارس الجامعة ببخارى كان في عهد اسماعيل يزيد على نصائره في كل مدن آسيا ، حتى لترى مدينة بلخ والتي تعرف بقبة الاسلام لم تستطع أن تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . وصارت هذه المدينة ببخارى تزدهر ويعلو قدرها يوماً بعد يوم بوصفها قسبة المال والعلم ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك .

أما سمرقند فكانت في أعلى النهر (نهر السغد) على نحو ١٥٠ ميلاً من شرق ببخارى تقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر السغد الجنوبية على نشز من الارض وعلى المدينة سور حوله خندق عميق ولها قلعة مرتفعة عن الارض وفي أسفل المدينة قرب النهر رياض كثيرة تحف بها البساتين والاشجار ، وقل دار تخلو من بساتين ولا دار الا وفيها ماء حار الا القليل ، وتكثر في سمرقند اشجار السرو وفي القلعة دار الامارة والحبس وكان للقلعة باب من الحديد ، وتمتد أرياض المدينة بامتداد النهر في بسيط من الارض وعليها سور نصف دائري طوله فرسخان يحيط بهما من ناحية البر والنهر من ناحية الشمال احاطة القوس بالوتر ، فيتم بذلك خط دفاعها .

وكانت أسواق سمرقند مجمع التجارات زاخرة بالسلع الواردة

اليها من جميع أنحاء العالم ومن جملة ما اشتهرت به هذه المدينة (الكاغد) السمرقندي وهو يحمل منها الى بلاد الشرق وكانت صناعته قد دخلت اليها من الصين ، وقد خرب المغول مدينة سمرقند سنة ٦١٧هـ - ١٢١٩م ولما زارها ابن بطوطة بعد ذلك قال انها مدينة لا سور لها ولا أبواب عليها ، وقد سمي نهرها نهر القصارين عليه النواعير (١٠) ، وكما قلنا سابقا أن تيمورلنك اتخذها عاصمة له فاستعادت مجدها الغابر فجدد المدينة وشيد المساجد والربط .

وقد برز في ظل الدولة السامانية كثير من العلماء والادباء ذلك لان امراء سامان كانوا يقربون العلماء ويعنون بالعلم وأهله فالفارابي محمد ابن طرخان ، الفيلسوف الاسلامي الكبير احتضنه منصور بن نوح الساماني وألف له بعض كتبه . ومن مؤلفاته كتاب مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة طبع في لندن سنة ١٨٩٥م وكتاب احصاء العلوم والتعريف باعراضها كما له تسعة كتب في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى وتوفي الفارابي سنة ٣٣٩هـ (١١) . والعالم الكبير أبو بكر الرازي محمد بن زكريا الذي تولى رئاسة الاطباء ببغداد ، وكان أكثر مقام الرازي في الري وغيرها من بلاد العجم وخدم بصناعته الاكابر من ملوكها وامرائها وصنف بعض كتبه لهم ، ككتاب المنصوري الذي ألفه للامير منصور من آل سامان وكتاب الملوكي لعلي ابن صاحب طبرستان

(١٠) ابن بطوطة - الرحلة ج ١ ص ٢٤٤ .

(١١) ابن خلكان - وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٦ .

طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٣٤ .

ومن اشهر كتبه في الطب كتاب الحاوي، وقد توفي الرازي سنة ٣١١هـ،
٩٢٣م (١٢) .

وممن نزل مدينة بخارى من العلماء الاعلام الشيخ الفيلسوف
الطبيب ابن سينا ابو علي الحسين بن عبد الله والذي يلقب بالشيخ
الرئيس وكان ابوه من بلخ . وفي قرية من قرى بلخ ولد ابن سينا
سنة ٣٧٠هـ وتعلم في مدينة بخارى علوم القرآن واللغة وقيل انه
حفظ القرآن وأخذ يقرأ الفقه قبل أن يتجاوز العاشرة ، ولم يدرك
السادسة عشرة حتى تعلم المنطق والهندسة والطبيعة والفلسفة والطب ،
وكان يحيي الليل في الدرس والبحث ، واخذ في التأليف وهو في
الحادية والعشرين من عمره ، ويمتاز ابن سينا بقوة جسمه وعقله، ويعتبر
ابن سينا نادرة عصره فقد ألف في كل فن من العلم والادب ، من أشهر
كتبه كتاب (قوانين الرياضيات) ١٨ جزءا طبع منه جزءان وكتاب
القانون في الطب في (٤) اجزاء طبع في روما وفي القاهرة وهو من اهم
كتبه وحوى أهم ما عرف من علوم الطب وخصائص العقاقير والتشريح
وغيرها وعلى هذا الكتاب وكتاب الحاوي لابي بكر الرازي اعتمد
معظم أطباء العصور الوسطى في الشرق والغرب .

الدولة الفزنوية :

تعتبر هذه الدولة من الدويلات المهمة التي قامت في المشرق
الاسلامي ، قام بتأسيسها البتكين وهو من الموالي الاتسراك في خدمة

(١٢) ابن النديم - الفهرست ج ١ ص ٢٩٩ .

وفيات الاعيان ج ٢ ص ٧٨ .

الدولة السامانية ومن الذين توصل الى مراكز سامية في تلك الدولة ، فقد شغل منصب حاجب البلاط ، وكان أبوه يشغل منصب حاكم مدينة غزنة ، وتولى حكمها بعد وفاة والده سنة ٣٥٢ هـ ، ولكن البتكين مات بعد سنة ولم يحقق أهدافه التوسعية . وسيطر على الامور مملوكه سبكتكين (زوج ابنته) وتمكن من توسيع املاكه بشكل كبير ، فسيطر على مدينة بست في سجستان كما نجح نجاحا باهرا في التوسع في الهند فقد هزم جيوش جييال راجا لاهور وشنت جيوشه على حدود البنجاب ثم ما لبث أن أسر جييال نفسه ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع الجزية .

ومن الجدير بالذكر أن سبكتكين بالرغم من قوته وسعة نفوذه، فانه اعترف بسيادة الدولة السامانية ، وانه انما كان يفتح البلدان باسمهم ، وقد استعان نوح بن نصر الساماني بسبكتكين صاحب غزنة، على حرب (ابن علي بن سيمجور وفائق الخاصة) وكانا قد خرجا على الامير الساماني واستقلا في خراسان ، فانتصر سبكتكين عليهما ، واعاد مدينة نيسابور الى حظيرة السامانيين ، عندئذ عين الامير الساماني نوح ابن نصر ، محمود بن سبكتكين على مدينة نيسابور ولقبه سيف الدولة كما لقب سبكتكين بلقب ناصر الدولة ، وحكم سبكتكين عشرين سنة وكان قد وضع الاسس الرصينة للدولة الغزنوية وتوفي سنة ٣٨٧ هـ .

اذن فالدولة الغزنوية هي وريثة الدولة السامانية التي حكمت خراسان وسجستان وطيرستان والري وكرمان وما وراء النهر ، والتي جمعت في قيامها بين النزعة القومية في احياء التراث الفارسي وبعثه باللغة الفارسية وبين تمسكها بالاسلام في الدفاع عنه والقضاء على المناهضين ، وقد انتهى امر السامانيين الى ما انتهى اليه امر العباسيين من

الاعتماد على الاتراك في امداد جيوشهم بالعناصر الجديدة ، وأصبح من السهل على الاتراك أن يتدرجوا في المراتب العليا للجيش الساماني وفي دواوين الإدارة وقد استفحل خطر الاتراك وأصبح من المتعذر التخلص منهم ، فقد عين عبد الملك الاول بن نوح المملوك التركي البتكين قائدا عاما لخراسان بقصد اقصائه ولما تولى انسحب البتكين الى غزنة وأعلن نفسه ملكا عليها بعد انتصاره على أميرها المحلي ابي بكر لاديك ، فهب جيش منصور الساماني لقتاله ، واضطر منصور بعد هزيمة جيشه للمصالحة والاعتراف به حاكما لغزنة ، وتوفي البتكين وكان سبكتكين مملوكه المخلص وفيما لابنه اسحاق الذي عاجلته المنية ، وآذاك اتفق جيشه على تولية سبكتكين الذي عرفه التاريخ مؤسسا للدولة الغزنوية .

تولى الامور في الدولة الغزنوية محمود الغزنوي (١٣) ، بعد أن نجح بابعاد أخيه اسماعيل الذي تولى الامور مدة سبعة أشهر بعد وفاة سبكتكين ، وقد غزا محمود الغزنوي بلاد الهند الوثنيين ، واستطاع السلطان محمود الغزنوي أن ييسط نفوذه الى ما وراء كشمير والبنجاب وأن يجعل من اقليم البنجاب ولاية اسلامية يحكمها ولاة مسلمون من قبل الدولة الغزنوية .

وكان محمود الغزنوي يعاصر الخليفة العباسي القادر بالله ، والذي أرسل الى السلطان محمود خلة السلطنة ولقبه بيمين الدولة .

وكانت الدولة الغزنوية دولة اسلامية ، تخضع روحيا للخليفة

(١٣) ابن الاثير ج ٧ ص ١٨٥ .

العباسي في بغداد وتقوم بفتوحاتها في الهند باسم الدعوة الاسلامية ، وكانت من الناحية الحضارية متأثرة بالحضارتين العربية والفارسية، ولم تكن اللغة التركية في عهدها لغة الدواوين والكتاب والشعراء ، اذ كانت اللغة العربية والفارسية تتبادلان القيام بهذه المهام •

وقصد محمود الغزنوي بلاد خراسان وسيطر عليها وأصبحت ضمن أملاكه الواسعة (١٤) • كما انتزع الري من مجد الدولة البويهية سنة ٤٢٠ هـ (١٥) ، واقتاده الى عاصمته غزنة • وكان محمود قد حارب الغور وكانوا من الوثنيين ويسكنون المناطق الوعرة بين هراة وغزنة ، وكانوا أيضا مصدر قلق واضطراب في الديار الاسلامية الخاضعة للغزنويين ، وقد حاربهم محمود الغزنوي وطاردهم حتى أخضعهم وعمل على نشر الاسلام في صفوفهم •

ان فتوحات محمود الغزنوي في الهند مهمة من الناحية التاريخية لذا يجب الوقوف عندها والاطلاع على بعض نواحيها ، فالهند لم تكن غريبة على محمود فقد عرفها في حروب آبيه وأحاط بظروفها الطبيعية والجغرافية والبشرية ليسهل عليه أمر مواجهتها حين يتصدى لفتحها على أوسع نطاق بعد موت آبيه ، اذ قام بغزوها سبع عشرة مرة في مدى سبع وعشرين سنة امتدت بين سنة ٣٩١ و ٤١٧ هـ وكان من نتيجتها أن خضع له شمال بلاد الهند من بنارس الى غزنة ومن الهملايا الى الدكن ، ففي طريقه اليها أول مرة بعد توليته استولى على سجستان سنة ٣٩٠ هـ التي كانت لخلف بن أحمد ثم قصدها وواقع جييال سنة ٣٩١ هـ وبرغم

(١٤) المصدر السابق ص ١٩٦

(١٥) المصدر السابق ص ٢٣٥

قلة عدده وعدته فقد هزمه هزيمة منكرة وغنم منه غنائم كثيرة واسره مع جملة من أصحابه ، واثّر هذا النصر الكبير لقب محمود بالفارسي وفي سنة ٣٩٥هـ عاود الهند فاستولى على (بهاطية) ونشر الاسلام بين أهلها، ووافاه خبر خروج ابن الفتوح القرمطي صاحب الملتان (جنوب البنجاب) عليه وكرهه للاسلام فسار اليه ، وحين وجد صعوبة في اجتياز الانهار ولا سيما نهر سيحون طلب من (اندبال) ان يأذن له في العبور ببلاده الى الملتان فأبى فقرر مهاجمته فدخل بلاده وأعمل فيها الحرق والنهب والقتل ، واستمر يطارده حتى كشمير ، ثم هاجم ابا الفتوح ودخل بلاده وأخضع الملتان وضرب على أهلها عشرين ألف ألف درهم عقابا لهم، وعلم محمود ان ايلك خان امير كاشغر صهره هاجم بسلاده فصالح الهنود وما زال يقاتل الترك ويتعقبهم حتى قضى عليهم ، واستنجد ايلك خان بقدرخان ملك الختن على محمود ، وحين سمع هذا وهو بطخارستان أسرع الى بلخ فحصل بالقرب منها صراع عنيف انهزم له ايلك خان شر هزيمة ، وعاد للهند يخضع نائبه (نواسه شاه) ابن جيبال الذي ارتد عن الاسلام وخرج عليه فلم يكتف عنه حتى اقتدى نفسه بأربع مائة ألف درهم وعقد داوود صاحب الملتان مع الامراء الهنود حلفا للخروج على طاعة محمود والقضاء عليه ، فالتحم الطرفان بارض البنجاب في معركة ضارية انتهت بانتصار محمود وانطلق الى حصن نكركت وهو على جبل عال كان قد اتخذ منه الهنود جيلا بعد جيل مخزنة للاموال والذخائر التي كانوا يتقربون بها الى صنمهم الاعظم ، فهازل حراسه وأجبرهم على الاستسلام وفتح باب الحصن لينقل ذخائره الكبيرة الى غزنة .

وهكذا استمر محمود الغزنوي كما ترون في غزواته المتكررة والمتعددة للهند . وفي احدى غزواته استولى محمود على صنم يدي (سومناث) الذي يرمز لعناد الهنود ووثنيته وحمله الى غزنة وعرضه

على المسلمين هناك وابتهجوا بذلك النصر الكبير ، وبعث اليه الخليفة العباسي القادر بالله رسالة اعترف له فيها بحكمه على خراسان والهندوستان وسجستان وخوارزم ولقبه كهف الدولة والاسلام ولقب ابنه مسعودا (شهاب الدولة وجمال الملة) وابنه الثاني محمدا (جلال الدولة وجمال الملة) والامير يوسف اخا محمود (عضد الدولة ومؤيد الملة) وتلقب محمود بلقب سلطان وهو أول من تلقب بهذا الاسم في الاسلام .

وقد اتصف محمود الغزنوي بقوة الشخصية وبرجاجة العقل وعمق الايمان بالعقيدة الاسلامية ، كما اتصف بحبه للعلم والعلماء والادب والادباء ، واجتذب الى بلاطه العلماء والشعراء ، وفي آخر أيامه كان في خدمته عالم عصره وأحد كبار العلماء في دنيا الاسلام ، أبو الريحان محمد البيروني الذي التحق به في غزنة سنة ٤٠٨ هـ - ١٠١٧ م ، وفي غزنة قام البيروني بعدة رحلات علمية في الديار الهندية التي فتحت على يد محمود الغزنوي وتعلم البيروني اللغة السنسكريتية على بعض العلماء الهنود ، وساعدت هذه اللغة البيروني على فتح مغاليق الثقافة الهندية الزاخرة بالعلوم والاداب والفلسفة ، وقد ألف البيروني كتابا عن الهند اسمه (تحقيق ما للهند) والذي يعتبر من أدق ما كتب في المشاهدات كما يعتبر نسيج وحده في الادب العربي ، وكان البيروني قد ألف قبل هذا كتابه الشهير (الآثار الباقية عن القرون الخالية) (١٦) .

(١٦) ياقوت - ارشاد الاريب ج٦ ص ٣٠٨ .

السيوطي - بغية الوعاة ص ٢٠ .

كما حفل بلاط محمود الغزنوي بالاديب الكير والشاعر المبدع الفردوسي صاحب كتاب الشاهنامه - كتاب الملوك - الذي يمثل العبقرية العربية الفذة التي كان يتحلى بها الفردوسي وقد قدم هذا الكتاب الى محمود الغزنوي والكتاب يبحث عن الاساطير المتصلة بملوك الفرس وأبطالهم ، هذا ومن الجدير بالذكر أن الفردوسي قصد بغداد بعد أن انقلب على محمود الغزنوي ولجأ الى بهاء الدولة البويهى ونظم ملحمة الشعرية المشهورة (يوسف وزليخا) والتي كانت لا تقل عن ليادة هوميروس في طول نفس الشاعر كما تميزت هذه المحللة بالرقعة وحسن التصوير وان اعتبرها الادباء انها دون الشاهنامه في الجودة والمكانة . ومات الفردوسي سنة ٤١١هـ - ١٠٢٠م في بلدة طوس (١٧) .

وتوفي محمود الغزنوي بعد أن أصيب بمرض عاناه مدة سنتين لم يضطجع فيهما على فراش بل كان يتكىء جالسا حتى مات سنة ٤٢١هـ وهو كذلك ، وقبره لا يزال في غزنة .

وقبيل وفاة محمود الغزنوي أوصى بولاية العهد من بعده لولده محمد الذي كان ينوب عن والده بمدينة بلخ ، ولقبه جلال الدولة ، ولم يوص لمسعود ولده الاكبر ، وكان محمود قد مال عن ولده مسعود أثر وشاية دبرت ضد مسعود ، وكان هذا عند وفاة والده باصفهان (١٨) فسار الى خراسان وكتب الى أخيه يطلب منه اقراره على البلاد التي

(١٧) الفردوسي ، هو ابو القاسم الفردوسي توفي سنة ٤١١ هـ .
راجع كتاب جهار مقالة ترجمة عزام . وكتاب الشاهنامه ترجمة عزام أيضا .

(١٨) البيهقي - تاريخ البيهقي ص ١٢ .

كان قد فتحها ، ولكن محمدا لم يلب طلب أخيه ، كما قلنا أن مسعودا كان أكبر سنا من محمد وأكثر شجاعة واقداما ، وهذه كانت من العوامل التي ساعدت مسعودا على الوصول الى عرش الغزنويين ، فقد ثار الجند ضد محمد ونودي بمسعود سلطانا للدولة الغزنوية ، فلقبه الخليفة القادر بالله بلقب ناصر دين الله وحافظ عباد الله وظهر خليفة الله ، وسيد ملوك السلاطين •

وعظم سلطان مسعود حتى اجتمع له ملك خراسان وغزنة والرى وأصبهان وبلاد الجبل وفتح قلعا في الهند كانت ممتعة على أيه ، وفي عصره ظهرت قوة السلاجقة وقد نجحوا في دخول هراة سنة ٤٢٢ هـ وبدأوا بالاغارة على خراسان وقد نجح مسعود في كسب انتصار عليهم سنة ٤٢٦ هـ ، ولما كان مسعود مشغولا في فتوحاته في الهند ، فان هذا مما ساعد السلاجقة على التجمع والاستعداد والهجوم على القوات الغزنوية ، فاستولوا على مرو ونيسابور وسرخس سنة ٤٢٩ هـ ، فاضطر مسعود على قتالهم فاتتصر انتصارا أوليا سنة ٤٣٠ هـ ، ولكنه انهزم امام السلاجقة هزيمة منكرة سنة ٤٣١ هـ (١٩) ، وبعد هذه الهزيمة فكر في اللجوء الى الهند لجمع جيوش جديدة والقيام بهجوم شديد على القوات السلجوقية ، وأخذ معه الى الهند أخاه محمدا الذي كان من قبل سلطانا، فلما عبر نهر سيحون ائتمر به بعض عسكره واکرهوا اخاه على موافقتهم واعتقلوه في قلعة كيكي (٢٠) ثم قتلوه سنة ٤٣٢ هـ •

(١٩) الراوندي - راحة الصدور ص ١٦٣ •

(٢٠) ابن الاثير ج ٨ ص ٢٦ •

وتولى امور الغزنويين السلطان مودود بن مسعود الذي حارب عمه محمد وانتصر عليه ودخل غزنة وقتل جميع أولاد عمه محمد عدا واحدا (عبد الرحيم وذلك لعدم رضاه لمقتل عمه) وقد بدت في الأفق خصومة بين مودود وأخيه مجدود الذي كان واليا على اقليم البنجاب ، الذي أعلن استقلاله بـلاهور والمالتان وقد تجهز مجدود من اجل احتلال غزنة ولكنه مات بـلاهور سنة ٤٣٣ هـ (٢١) . وفي عهد مودود كان السلاجقة قد ازداد خطرهم على مر الايام وانتصر الب ارسلان بن داود السلجوقي على جيش مودود الغزنوي ، ومن الجدير بالذكر ان مودود هذا تمكن من احراز انتصار على الغزنواص بست وفي سنة ٤٤١ هـ كان يتأهب لمعركة جديدة مع السلاجقة ولكن المنية عاجلته في غزنة وله من العمر تسعة وعشرون سنة (٢٢) .

وتولى حكم الغزنويين ولده مسعود الثاني ولكن سرعان ما سيطر على السلطنة عمه علي بن مسعود الاول وانتهز الفرصة عبد الرشيد بن محمود الغزنوي ودعا الجند الى طاعته وتأييده فصار الى غزنة وانهزم منها علي بن مسعود فدخل المدينة عبد الرشيد ونصب نفسه سلطانا وتلقب بعز الدولة وشمس دين الله .

وفي تلك الفترة عاشت الدولة الغزنوية فترة من الاضطرابات والقلق وسارت نحو الاضمحلال وبدأت في الظهور دولة جديدة اتسعت على حساب الدولة الغزنوية، تلك الدولة هي الدولة السلجوقية .

(٢١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

مَلَابَسَاتُ فَتَحِ دَمَشَقَ فِي رَوَايَاتِ الْمُؤَرِّخِينَ الْعَرَبِ

الدكتورة أمينة البيطار
كلية الآداب - جامعة دمشق

في التاريخ الاسلامي ثغرات متعددة ، وأحداث يصعب على المؤرخ أن يتخذ حولها موقفا جازما وحازما . وتبقى نتائجها التي يحصل عليها بمثابة ترجيحات ، وآراء تمثل في كثير من الاحيان وجهة نظر المؤرخ الشخصية المعتمدة على بعض الروايات التي رأى فيها الصحة ، قياسا الى بعض الحقائق التي يتصف بها المؤرخ ، صاحب المصدر ، ومقارنه مع الاحداث الاخرى المعاصرة ، وغير ذلك من أمور.

وقد عمل المؤرخون العرب القدامى - توخيا للنزاهة العلمية - على تسجيل اكثر من رواية للحادثة الواحدة ، دون تفضيل احداها على الاخرى . وقد تكون هذه الروايات مختلفة عن بعضها بعضا في الاسس أحيانا ، أو في بعض التفاصيل الجزئية في أحيان كثيرة ، أو أن الرواية تختلف من مؤرخ الى آخر بحسب ناقل الرواية . وفي كثير من الاحيان، تكون المعلومات مضطربة بشكل يعجز الباحث معها عن اعطاء رأي نهائي في الموضوع . ولذلك فإن الوصول الى الحقائق يتطلب من المؤرخ بذل الكثير من الجهد والوقت .

ومهما يكن من أمر ، فإن هذه العوائق التي يصادفها مؤرخنا الحديث ، والتي تجعل البحث شاقا وعسيرا ، يجب ألا تمنعه من المحاولة . فعليه وحده يقع عبء كتابة تاريخنا القومي كتابة علمية . ولا بد من أجل ذلك من أن يسخر كل امكانياته وجهده ، ما وسعه ذلك . وأن يترك المجال واسعا فسيحا أمام من يأتي بعده لاضافة ما يجدونه .

وقد أحببت أن أعرج لتأكيد حديثي هذا على ما أورده مؤرخونا القدامى في فتح مدينة دمشق من روايات ، والصعوبات التي تعترض مؤرخنا الحديث حين يريد اعطاء صورة صادقة ، أو اعطاء رأي جازم حول ذلك . وقد اخترت أن أجمع كل الروايات حول هذا الموضوع ، والتي وردت في كتاب الواقدي ^(١) ، والبلاذري ^(٢) ، والطبري ^(٣) ، وخليفه بن خياط ^(٤) ، وتاريخ ابن عساكره ^(٥) . والتي تجعل القارئ بعد أن يطالعها يتسأل : هل فتحت دمشق قبل معركة اليرموك أم بعدها ؟ وهل كان فتحها صلحا أم حربا ؟ وإذا كانت كما تذكر غالبية المصادر التاريخية قد فتح نصفها صلحا ونصفها الآخر حربا ، فأى الأجزاء تلك التي فتحت صلحا ، وأيها فتحت

(١) فتوح الشام ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة .

(٢) فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية بيروت ، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان .

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية دار المعارف بمصر .

(٤) تاريخ خليفه بن خياط ، رواية بقي بن مخلد ، تحقيق سهيل زكار .

(٥) عبد القادر بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، مطبعة روضة الشام ١٣٢٩ هـ .

حرباً ؟ ومن من القادة دخل صلحاً ؟ ومن منهم دخل حرباً ؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تسجل مصادرنا روايات مختلفة حولها . وسأبدأ بتسجيل الروايات التاريخية التي ورد فيها زمن حدوث معركة اليرموك وفتح دمشق ، والملابس التي لازمت هذا التآرجح في التاريخ للحادثتين . تاركة مناقشة بقية التساؤلات لبحث آخر .

أ - الروايات التي ذكرت فتح دمشق بعد معركة اليرموك .

أورد الطبري ^(١) رواية منقولة عن السري عن شعيب عن سيف عن محمد عن أبي عثمان عن خالد وعبادة جاء فيها : (... لما هزم الله جند اليرموك، وتهافت أهل الواقصة ^(٢) . وفرغ المقاسم والانفال ... استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبي الحميري ، كيلا يغتال برده ... وخرج أبو عبيدة حتى ينزل بالصف ^(٣) ، وهو يريد اتباع الغالة ، ولا يدري يجتمعون أو يفترقون ، فأتاه الخبر بانهم أرزوا الى فحل ^(٤) ، وأتاه الخبر ، بان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص . فهو لا يدري أبادمشق يبدأ أم بفحل من بلاد الاردن ...) .

(١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٦ .

(٢) الواقصة كما وردت في هذه الرواية ، وقد ترد الياقوصة .
واد بالشام في أرض حوران على اليرموك . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر بيروت ١٩٥٧ م ، جزء ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٣) صفر بالضم ثم الفتح والتشديد والراء ، كأنه جمع صافر . وهو مرج الصفر : موضع بين دمشق والجولان . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جزء ٣ ، ص ٤١٣ .

(٤) موضع بالشام بالأردن قرب طبريه : ياقوت الحموي : المصدر

السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٧ .

وقد أجاب الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك ^(١) بقوله : (أما بعد ، فابدأوا بدمشق ، فانهضوا لها • فانها حصن الشام ، ويبت مملكتهم • واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم ، وأهل فلسطين ، وأهل حمص • فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب ، وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزله بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل ، فان فتح الله عليكم ، فانصرف انت وخالد الى حمص •••) •

ولم يقتصر الطبري ^(٢) في ذلك على رواية واحدة • بل أورد رواية أخرى بنفس المعنى في أحداث سنة ١٣ هـ ^(٣) ، عن عمر عن علي بن محمد قال فيها : (حدثني عمر عن علي بن محمد باسناده عن النفر الذين ذكرت روايتهم عنهم في أول ذكرى أمر أبي بكر ، أنهم قالوا : قدم ب وفاة أبي بكر الى الشام ، شداد بن أوس بن ثابت الانصاري ، ومحمية بن جزء ويرفأ • فكتبوا الخبر الناس حتى ظفروا المسلمون - وكانوا بالياقوصة ^(٤) يقاتلون عدوهم من الروم ، وذلك في رجب - فأخبروا أبا عبيدة ب وفاة أبي بكر وولايته حرب الشام ، وضم عمر اليه الامراء ، وعزل خالد بن الوليد) •

كما أورد ابن عساكر ^(٥) رواية على لسان خالد وعباده وأبي

(١) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨ ابن بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، جزء ١ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ •

(٢) المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٤ •

(٣) على حين ان فتح دمشق كان في سنة ١٤ هـ ، انظر فيما بعد •

(٤) هي نفس الواقعة الذي ورد تعريفها فيما سبق ، انظر حاشية

٢ ، صفحة ٢٥ •

(٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٢ •

حارثة ، جعل فيها معركة اليرموك سنة ١٣ هـ ، وقد جاء فيها : (... ثم تواعدوا أن يكونوا باليرموك ، وبلغ هرقل أمر اجتماعهم ، فكتب السى بطارقتة ، أن اجتمعوا لهم ، فنزلوا الواقصة على ضفة اليرموك ... فقال عمرو أيها الناس ألا ابشروا حضرت والله الروم ... وكان خروجهم في صفر سنة ثلاث عشرة • فاقاموا شهري ربيع لا يقدر من الروم على شيء ، ولا يخلصون اليهم ...) •

ويضيف ابن عساكر ^(١) رواية أخرى ، ينقلها عن رجال من أهل الشام عن أشياخهم ، دون أن يحدد أسماءهم ، فيقول : (... وانتهت الهزيمة (في اليرموك) الى هرقل وهو دون مدينة حمص • فارتحل ، وجعل حمص بينه وبينهم ، وأمر عليها أميرا ، وخلف فيها ... كما كان أمر على دمشق وخلف فيها وارتحل) •

ويبدو مما جاء في هذه الروايات ، أن معركة اليرموك كانت قبل فتح مدينة دمشق • وأن الراوي الاول لها سيف بن عمر • ثم تأتي رواية أهل الشام عن أشياخهم •

ب — الروايات التي ذكرت فتح مدينة دمشق قبل معركة اليرموك •

ينقل الطبري عن محمد بن اسحق والواقدي ^(٢) ، أن فتح دمشق كان سنة ١٤ هـ في رجب • فيقول عن الواقدي : (فانه زعم أن فتح دمشق كان في سنة أربع عشرة • كما قال ابن اسحق • وزعم أن حصار

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٣ •

(٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٤١ •

المسلمين لها كان ستة اشهر • وزعم أن وقعة اليرموك كانت في سنة
خمس عشرة) • .

ويورد خليفه بن خياط^(١) في أحداث سنة أربع عشرة للهجرة نقلا
عن ابن الكلبي : (كان الصلح (صلح دمشق) يوم الاحد للنصف من
رجب سنة أربع عشرة) • ثم ينتقل لتحديد تاريخ معركة اليرموك ،
وينقل في ذلك عن محمد بن اسحق وابن الكلبي ، فيقول كانت الوقعة
يوم الاثنين لخمس مضي من رجب سنة خمس عشرة •

ويذكر ابن عساكر نقلا عن الواقدي^(٢) ، والوليد بن مسلم ،
ومحمد بن اسحق^(٣) أن فتح دمشق كان في سنة ١٤ هـ • وهاك رواية
الواقدي كما نقلها : (وفي سنة أربع عشرة كان فتح مرج الصفر^(٤) ،
فأقام المسلمون بها خمس عشرة ليلة من المحرم ، ثم زحف المسلمون الى
دمشق في المحرم ، فحاصروها ستة أشهر الا يوما) • أما عن معركة
اليرموك ، فيقول نقلا عن الوليد بن مسلم ، ويزيد بن عبيدة^(٥) ،
ومحمد بن اسحق^(٦) ، وسعيد بن عبد العزيز^(٧) • (وكانت اليرموك
سنة خمس عشرة وعلى المسلمين أبو عبيدة بن الجراح) •

أما الواقدي فقد ذكر في هذا المجال هاتين الروايتين : الرواية

-
- (١) تاريخه ، جزء ١ ، ص ١١٢ •
 - (٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ •
 - (٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٩ •
 - (٤) مرج الصفر هو مرج الصفر انظر حاشية ٣ ، ص ٢٥ •
 - (٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٩ •
 - (٦) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٩ •
 - (٧) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ •

الاولى يحدد بها ان ارتحال خالد بن الوليد الى دمشق لحصارها بعد فتحه لمدينة بصرى • فيقول (١) : (... كتب (خالد بن الوليد) الى أبي عبيدة كتابا يشره بالفتح (فتح بصرى) ويقول له : يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا الى دمشق ، فالحقنا اليها • ثم كتب كتابا آخر الى أبي بكر الصديق يخبره برحيله (الى دمشق) (...) ويحدد في الرواية الثانية تاريخ معركة اليرموك (٢) • وهي مروية عن عبد الرحمن ابن الفضل عن يزيد بن أبي سفيان عن مكحول قال : (... كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة) •

كما يوحى الواقدي (٣) للقارئ ، بان فتح مدينة دمشق كان قبل معركة اليرموك عن طريق ذكره للخطبة التي ألقاها هرقل الامبراطور البيزنطي في الجموع التي جمعها لارسالها الى اليرموك ، ويطلب من جنوده أن يقفوا موقفا صلبا من العرب الذين غلبوهم على مدن الشام ومنها دمشق فقال : (... وقد غلبوكم على بصرى وحواران وأجنادين ودمشق وبعليك وحمص) •

وكما اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ معركة اليرموك ، فانهم اختلفوا كذلك في تحديد تاريخ مدينة دمشق • فهي في سنة ثلاث عشرة للهجرة في بعض الروايات ، وفي سنة أربع عشرة في روايات أخرى •

١ — تجعل روايات الواقدي فتح مدينة دمشق سنة ١٣ هـ ، ومنها

(١) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣ •

(٢) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٨ •

(٣) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٠ — ١٦١ •

على سبيل المثال الرواية التي مفادها أن خالد بن الوليد بعد فتح مدينة بصرى ، انتقل مباشرة لحصار مدينة دمشق • وكتب كتابا الى أبي عبيدة ابن الجراح يشره فيها بالفتح ، وقد جاء فيه (... يا صاحب رسول الله ، قد ارتحلنا الى دمشق فالحقنا اليها) • وكتب آخر الى الخليفة أبي بكر يقول له (... يوم كتبت اليك هذا الكتاب ارتحلت الى دمشق (١)) •

كما أورد رواية (٢) يذكر فيها أن أبا بكر ارسل مخاطبا خالد بن الوليد قائلا له : (... وأخبرك ان تنزل الى دمشق ، الى أن يأذن الله بفتحها على يدك • فاذا تم ذلك فسر الى حمص وانطاكية والسلام عليك ...)

واتبع الواقدي هذه الرواية برواية أخرى تسدل على أن دخول المسلمين لمدينة دمشق كان يوم وفاة أبي بكر فقال في هذا الشأن (... فقد ورد واتفق رأيهم أن يكتبوا كتابا الى أبي بكر الصديق (رض) في ذلك • وليس عندهم خبر انه مات يوم دخولهم دمشق) (٣) •

ويستطرد الواقدي (٤) في ذكر الروايات المتتابة ، والتي تجعل حصار مدينة دمشق في عهد الخليفة ابي بكر الصديق ، وأن القيادة لخالد ، وان وفاة أبي بكر في أثناء الحصار • فيذكر أن خالدا أراد بعد عودته من مطاردة فلول الخارجين من مدينة دمشق على أثر فتحها أن

(١) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٣ •

(٢) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٦٨ - ٦٩ •

(٣) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣ •

(٤) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٢ •

يكتب كتابا الى الخليفة ابي بكر الصديق بالفتح والبشارة ، لانه لم يكن قد علم بوفاته، ثم يورد الواقدي تنمة للرواية (١) توضح انه كتب هذا الكتاب الموجه الى ابي بكر، وأن عمر تلقاه وقرأه على الناس * ثم انه (... نزل عن المنبر (عمر بن الخطاب) وكتب الى ابي عبيدة (رض) بتوليته وعزل خالد) .

واذا أخذنا هذه الروايات بعين الاعتبار ، فاننا نقرر أن دخول المسلمين الى مدينة دمشق كان في الايام الاخيرة من حياة الخليفة ابي بكر الصديق ، أو عقب وفاته مباشرة * ومعنى ذلك أن دخول المسلمين الى مدينة دمشق كان في نهاية النصف الاول من سنة ١٣ هـ ، لان أبا بكر توفي في جمادي الآخرة من هذه السنة .

٢ - هناك روايات أكثر عددا تلك التي جعلت فتح دمشق بعد وفاة الخليفة ابي بكر الصديق ، أو بالاحرى في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وفي سنة ١٤ هـ * ومن هذه الروايات تلك التي ينقلها لنا ابن عساكر عن ابن اسحق ، ومفادها أن دمشق فتحت سنة ١٤ هـ ، واليرموك بعدها سنة ١٥ هـ * جاء فيها : قال ابن اسحق ، مات المشنى بن حارثة ... في سنة أربع عشرة ...، ودخل ابو عبيدة في تلك السنة دمشق ... فلما علم المسلمون بتلك الجموع ساروا اليهم ، وهم أربعة وعشرون ألفا عليهم أبو عبيدة بن الجراح ، فالتقوا باليرموك في رجب سنة خمس عشرة (٢) .

(١) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٩٥ .

(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٩ .

كما ينقل عن ابن اسحاق وينقل عنه أيضا الطبري رواية
اخرى (١) مفادها (... سار المسلمون الى دمشق، وعلى الناس خالد
ابن الوليد . وقد كان عمر عزله (٢) وأمر أبا عبيدة فربطوها حتى فتح
الله عليهم . فلما قدم الكتاب على أبي عبيدة بامرته وعزل خالد ، استجيا
أن يقرئ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق . وكانت سنة اربع عشرة
في رجب ، وأظهر ابو عبيدة أمرته ، وعزل خالد ...) .

أما الرواية التي ينقلها عن أبي حذيفة (٣) فقد ورد فيها عبارات
تعطي نفس المدلولات ، فتذكر (وولي أبو عبيدة حصار دمشق ، وولي
خالد بن الوليد القتال على الباب الشرقي ... فحاصروا دمشق بعد
هلاك أبي بكر حولا كاملا وأياما ...) .

ولا تختلف عن هذه الروايات ، تلك التي أوردها ابن عساكر (٤)
على لسان الاوزاعي ، والتي يقول فيها : (كنت عند ابن سراقه ، عندما
أتاه النصارى من أهل دمشق بعهدهم ، فاذا فيه ... وكتب في رجب
من سنة أربع عشرة) .

وينقل ابن عساكر عن الشيخ الاموي ، فيذكر : (قال الاموي :
لما ولي عمر بن الخطاب فتحت على يديه دمشق سنة أربع عشرة) (٥) .

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ - الطبري :
المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٥ .

(٢) هكذا جاء في الرواية .

(٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٢ .

(٤) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٨ .

(٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .

ويؤكد ابن عساكر ذلك بروايات أخرى ، فيذكر (في سنة أربع عشرة كان فتح مرج الصفر ، فأقام المسلمون بها خمس عشرة ليلة من المحرم . ثم زحف المسلمون الى دمشق في المحرم ، فحاصروها ستة اشهر الا يوما . . .) (١) .

وينقل عن الوليد بن مسلم قوله (٢) : (سمعت أشياخنا يقولون ، ان دمشق فتحت في سنة أربع عشرة . وأن عمر بن الخطاب توجه نحو الشام سنة ست عشرة ، فولاه الله فتح بيت المقدس على صلح . . . وكانت اليرموك سنة خمس عشرة ، وعلى المسلمين ابو عبيدة بن الجراح) .

كما يذكر رواية منقولة عن سعيد بن كثير بن غفير المصري ، فيها ذكر لبدء حصار المدينة وانتهائه ، فيقول : (. . . فنزلوا عليها في رجب سنة ثلاث عشرة . وتوفي ابي بكر رضي الله عنه بعد ذلك ، وولى عمر ابن الخطاب ، فعلى يديه فتحت دمشق في سنة اربع عشرة . . .) (٣) .

ويورد خليفة بن خياط (٤) رواية يوضح فيها الاشهر التي تم فيها الحصار ، يقول فيها : (حدثني بكر بن عطية قال : حاصروهم أبو عبيدة رجبا وشعبان وشهر رمضان وشوال ، والصلح في ذي العقدة) .

وكما اختلف المؤرخون حول السنة التي تم فيها فتح مدينة دمشق ، فانهم اختلفوا أيضا في الشهر الذي تم فيه الفتح . وفي المسئلة التي استغرقها الحصار . فالحصار في بعض الروايات سبعون يوما ، وفي

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .

(٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٤) تاريخه : جزء ١ ، ص ١١٣ .

بعضها الآخر أربعة أو خمسة أو ستة أشهر ، أو حولا كاملا ، أو أربعة عشر شهرا . والفتح كان في رجب أو شوال أو ذي القعدة وغير ذلك .

فمن الروايات التي ذكرت أن فتح دمشق كان في شهر رجب ، رواية الطبري ^(١) والواقدي ، وخليفة بن خياط ^(٢) ، وابن عساكر ^(٣) في ما نقلوه عن محمد بن اسحق ، والتي جاء فيها : (. . . وكان فتح دمشق في سنة أربع عشرة في رجب) . ولا تختلف عن ذلك الرواية التي أوردها خليفة بن خياط ، والتي ينقلها عن ابن الكلبي ^(٤) وتزيد فقط عن سابقتها ، في تحديد يوم كتابة الصلح ، فيقول : (كان الصلح يوم الاحد للنصف من رجب) .

ويورد ابن عساكر ^(٥) وكذلك البلاذري ^(٦) ، نقلا عن الواقدي بأن المسلمين زحفوا الى دمشق في المحرم ، وحاصروها ستة أشهر الا يوما . وتتفق مع هذه الروايات ، الرواية التي نقلها ابن عساكر عن ابي زرعة ^(٧) .

أما ما ينقله ابن عساكر عن ابراهيم بن سيف بن عمر ، وخليفه بن خياط ، الذي ينقل بدوره عن بكر بن عطيه ، فيجعل وقعة دمشق في

-
- (١) تاريخ الرسل والملوك : جزء ٣ ، ص ٤٤١ .
 - (٢) تاريخه : جزء ١ ، ص ١١٢ .
 - (٣) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .
 - (٤) تاريخه : جزء ١ ، ص ١١٢ .
 - (٥) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .
 - (٦) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - ١٣٠ .
 - (٧) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ .

شهر شوال فيقول : (كانت وقعة دمشق في شوال) ^(١) . وتضيف رواية خليفه بن خياط أن كتاب الصلح تم في ذي القعدة فتقول : (... حاصرهم أبو عبيدة رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال ، وتم الصلح في ذي القعدة .)

اما رواية الواقدي ^(٢) والتي تجعل فتح دمشق يوم وفاة ابي بكر الصديق ، فانها تشير بشكل غير مباشر الى أن الفتح تم في يوم الاثنين ٢٢ جمادي الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة ^(٣) .

أما مدة الحصار فقد اختلفت الروايات فيها . فالمدة في رواية ابن عساكر المنقولة عن الواقدي ^(٤) ستة اشهر الا يوما ، وكذلك في رواية الواقدي المنقولة عن محمد بن اسحق ^(٥) . أما الرواية التي ينقلها ابن عساكر عن سعيد بن كثير بن عفير المصري، فيجعل مدة الحصار فيها اربعة أشهر أو أربعة عشر شهرا فيقول : (... وحاصروها أربعة أشهر، ومنهم من قال حاصروها اربعة عشر شهرا ^(٦) . وتتفق معها الرواية التي نقلها المؤرخ نفسه عن ابي عثمان الصنعاني ^(٧) ، فتجعل مدة الحصار اربعة أشهر فقط .

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ ، على حين ان ابن عساكر نقلا عن الاوزاعي يرى أن الصلح تم في رجب سنة أربع عشرة ابن بدران ، جزء ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٨٣ .

(٣) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤١٩ .

(٤) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٤ .

(٥) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٤١ .

(٦) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٧ .

اما الرواية التي يوردها ابن عساكر عن ابي حذيفة (١) ، فالحصار فيها يمتد لمدة سنة كاملة . فيقول : (فحاصروا دمشق بعد هلاك أبي بكر حولا كاملا واياما) . ورواية اخرى يذكرها لنا ، يقول فيها : (... ان حصار دمشق كان سبعين ليلة حصارا شديدا) . (٢) .

بعد استعراضنا للروايات المختلفة في فتح دمشق . وبعد استقراءنا لها نجد : ان هذه الروايات المختلفة وردت على لسان مؤرخين معروفين ، وكلهم ثقة لا يمكن الشك بما جاؤوا به . ومن هؤلاء السري ، وشعيب ، وسيف بن عمرو ، وخالد ، وعبادة ، ومحمد بن اسحق ، وخليفة بن خياط ، وابن الكلبي ، وبكر بن عطية ، والواقدي ، والشيخ الاموي ، وابو زرعة ، والوليد بن مسلم ، وسعيد بن كثير بن غفير المصري ، وأبي عثمان الصنعاني ، والاوزاعي .

ولا يمكنني الا أن أعمل جاهدة على الوصول الى الحقيقة ولو جزئيا . ولذلك فاني رأيت ما يلي :

١ - ان سبب الخطأ في تأريخ فتح دمشق واليرموك ، ان الروايات لم تسجل في حينها . بل تناقلها الناس عن طريق الرواية الشفهية . وان الراوي وبسبب خصائص الذاكرة الانسانية قد يخطئ بين التواريخ المختلفة . ولما كان مؤرخونا يتوخون الحقيقة والموضوعية ، فانهم نقلوا اليها كل ما حملة لهم الرواة والحفظة ، ولو كان الاختلاف في المتن بسيطا .

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٥٤ .

٢ - يمكن القول أن فتح دمشق كان أسبق من معركة اليرموك
استنادا الى ما يلي :

ان التواريخ كتب الصلح التي أعقبت فتح دمشق كانت في سنة
اربعة عشرة للهجرة ، وبالتحديد في رجب من هذه السنة (١) .

كما أن بعض الخطب التي وردت في هذه المصادر التاريخية، تؤكد
بعض الروايات وترجحها على الأخرى . ومنها على سبيل المثال ما ورد
في خطبة هرقل ، والتي ينصح فيها رجاله بالاستبسال في المعركة المقبلة
وهي معركة اليرموك . ويذكرهم بغلبة العرب عليهم في بصرى وحوران
وأجنادين ودمشق وبعبك وحمص (٢) .

٣ - يمكن أن نضيف أن دمشق خرجت عن الطاعة أثناء معركة
اليرموك ، بسبب قوة الجيوش البيزنطية التي اخترقت بلاد الشام في
هذا الوقت ، وبسبب ما توقعه أهالي المدينة من نجاح الجيوش
البيزنطية في الانتصار على المسلمين . ولما خاب أملهم وانتصر العرب
انتصارا ساحقا ، عاد أهالي دمشق يطلبون تجديد معاهدة الصلح . فقد
ورد في المصادر التاريخية ، ان أهالي دمشق طلبوا تجديد معاهدة
الصلح . ولا يمكن أن يكون طلب تجديد الصلح فقط لان خالد بن
الوليد حين كتب الكتاب الاول لم يضع له تاريخا . فقد أورد
البلاذري (٣) رواية نقلها عن الواقدي قال فيها : (... وتاريخ كتاب

(١) ابن بدران : المرجع السابق ، جزء ١ ، ص ١٤٨ .

(٢) الواقدي : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٠ .

خالد بصلحها (صلح دمشق) في شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة •
وذلك أن خالدا كتب الكتاب بغير تاريخ ••• فلما اجتمع المسلمون
للنهوض الى من تجمع لهم باليرموك ، أتى الاسقف خالدا
فسأله أن يجدد له كتابا ، ويشهد عليه أن أبا عبيدة والمسلمين ففعل •
وأثبت في الكتاب شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان ، وشرحيل بن
حسنة وغيرهم ، فأرخه بالوقت الذي حدده •

وقد طلب الاسقف كما جاء في هذا النص تجديد الكتاب ، ولم
يطلب منه تأريخه • وإذا لم يكن هناك جديد ، فلا حاجة لتجديده ،
ويكفي التأريخ على الكتاب القديم • وبالتالي ، فإن خروج دمشق عن
الطاعة أثناء اليرموك ، هو الذي جعل المؤرخين يحIRON ، هل فتحت
دمشق قبل اليرموك أم بعدها •

أما رواية سيف بن عمر ، والرواية التي جاءت على لسان بعض
أهالي الشام عن أشياخهم ، والتي تجعل اليرموك قبل فتح دمشق ، فهي
روايات ضعيفة للأسباب التالية :

أ - ان الرواية التي أوردها سيف بن عمر لم ترد الا على لسانه •
وقد يكون تأثر بخروج دمشق عن الطاعة أثناء معركة اليرموك • وهو
يعرف أن دمشق فتحت سنة ١٤ هـ ، فجعل اليرموك قبلها سنة ١٣ هـ •

ب - الرواية الثانية التي جاءت على لسان أهالي الشام ، والتي
تجعل هرقل يضع أميرا لدمشق أثناء فراره بعد اليرموك : فلا يؤكد أن
دمشق لم تكن قد فتحت بعد ، بل يمكن اتخاذه دليلا على خروج دمشق
عن الطاعة (طاعة العرب المسلمين) أثناء معركة اليرموك •

٤ - ان عقد صلح دمشق باسم خالد بن الوليد ، يدل على أن مدينة دمشق هي التي كانت تحاصر أثناء وفاة ابي بكر ، وان خالد عزل في أثناء الحصار ، ولم يعلم به . ولذلك فانه وقع على كتاب الصلح بنفسه . وكتب الكتاب باسمه ^(١) . والذي يقول فيه : (كان خالد على الناس ، فصالحهم . فلم يفرغ من الصلح حتى عزل ، وولي أبو عبيدة) .

٥ - ان أبا عبيدة كان يخاطب خالد بالامرة طيلة مدة حصار دمشق ، وان خالد رفض الصلح الذي منحه ابو عبيدة في بداية الامر ، وذكر بعض كلمات تنم عن أنه هو الذي يسير الامور ، وهو الذي يعطي الصلح أو يمنعه . ومما قاله خالد في هذا المجال مخاطبا ابا عبيدة : (وكيف صالحتهم من غير أمري ، وأنا صاحب رأيك ، والامير عليك . . فقال أبو عبيدة : والله ما ظننت أن تخالفني اذا عقدت عقدا ورأيت رأيا ، فإله الله في أمري . .) ^(٢) .

وبهذا يمكنني أن أحدد التالي : ان فتح مدينة دمشق أسبق من معركة اليرموك . وان القيادة فيها كانت لخالد بن الوليد . وان فتحها تم في سنة ١٤ هـ ، وان بداية حصارها كان في سنة ١٣ هـ . على حين أن معركة اليرموك كانت سنة ١٥ هـ . وان دمشق خرجت عن طاعة المسلمين أثناء معركة اليرموك .

وانني لا أدعي الوصول الى الحقيقة فيما كتبت ، ولكن محاولة للبحث عن الحقيقة . وأرجو ان لم أكن قد توصلت اليها ، أن أكون قد اقتربت منها . والله من وراء القصد .

(١) خليفه بن خياط : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١١٢ .

(٢) الطبري : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٤٣٥ .

رُؤسِيَا وَمَشْرُوع سَكَّة حديد بفُداد

الدكتور فوري عبد البقيت
جامعة البصرة

بدأ اهتمام المانيا بالدولة العثمانية منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد ظهر هذا الاهتمام في مؤلفات الاقتصادي الالماني الشهير «فردريك ليست» (١) . فقد نبه الى ما تتمتع به الامبراطورية العثمانية من أهمية كبرى بالنسبة لألمانيا ودعا الى مبدأ تكافؤ الفرص بين جميع الدول الاوروبية للاستفادة من أسواق الامبراطورية العثمانية ، كما أنه تنبأ بقرب سقوط تلك الامبراطورية . وكان يرى أن اتحاد دول وسط اوروبا بزعامة بروسيا هو الوسيلة الناجحة لمواجهة بريطانيا اذ بوسع هذا الاتحاد أن يستفيد من الاجزاء الاوروبية للامبراطورية العثمانية وعارض ليست هجرة العنصر الجرمانى الى العالم الجديد ودعا الى أن تتجه الهجرة الى هذه الاجزاء ولا سيما الى هنغاريا لانها المدخل الى الدولة العثمانية (٢) .

1 - List - National System of Politiceal Economy 1901 London .

2 - Ibid t IX p. 558 .

لقد دعا ليست الى اقامة شبكة من الخطوط الحديدية تربط بين اوروبا وأجزاء امبراطورية العثمانية كمصر وبلاد الشام وما بين النهرين، وان ذلك يقل أهمية عن خطوط الملاحة البحرية التي تربط بين اوروبا والشرق الاقصى لأن هذا المشروع سينعش التجارة الالمانية وسيسهل نقل مصنوعات بافاريا وفرانكفورت وميونخ الى الشرق وسيلحق أضرارا كبيرة بالمصالح الفرنسية والروسية في الامبراطورية العثمانية (١) . كما ظهرت مثل هذه النوايا الالمانية الاستعمارية بالنسبة للدولة العثمانية بصورة واضحة في المقالات التي نشرها مولتكا بعد رجوعه من اسطنبول حيث شغل هناك منصب رئيس البعثة العسكرية الالمانية سنة ١٨٣٥ - ١٨٣٩ (٢) .

وبعد قيام الوحدة الالمانية وما تبع ذلك من تطور سريع في الاقتصاد الالماني ازداد اهتمام البرجوازية الالمانية بالدولة العثمانية كسوق لتصريف صناعاتها والاستفادة مما يتوفر فيها من المواد الاولية ، وهكذا بدأت المانيا منذ سنة ١٨٨٠ تركز اهتماماتها في موضوع المسألة الشرقية . ولعل وجود البعثة العسكرية الالمانية برئاسة الفون «كولتز» في اسطنبول ١٨٨٢ - ١٨٩٥ أوضح دليل على تزايد النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية . وتعتبر مصانع كروب الحربية من أولى المؤسسات الصناعية الالمانية التي عقدت صفقات تجارية مع الدولة العثمانية وخاصة بعد الحرب الروسية التركية ١٨٧٧ - ١٨٧٨ . ثم جاء دور البنوك الالمانية في الحصول على امتيازات بناء السكك الحديد في آسيا الصغرى .

1 - Ibid t VII 274 - 275 .

2 - Moltke - Speeches and momaries Newyork 1893 .

وظهرت فكرة مشروع سكة حديد بغداد منذ السبعين سنة الاخيرة من القرن التاسع عشر عندما فكر بها المهندس النمساوي «الفون بريسل» والذي كان يعمل لدى الدولة العثمانية كخبير في شؤون السكك الحديدية . فرحب السلطان عبد الحميد الثاني بهذا المشروع وانجز القسم الاول منه في الفترة ١٨٧١ - ١٨٧٣ الذي يصل اسطنبول ومدينة أزمير وتم تنفيذ المشروع برؤوس أموال فرنسية ثم انتقل هذا الامتياز الى البنك الماني عام ١٨٨٨ . وقام هذا البنك بتأسيس شركة لبناء الخطوط الحديدية في الاناضول . ودخل رأس المال الالماني في صراع عنيف مع رؤوس الاموال الانكليزية والفرنسية للسيطرة على مشاريع السكك الحديدية في الامبراطورية العثمانية حتى استطاع في نهاية القرن التاسع عشر أن يسيطر على ٢٥٠٠ كم من الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان (١) . وبعد اندحار الدولة العثمانية في حربها مع روسيا القيصرية ركز السلطان عبد الحميد اهتمامه على انجاز مشروع سكة حديد بغداد لتقوية نفوذ الحكومة المركزية على بقية الولايات لاسيما غير التركية منها ولتسهيل القضاء على الثورات التي تقوم في المناطق النائية من أرجاء الامبراطورية . الا أن انشغال السلطان بالحرب البلغارية ١٨٨٥ - ١٨٨٨ أخر تنفيذ المشروع . وكان السلطان عبد الحميد يجذ أن يتولى تنفيذ هذا المشروع ألمانيا او الولايات المتحدة الاميركية باعتبار أن هاتين الدولتين ليست لهما أطماع سياسية في الامبراطورية العثمانية ، وان قيام احدهما بتنفيذه لا ينطوي على أي نوع من الاخطار . على أن العسكرية الالمانية أخذت تعير

(١) توبوليف - الأمبريالية والعسكرية الالمانية موسكو ١٩٦٥ ص ٢٢٢

« باللغة الروسية » .

مسألة الربط بين شبكة الخطوط الحديدية في أوروبا وشبكة الخطوط في آسيا الصغرى أهمية بالغة. وكان لبعثة الفون كولتز اثر ليس بالقليل على ذلك . اذ اقترحت على السلطان العثماني ضرورة بناء شبكة من الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى لخدمة الاغراض العسكرية . ولم يهتم بسمارك بتلك المشاريع عكس الامبراطور وليم الثاني الذي أعار موضوع التوسع الالماني في الدولة العثمانية أهمية كبرى اضافة الى اعتقاده بان الحرب مع روسيا أمر حتمي وان الامبراطورية العثمانية ستكون حليفا لالمانيا في تلك الحرب (١) .

لقد شعرت روسيا القيصرية بخطورة هذا المشروع على مصالحها الاستعمارية في الامبراطورية العثمانية فحاولت القضاء عليه وهو لا يزال في المهد . فذكرت السلطان العثماني بالصدقة الروسية العثمانية وحذرته من مغبة اعطاء الامتيازات لبناء السكك الحديدية في بلاده للدول الاوروبية . فلم يلتفت السلطان العثماني الى التحذيرات الروسية لاعتقاده بان روسيا لا تملك قدرات عسكرية فعالة تمكنها من مجابهة النفوذ الالماني . يضاف الى ذلك ان على بتروغراد ان تأخذ بنظر الاعتبار طوعا أو كرها مصلحة حليفها فرنسا في الحصول على امتيازات جديدة لرؤوس اموالها في أرجاء الامبراطورية العثمانية . الا أن روسيا حاولت من جهة اخرى الاتفاق مع المانيا لحماية مصالحهما في الامبراطورية العثمانية والتي ستعرض للخطر نتيجة لتزايد النفوذ الالماني في اسطنبول . فصرح السفير الروسي في برلين أثناء حديثه مع وزير خارجية

(١) خفستوف - تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٦٣ ج ٢ ص ١٢٦

- ١٢٧ « باللغة الروسية » .

المانيا الهر بيلوف • بان النجاحات الاقتصادية الالمانية في الامبراطورية العثمانية سوف تؤدي الى انتصار السياسة الالمانية وهيمنتها على الدولة العثمانية ، وهذا ما لا تسمح به روسيا • فرد عليه الوزير الالماني بقوله : ان ما تحتاج المانيا اليه هو الاسواق وأهدافها اقتصادية فقط وليس هناك أية خطورة على المصالح السياسية الروسية في الامبراطورية العثمانية • الا ان روسيا لم تثق بهذه التعهدات فاقترحت على المانيا توقيع اتفاق ينص على اعتراف المانيا بحقوق روسيا في المضائق مقابل تعهد روسيا بعدم عرقلة مشاريع السكك الحديد في آسيا الصغرى (١) • وصرح السفير الروسي : بان أهداف حكومته هي ضمان سلامة الدولة العثمانية ولا يسمح بزحزحة المصالح الروسية في المضائق أو تعرضها للخطر وفي حالة ظهور مثل هذه الاخطار فان روسيا ستكون ملزمة باحتلالها (٢) •

لم تعر الحكومة الالمانية اذنا صاغية للتهديدات الروسية وعروضها بعقد الاتفاقية بسبب قوة مركزها في السياسة الدولية بعد حصولها على ميناء «بورت ارثر» في البر الصيني والذي حد من نفوذ روسيا في الشرق الاقصى وشكها في احتمال لجوء روسيا الى اسلوب القوة والحرب لحماية مصالحها ولذلك لم تر من مصلحتها أن توافق على تحديد نفوذها في الدولة العثمانية •

1 - W. L. Langer . the diplomacy of imperialism 1890 - 1902 New-york 1951 p. 640 .

(٢) خفستوف — تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٦٣ ج ٢ ص ١٢٨
« باللغة الروسية »

زار الامبراطور وليم الثاني اسطنبول للمرة الثانية سنة ١٨٩٨ .
وقد ساعدت هذه الزيارة المؤسسات الالمانية في حصولها على امتياز
سكة حديد بغداد وتمت موافقة السلطان المبدئية على ذلك المشروع في
٢٣ كانون أول من عام ١٨٩٩ وقد استاء الحكام الروس بعد أن وصلت
اليهم أنباء الامتياز لاسيما وان روسيا القيصرية كانت أشد الدول
الاوروبية معارضة للمشروع منذ اللحظة الاولى لظهور فكرته . اذ أنها
اعتبرته وسيلة لتقوية النفوذ الالماني في الامبراطورية العثمانية وانه
سيسهل نقل وتصدير منتجات الحبوب من كافة ارجاء الامبراطورية
العثمانية الى الاسواق العالمية . وفي نفس الوقت يسهل مهمة نقل
المنتجات الصناعية الاوروبية وخاصة الصناعات الالمانية الى أسواق
الشرق وهذا ما يهدد مصالح النبلاء والاقطاعيين الروس واصحاب
المصانع والتجار منهم في الوقت الذي يحول فيه الامبراطورية العثمانية
الى مستعمرة المانية . ولم يكن المشروع ضد خطط روسيا القيصرية
التوسعية في الشرق الادنى فقط بل جاء تهديدا مباشرا لحدودها
الجنوبية كذلك . وكان لهذه الاعتبارات أثر واضح في تحديد موقف
روسيا القيصرية من مشروع السكة . وقد كتب السكرتير الاول
للسفارة الروسية في اسطنبول « تشاريكوف » في سنة ١٨٩١ مقالة
المعنون « تساؤلات حول مشروع سكة حديد آسيا الصغرى » جاء فيه:
ستنافس آسيا الصغرى روسيا بعد تنفيذ مشروع سكة حديد الاناضول
— بغداد في تصدير الصوف والجلود والحبوب الى الاسواق العالمية
كما سيسهل عملية تدفق البضاعة الغريبة ورؤوس الاموال الى آسيا
الصغرى وسيمتد ذلك الى اسواق فارس بعد ان كانت سكة حديد
القفقاس مغلقة امام البضاعة الاوروبية منذ سنة ١٨٨٣ فستصل هذه

البضائع الى شمال فارس عن طريق آسيا الصغرى (١) . وقد أوضح تشاريكوف ان بناء الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى سيساعد على تدفق البضاعة الأوروبية الرخيصة الى فارس وأفغانستان ويوجه ضربة قوية للصادرات الروسية الى تلك الاقطار . وجاء في تقارير تشاريكوف السرية التي بعث بها الى بتروغراد ان بناء شبكة الخطوط الحديدية في آسيا الصغرى سيؤدي الى توسع النفوذ الاقتصادي للدول الأوروبية ولا سيما ألمانيا وبريطانيا في الدولة العثمانية وان هذا النفوذ الاقتصادي سيؤدي بدوره الى ازدياد النفوذ العسكري والسياسي لتلك الدول على سواحل البوسفور وعندئذ تفقد روسيا ممرها الحيوي الوحيد من خلال البحر الاسود ومن جميع مناطق الجنوب ولا يمكن استرجاع هذا المنفذ الحيوي الا باندلاع حرب عالمية (٢) . وقد حققت البرجوازية الروسية في الواقع مكاسب اقتصادية مهمة في الشرق الأدنى ففي سنة ١٩٠٠ كانت العلاقات التجارية الروسية التركية تكون ٩ بالمائة من مجموع التجارة الخارجية للامبراطورية العثمانية . وفي هذا الوقت كان المجموع السنوي لقيمة البضاعة المصدرة من روسيا الى تركيا ٣٠ مليون روبل والى فارس ٤١ مليون روبل وكانت معظم تلك الصادرات من الإقمشة والدقيق والجلود والحبوب . ولا شك في أن فوائد هذا المشروع لا تقتصر على سد حاجة أسواق تركيا بما تحتاج اليه من الحبوب فقط بل ستسهل لها عملية تصدير المواد الغذائية الى الاسواق

(١) تشاريكوف - تساؤلات حول مشاريع السكك الحديدية في آسيا الصغرى - مقتطفات جغرافية وطوبوغرافية حول آسيا ج ٩ بتروغراد سنة ١٨٩١ ص ١٠ « باللغة الروسية » .

(٢) نوفيچيف - اقتصاديات تركيا حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ١٤٦ « باللغة الروسية »

العالمية . وسيصبح بإمكان المنتجات العثمانية منافسة المنتجات الروسية في تلك الاسواق . يضاف الى ذلك المنافسة التي ستعرض لها المنتجات الروسية في الاسواق العثمانية والفارسية من تدفق البضائع الالمانية والنمساوية . كما ستغزو الاسواق الاوروبية ملايين الاطنان من حبوب وادي الرافدين بعد تنفيذ المشروع مما سيوجه ضربة قوية للمنتجات الزراعية الروسية في اسواق اوروبا (١) .

اما المخاطر العسكرية للمشروع فتكمن في أنه سيسهل على الدولة العثمانية نقل جيوشها من كافة ارجاء الامبراطورية الى حدود روسيا الجنوبية . وستقوى تركيا عسكريا وهي التي تحتفظ بفتح البحر الاسود . كما سيسهل المشروع نقل الجنود من اوروبا الى حدود القفقاز وقد أشار الفون كولتز على السلطان العثماني صراحة بان تنهياً الامبراطورية العثمانية للعدو الكبير ويقصد به روسيا . وستظهر أهمية السكك الحديدية في هذا المجال لقيامها بنقل الجيوش من اوروبا الى حدود القفقاس خاصة وقد أكد الامبراطور وليم الثاني بان الدولة العثمانية ستكون حليفة لالمانيا في حربها المنتظرة ضد روسيا (٢) . كما اعتبرت روسيا أن تنفيذ المشروع سيؤدي الى احتلال الالمان آسيا الصغرى بصورة سلمية وذلك عن طريق ارسال المهاجرين الى المناطق التي سيمر بها خط السكة وكان الاقتصادي الالماني الشهير «فردريك ليست» قد دعا الى ذلك صراحة في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وما

(١) توميلوف - تقرير حول رحلة في تركيا الاسيوية ج ١ بتروغراد سنة ١٩٠٧ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ « باللغة الروسية »

2 - Earle Edward mead - Turyky the great power and the Baghdad railway . New york 1939 p. 65 66 .

سيؤدي اليه ذلك من ارهاق الخزينة العثمانية ورأس المال العالمي في مشاريع وأهداف لا تخدم مصالح روسيا القيصرية اطلاقاً^(١) . ولا يخفى أن روسيا لا ترغب أن يكون لها جار قوي ولذلك فانها تعمل على أن تبقى الدولة العثمانية ضعيفة . ولا يفوتنا أن نشير الى وجود مشروع روسي مقترح حول مد خط حديدي من ارمينيا الى الاسكندرونة ، مما يجعل مشروع سكة حديد بغداد معارضا لهذا المشروع الروسي . وذلك مما يزيد في معارضة روسيا مثل هذه المشاريع . وقد ازدادت المقاومة الروسية للمشروع شدة بعد ان طرح المهندس النمساوي «ليسمان» مشروع بناء جسر يربط بين ضفتي البوسفور في المكان الذي لايزيد فيه عرض المضيق ٦٠٠م بين حصار روميلي وحصار اناضول . وكان القصد من وراء هذا المشروع ليس فقط ربط السكك الحديدية المباشرة بين اوروبا وآسيا بل انه يحمل اهدافا عسكرية ايضا تتمثل ببناء القلاع والحصون العسكرية على جانبي الجسر المقترح^(٢) . فادرك الحكام الروس خطورة المشروع على مصالح روسيا الاستعمارية وضرورة بذل جهود مكثفة لتحويل مسار السكة من الشرق والجنوب بعيدا عن سواحل البحر الاسود والقفقاس وخاصة بعد فشل محاولاتهم الرامية الى احباط المشروع قبل ولادته . فتقدمت الحكومة الروسية بطلب الى العثمانيين حول حصول روسيا على امتياز بناء السكك الحديد في المناطق الواقعة في جنوب سواحل البحر الاسود ودارت محادثات بهذا الشأن بين السفير الروسي في اسطنبول «زينو فيسيف»

1 - Ibid p. 140

2 - W L. Langer diplomacy of Imperialism 1890 - 1902 New-york 1961 p. 640 .

٩. وزير خارجية الدولة العثمانية توفيق باشا . وكانت السفارة الالمانية في العاصمة العثمانية تتابع اخبار هذه المحادثات بكل دقة وعناية ولم تقف في وجهها أية صعوبة في حصولها على ما دار في تلك المحادثات نظرا للعلاقات الحسنة القائمة بين المانيا والدولة العثمانية . وحينما علم السفير الالماني في اسطنبول - مارشال - بالمشروع الروسي حول انشاء خط حديدي في المناطق الجنوبية للبحر الاسود اقترح على حكومته وجوب اتخاذ موقف صلب لاحباط المشروع الروسي والمباشرة بانشاء سكة حديد بغداد دون انتظار النتائج النهائية للمحادثات الروسية العثمانية ودون انتظار تقرير لجنة «شتيمريخ» الموفدة الى بلاد ما بين النهرين حول تثبيت مسار الخط . واقترح أن يكون هذا المسار من خلال ديار بكر - الموصل ثم الضفة اليسرى لنهر دجلة . وقد اعتقد مارشال ان هذه الاقتراحات سوف لاتخدم المصالح الالمانية فقط ولكنها ستحبط محاولات روسيا في الحصول على امتياز انشاء خط حديدي في جنوب البحر الاسود (١) .

مؤرخة قديم

وصلت المفاوضات الروسية - العثمانية الى طريق مسدود في شباط عام ١٩٠٠ بسبب تعنت الجانب العثماني لاعتقاده بعدم لجوء روسيا القيصرية الى اسلوب القوة في الحصول على هذا الامتياز يضاف الى ذلك النشاط الدبلوماسي الالماني في احباط تلك المفاوضات في الوقت الذي طلبت فيه من روسيا المساهمة في المشروع (٢) . فحاولت الدبلوماسية الالمانية

(١) برؤسليمسكي - السياسة الخارجية والدبلوماسية الالمانية في نهاية القرن التاسع عشر موسكو ١٩٥١ ص ٥٠٢ « باللغة الروسية »
(٢) Earle p. 83 .

اقناع السفير الروسي بان تعاون اصحاب رؤوس الاموال من الروس والالمان في آسيا الصغرى يعتبر من أحلام وطموحات السياسة الالمان في الوقت الذي أوصى فيه السفير الالمانى المسؤولين العثمانيين بضرورة قطع مفاوضاتهم مع روسيا • وحاول الحكام العثمانيون استغلال الخلافات الروسية الالمانية وتعميقها لصالحهم • وعلى هذا الاساس كشف توفيق باشا للسفير الالمانى في ٢٥ شباط ١٩٠٠ محادثاته مع السفير الروسي في اسطنبول والذي اعلن بان روسيا ستكشف عن مطالبتها في الحصول على امتيازات السكك الحديد في آسيا الصغرى فيما اذا رفضت الدولة العثمانية الامتياز الالمانى لمشروع سكة حديد بغداد • وبعكس ذلك فقد هدد زينو فيسيف بقيام الثورة في شبه جزيرة البلقان ضد السلطات العثمانية (١) ولما علم الروس بذلك طلبت وزارة الخارجية الروسية من سفيرها في اسطنبول ان يكون حذرا في محادثاته مع المسؤولين العثمانيين وأن يكف عن المواقف العلنية والصريحة في مناهضة المصالح الالمانية في الامبراطورية العثمانية • فتوقف زينو فيسيف الجاحه على السلطات العثمانية برفض مشروع سكة حديد بغداد خاصة وقد انتهى خطر قيام الثورة في البلقان الذي استغلته روسيا كوسيلة للضغط على الدولة العثمانية من اجل تنفيذ مطالبها •

ويتضح الموقف الروسي الجديد في الرسالة التي بعث بها وزير خارجية روسيا موار فيسيف الى السفير الروسي في برلين التي تضمنت عدم معارضة روسيا للمشروع كليا وانما اقتضت على عدم اقتراب السكة من المناطق الواقعة الى الجنوب من سواحل البحر الاسود حيث المصالح الاستعمارية لروسيا وعلى ضوء الموقف الروسي الجديد أراد

(١) نوفيغيسيف - تاريخ الاقتصاد التركي حتى الحرب العالمية الاولى موسكو ١٩٣٧ ص ٢٣٢ « باللغة الروسية » •

زينو فيسيف ان يقنع المسؤولين العثمانيين بمنح رؤوس الاموال الروسية امتيازات انشاء الخطوط الحديدية في المنطقة المذكورة اذا ما قررت السلطات العثمانية انشاء تلك الخطوط هناك (١) . الا ان الدبلوماسية الالمانية عارضت المواقف الروسية الجديدة كما عارضها السفير البريطاني في اسطنبول - كونور - الذي هاجم المطالبين الروسية بشدة حتى أنه في ٢ مارس سنة ١٩٠٠ هدد برفض الحكومة البريطانية تنفيذ التعهدات الملقاة على عاتقها بموجب اتفاقية قرض سنة ١٨٧٨ اذا ما منحت روسيا مثل تلك الامتيازات (٢) كما حاولت الدبلوماسية البريطانية دفع المانيا مجابهة المشاريع الروسية فنبه رئيس وزراء بريطانيا في كانون الثاني سنة ١٩٠٠ الحكومة الالمانية الى التحشدات الروسية في آسيا وان الغرض منها ارهاب السلطات واجباره على الموافقة على المشاريع الروسية ، وان روسيا تنوي بناء شبكة من الخطوط الحديدية تحيط بسواحل البحر الاسود . ودعا للعمل المشترك لاجباط تلك المشاريع . وساهمت الصحافة البريطانية ايضا في ذلك فقد أشارت بعضها الى وجود تحشدات روسية تقدر بـ ٢٥٠ ألف جندي على الحدود الروسية العثمانية في القفقاس (٣) .

وعلى الرغم من معارضة بريطانيا و المانيا وفرنسا واتهامهم روسيا بمحاولاتها لتحويل آسيا الصغرى الى منطقة نفوذ روسية فقد استمرت

(١) خفستوف - تاريخ الدبلوماسية ج ٢ ، موسكو ١٩٦٣ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ . « باللغة الروسية »

(٢) مذكرات زينوفيسيف ٤ - ١٧ مارت سنة ١٩٠٠ موسكو ١٩٢٢
« باللغة الروسية »

Standard 28 Mart 1900 .

(٣)

المحادثات الروسية العثمانية . وتتضح اهداف روسيا من هذه المفاوضات من فحوى الرسالة التي بعث بها 'مورفيسيف الى القيصر نيقولا الثاني: وقد جاء فيها : تهدف شروطنا التي نطرحها على السلطان الى تأمين المناطق الغربية من سواحل البحر الاسود وحدودنا مع آسيا الصغرى في القفقاس من أي عدوان أو غزو اجنبي وذلك بان يمتنع السلطان عن منح اقامة السكك الحديدية في هذه المنطقة لأية دولة اجنبية ، وان يتعهد كذلك بعدم تحصين البوسفور . كما دعا مورا فيسيف في رسالته الى التوفيق بين المصالح الروسية والالمانية في الامبراطورية العثمانية بشرط أن لا يفسح المجال لالمانيا بان تلعب دور فعال على سواحل البوسفور حيث تملك روسيا مهمة تاريخية (١) ، لقد حققت المفاوضات الروسية العثمانية تقدما ملحوظا عندما وقع وزير الخارجية العثماني توفيق باشا مع السفير الروسي في اسطنبول زينو فيسيف اتفاقا في ٣١ مارت سنة ١٩٠٠ تضمن موافقة الجانب العثماني على انه اذا ما تقرر انشاء خطوط حديدية في المناطق الممتدة بين سواحل البحر الاسود وخط المدن المتمثل بـ اققرة - قيصري - سيواس - خاربوت - دياربكر - وان . فانها ستقيمها باموالها الخاصة وفي حالة عجز رأس المال العثماني عن القيام بذلك فيمنح الامتياز الى رؤوس الاموال الروسية بنفس الشروط التي منح بموجبها مشروع سكة حديد بغداد - برلين الموقعة في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٩٩ (٢) علما ان روسيا لم تحقق كل طموحاتها واهدافها بهذا الاتفاق اذ ان تعهد السلطان بعدم منح الدول الاجنبية أي امتياز

(١) الارشيف الأحمر ، موسكو ١٩٢٦ ص ١٠-١١ «باللغة الروسية»

(٢) نوفيجيف - تاريخ الاقتصاد التركي حتى الحرب العالمية الاولى

موسكو ١٩٣٧ ص ٢٣٣ «باللغة الروسية» .

بناء السكك الحديدية خلال عشرة سنوات في مناطق آسيا الصغرى الواقعة على سواحل البحر الاسود وعلى حدود روسيا في القفقاس كانت عهدا شكليا (١) كما استثنى الاتفاق المنطقة الممتدة بين مدينة ادا بازر - هرقليا من احكامه وذلك بتأثير النفوذ الالماني على السلطان العثماني كما لم يعالج الاتفاق كافة المشاكل التي تعاني منها روسيا القيصرية والتي ظهرت نتيجة للتوغل الالماني في الامبراطورية العثمانية. وكان المكسب المهم الذي حصلت عليه روسيا من ذلك هو تعهد العثمانيين بابعاد مسار سكة حديد بغداد عن سواحل البحر الاسود وان يكون مسارها جنوب انقره عبر جبال طوروس ثم أضنه - حلب - الموصل - بغداد .

ان نجاح المانيا في حصولها على امتياز سكة حديد بغداد ثم تواجد البعثات العسكرية الالمانية وتزويد الجيش العثماني بالسلاح الالماني ومحاولة الحصول على امتيازات جديدة لمذ فروع جديدة لسكة حديد بغداد . كل هذه الامتيازات تعني وقوع الدولة العثمانية في الحلقة الاستراتيجية العسكرية الالمانية . وهذا مما زاد من قلق العسكريين الروس وشعورهم بالخطر الالماني المتزايد ولم يكن من الصدفة ان ترسل الحكومة القيصرية بعثة عسكرية تحت اشراف الجنرال (توميلوف) في سنة ١٩٠٠ لدراسة الاهمية العسكرية لمشروع سكة حديد بغداد فكان على البعثة ان تدرس اهمية الخط للمسافة بين أضنه و الموصل واثار ذلك على سرعة نقل الجيوش العثمانية الى حدود القفقاس .

فجاء تقرير اللجنة بعد زيارتها لتلك المنطقة موضحا ما ينطوي عليه

هذا المشروع من مخاطر عسكرية تهدد حدود روسيا الجنوبية وخاصة منطقة القفقاس . فقد جاء في التقرير (ان السكك الحديدية ستساعد على نقل الفيلق التركي الخامس الموجود في ديار بكر الى الحدود الروسية بمدة لا تتجاوز نصف اسبوع في الوقت الذي كان مقررا ان هذه العملية تستغرق اسبوعين ونصف او ثلاثة أسابيع . وبالنسبة للفيلق السادس المتواجد في أرضروم فلا تزيد مدة نقله على ثلاثة أيام بدلا من اسبوعين او ثلاثة كما ستساعد السكة على تنقل الجيوش العثمانية بسرعة للقيام بمناورات عسكرية ضد روسيا يضاف الى ذلك انه سيصبح بإمكان الدولة العثمانية الابقاء على وحدات عسكرية قليلة في هذه الأماكن وتتكاثر عند الحدود الروسية (١) وأشار في ختام تقريره الى خطورة النفوذ الألماني في الامبراطورية العثمانية بالنسبة للمصالح الروسية . وفي الواقع فان هذا المشروع يعزز مكانة الدولة العثمانية العسكرية بقدر ما يقوي من مركز الامبريالية الألمانية في الامبراطورية العثمانية ، وسيكون بإمكان الجيش الألماني الوصول الى حدود القفقاس بفترة زمنية تتراوح بين ٦ - ١٠ أيام كما سيتيح للامبريالية الألمانية السيطرة على مضائق البوسفور والدردنيل وستتمكن من فرض حصار عسكري على المناطق الجنوبية للحدود الروسية ويسهل عملية وصولها الى فارس . لقد حددت هذه الاسباب اضافة الى تهديد معالم الطبقات المتنفذة في روسيا القيصرية موقف الدبلوماسية الروسية من مشروع سكة حديد بغداد . حاولت روسيا عرقلة تنفيذ المشروع عن طريق اقناع بريطانيا بعدم المساهمة المالية في تكاليفه (٢) كما تمكنت من صرف

(١) توميلوف - ملاحظات حول رحلة في تركيا الاسيوية ج ١

بتروغراد سنة ١٩٠٧ ص ٤١٣ - ٤١٥ « باللغة الروسية »

2 - J. B. Walf - the diplomatic history of Baghdad Railroad

L. 1933 p. 40 .

فرنسا عن المشروع ولو لفترة قصيرة ولكن سرعان ما غيرت فرنسا موقفها وظهرت استعدادا للمساهمة فيه ولم تقف فرنسا عند هذا الحد بل أخذت بإقناع روسيا للمشاركة المالية في المشروع إذ أنها اعتقدت أن رفض روسيا ما هو إلا مناورة للحصول على مكاسب سخية ولذلك استمرت محاولاتها في إقناع روسيا مستغلة كونها في حلف واحد إلا أن المحاولات الفرنسية هذه باءت بالفشل ولم تلق تأييدا من قبل لامزداروف وزير الخارجية وفيتة وزير المالية اللذين يمثلان العناصر الأكثر رجعية في الحكومة الروسية ، وقد أيدتها الصحافة الرجعية في روسيا كصحيفة الأزمنة الحديثة التي نشرت في آب ١٩٠١ مقالين أكدت في المقالة الأولى على أن مشروع السكة لا يخدم إلا مصلحة ألمانيا فقط واتفقت موقف بريطانيا من المشروع واعتبرت مساهمتها أو تأييدها للمشروع تدميرا لمصالحها لأنها تساعد ألمانيا على الوصول إلى الخليج العربي (١) . وأكدت في المقالة الثانية على أن مساندة بريطانيا مشروع سكة حديد بغداد يعني مساهمتها في فتح الطريق للبضائع الألمانية لكي تصل إلى الهند . كما هاجمت الصحيفة وأنصارها المساندة الفرنسية للمشروع واعتبرت مساهمة فرنسا فيه متناقضة لمضمون الاتفاق الروسي الفرنسي سنة ١٨٩١ (٢) .

وفي اللقاء الذي تم بين القيصر نيقولا الثاني والامبراطور وليم الثاني في مدينة دانزاك في الفترة ١١-١٣ أيلول سنة ١٩٠١ حاول الامبراطور الألماني إقناع القيصر الروسي في أن مشروع سكة حديد بغداد مشروع تجاري صرف وأن أهدافه عالمية وأن مصلحة روسيا ستؤخذ بنظر الاعتبار عند تحديد مسار السكة وأن ألمانيا سوف لا تساهم

(١) الأزمنة الحديثة ١٧ آب سنة ١٩٠١ موسكو « باللغة الروسية »

(٢) الأزمنة الحديثة ١٨ آب سنة ١٩٠١ موسكو « باللغة الروسية »

باكثر من ٢٥ بالمائة من مجموع اسهم الشركة . وفي ٢٤ ايلول سنة ١٩٠١ اعلن وزير خارجية المانيا عن فناعة القيصر الروسي بسياسة المانيا في الشرق وترحيبه بفكرة مساهمة راس المال الروسي في المشروع واعتقاده بصحة ادعاءات المانيا بان مشروع السكة تجاري بحت . ويظهر ان هذه الاتفاقيات لم تتعد اطار المجاملة اذ استمرت الصحافة الروسية في مهاجمة مشروع السكة كما استمر زينو فيسيف في مناهضته للسياسة الالمانية في اسطنبول ولذلك فقد طلب ييلوف - وزير خارجية المانيا في ١٩ تشرين أول من عام ١٩٠١ من الممثل الالمني في بتروغراد ان يحتج لدى الحكومة الروسية حول المقالات الالاذعة التي توجهها الصحافة الروسية ضد المانيا ووجوب الفات نظر زينو فيسيف للكف عن مهاجمته الدبلوماسية الالمانية في العاصمة العثمانية الا ان جواب لامزداروف على مذكرة الاحتجاج لم يكن مرضيا اذ جاء في قوله لا تدهشه تحركات الصحافة الروسية مادامت هذه التحركات متطابقة مع المصالح الروسية والالمانية (١) وحاولت روسيا عرقلة تنفيذ المشروع عن طريق مطالبتها للسلطة العثمانية بدفع ما بذمتها من غرامات نقدية وتعويضات الحرب . ومن جانب آخر استمرت الضغوط الالمانية لاقتناع روسيا للمساهمة في المشروع ضمن شروط مغرية مثل اعطائها ٤ بالمائة من مجموع الاسهم وحصولها على مركز ملائم في مجلس ادارة السكة . ومع ذلك بقيت روسيا متحفظة تجاه هذا المشروع وفي كانون الثاني من سنة ١٩٠٢ اعلن فيته وزير مالية روسيا أسباب رفض روسيا المساهمة في مشروع السكة وهي : -

١ - ستنتقل سكة حديد بغداد الجبوب والغسلال الرخيصة من

(١) مذكرات زينو فيسيف ١٥ تشرين ثاني سنة ١٩٠١ موسكو ١٩٢٢
« باللغة الروسية »

آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين الى الاسواق الاوروبية فتنافس الغلال والحبوب الروسية •

٢ - ستقلل من اهمية الطريق البري بين اوروبا والهند عبر آسيا الوسطى •

٣ - ستزيد السكة من قوة النفوذ الاجنبي في آسيا الصغرى •

٤ - ان تعدد مالكي المشروع سيعرقل ازدهاره • وقد تنفرد في المستقبل دولة واحدة بالسيطرة عليه ، كما حصل بالنسبة لقناة السويس وان هذه الدولة سوف لا تكون روسيا •

٥ - سيشتد الصراع بين الدول الاوروبية بعد تنفيذ المشروع •

٦ - ستقوم الدولة العثمانية بالدفع لسد نفقات المشروع الى الدول الاوروبية بدلا من دفعها هذه المبالغ الى روسيا كغرامات حرية (١) •

٧ - تفضل السلطة القيصرية صرف امكانياتها المالية على مشاريع السكك الحديدية داخل روسيا بدلا من صرفها على مشروع سكة حديد بغداد (٢) •

وعلى الرغم من الوضوح الذي اتسم به موقف روسيا فقد استمرت محاولات فرنسا في جر روسيا للمساهمة في المشروع ، ففي نهاية كانون الثاني سنة ١٩٠٢ عرض وزير خارجية فرنسا دلكاسيه على السفير

(١) كانت الغرامة المالية التي فرضت على الدولة العثمانية بعد حربها مع روسيا ١٨٧٧ - ١٨٧٨ ٧٠٠ مليون فرنك •

(٢) مجلة اخبار المال والصناعة والتجارة ٦ كانون الثاني سنة ١٩٠٢ بتروغراد « باللغة الروسية »

الروسي في باريس «ارسوق» قيام فرنسا بدفع قيمة الاسهم الروسية في المشروع فرفض فيته العرض الفرنسي الجديد. ومن جانب آخر فقد استمرت صحيفة الازمنة الحديثة في انتقاداتها اللاذعة للسياسة الفرنسية وموقفها من مشروع سكة حديد بغداد ، ووصفت مساهمة فرنسا في المشروع بأنه دليل على عدم اعتراف فرنسا بواقع علاقاتها مع روسيا ، وبموجب مضمون الاتفاق الروسي الفرنسي فإن على روسيا ان لا تساند المشاريع الألمانية في الالزاس واللورين وانطلاقا من هذا المبدأ يجب على فرنسا ان لا تساند او تسعى الى تنفيذ مشروع سكة حديد بغداد (١) .

وبعد التوقيع النهائي على امتياز سكة حديد بغداد في سنة ١٩٠٢ سلكت الدبلوماسية الروسية اسلوبا جديدا لمناهضة المشروع، فقام زينو فيسيف بتحذير السلطات من الكارثة المالية والتضحيات المالية التي ستلازم عملية تنفيذ المشروع. ودعا زينو فيسيف الى اتباع كافة الوسائل لمنع قيام أي اتفاق تجاري جديد بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية . ودعا فيه الى عدم موافقة الحكومة الروسية على زيادة نسبة الضرائب والمكوس الخارجية الى ١١ بالمائة ولكن على العكس يجب المطالبة بتخفيضها الى حد ٣ بالمئة كما يرى من الضروري أن تدفع الدولة العثمانية ما بذمتها من الغرامات المالية لروسيا ووجوب وضع اشراف على نظام الدولة العثمانية المالي في استلام الضرائب من الولايات العثمانية الاخرى لحساب تسديد الديون بذمة الدولة العثمانية (٢) وقد عارضت السلطة القيصرية مشروع

(١) الازمنة الحديثة - موسكو سنة ١٩٠١ - ١٨ مارت . « باللغة الروسية »

(٢) نوفيجيف - اقتصاديات تركيا حتى الحرب العالمية الاولى .
موسكو ١٩٣٧ ص ١٥٨ « باللغة الروسية »

زيادة القروض للدولة العثمانية والذي تقدمت به البنوك الالمانية وأيدتها البنوك الفرنسية على ان يتم اتفاق هذه القروض على مشروع سكة حديد بغداد .

وحاولت روسيا أن تجر الى جانبها امبراطورية النمسا والمجر في سبيل عرقلة تنفيذ المشروع فقد اقنع زينو فيسيف سفير النمسا والمجر في اسطنبول في أن سبب فقر مقدونيا يعود الى ضآلة ما تنفقه الدولة العثمانية في تلك البلاد واتفق الدبلوماسيان على مطالبة السلطة العثمانية بأن تزيد من الاتفاق على المشاريع الاصلاحية في مقاطعة مقدونيا من الاموال التي تحصل عليها من القروض الاجنبية او زيادة الضرائب والرسوم الجمركية . وقد حظيت هذه الآراء بتأييد وزير خارجية النمسا والمجر لاسيما وان سياسة النمسا والمجر كانت تناهض السياسة الالمانية حينذاك (١) . وهكذا اتفق وزيرا الدولتين - النمسا والمجر وروسيا - على احباط مشروع سكة حديد بغداد مشروع حلفائها - المانيا وفرنسا . وحاولت الدبلوماسية الروسية احباط المشاريع الالمانية حول انشاء فروع لسكة حديد بغداد . ففي أوائل مارت سنة ١٩٠٢ علم زينو فيسيف من سفير فارس في اسطنبول بمحاولات الرأسماليين الفرس ومن وراءهم الالمان الهادفة الى انشاء فرع لسكة حديد بغداد يصل بين بغداد وخانقين ثم بغداد وكربلاء والنجف ، حيث يصل سنويا الى هذه المناطق ما يزيد على ١٠٠ ألف من زوار العتاب المقدسة في العراق ، ويمكن تنفيذ هذا المشروع بمبالغ قليلة في فترة زمنية قصيرة . وقد ازعجت هذه الانباء

(١) مذكرات زينو فيسيف - ١٦ آب سنة ١٩٠٢ ، موسكو ١٩٢٢

« باللغة الروسية »

حكاه روسيا لآوفهم من وصول النفوذ الالماني الى شمال فارس الذي
تعتبره روسيا من مناطق نفوذها .

ولاحباط هذا المشروع اآبر زينو فيسيف سفير فارس في اسطنبول
بان انجاز هذا المشروع سيؤدي الى زيادة عدد الحجاج الفرس الوافدين
للعقبات المقدسة - النجف وكربلاء - وهذا يعني زيادة في كمية النقود
التي ستصرف خارج البلاد مما يلحق اضرارا بليغة باقتصادياتها ولهذا
ينصح حكومة فارس بعدم الموافقة على هذا المشروع (١) .

عقد في بتروغراد في ايلول سنة ١٩٠٢ مؤتمر لمناقشة سبل عرقلة
تنفيذ مشروع السكة ، ضم الاجتماع كلا من وزير الخارجية لامزداروف
ووزير المالية فيته ووزير الحرية كروباتكين وزينو فيسيف سفير روسيا
في اسطنبول . وكرر كروباتكين خطورة المشروع على المصالح الروسية
في النقاط التالية :

١ - ان المشروع يحرم روسيا من جميع الفوائد المترتبة على امتلاك
السكك الحديد في آسيا .

٢ - ستساعد السكة العثمانية في القيام بتحشيدات عسكرية
سريعة على الحدود الروسية .

٣ - سيصبح بإمكان المانيا ان تمد هذا المشروع الى ميناء
«شانتونغ» في البر الصيني .

ويرى كروباتكين ان من وسائل درء هذا الخطر هو عدم مساهمة

(١) سياسة روسيا الخارجية ج ١٢ موسكو ١٩٢٨ وثيقة ٣٦٢٥
ورقة ٣٢٩ « باللغة الروسية »

روسيا في المشروع والبدء بمحادثات جدية مع حكومة النمسا والمجر حول هذا الموضوع . وبعد مناقشة مستفيضة قرر المؤتمر عدم المساهمة في المشروع ووجوب العمل على عرقلة تنفيذه وفق الاساليب الآتية :

١ - لايفسح المجال للباب العالي بتوقيع اتفاقيات تجارية جديدة مع الدول الاوروبية ، ومنع السلطة العثمانية من زيادة الرسوم على البضاعة المستوردة وعلى العكس يجب اجبارها على تخفيضها الى نسبة ٣ بالمائة .

٢ - عدم معارضة السلطان في فرض ضرائب جديدة اذا ما تعهد بصرف هذه المبالغ على المشاريع الاصلاحية في مقدونيا .

٣ - انشاء سكك حديدية منافسة لمشروع سكة حديد بغداد (١) وهكذا اتبعت روسيا اسلوبا جديدا لعرقلة تنفيذ المشروع يقوم على اضعاف الدولة العثمانية ماليا ومع ذلك فان هذا الاسلوب لم يتمكن من منع المانيا من تنفيذ المشروع . ان تنفيذ السياسة الهجومية في الشرق الاقصى والموقف السياسي والاقتصادي لروسيا القيصرية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، لم تسمح لها ان تنهج في الشرق الادنى منهجا مشابها لسياستها في الشرق الاقصى ولذا فانها لم تفكر بعد الحرب الروسية العثمانية في احتلال اسطنبول والمضائق بل فضلت مساندة السلطان ليكون حارسا على بوابة البحر الابيض المتوسط الى البحر الاسود (٢) . ولايعني هذا ترك روسيا مسألة المضائق ومهادنة

(١) سياسة روسيا الخارجية ج ١٢ موسكو ١٩٢٨ وثيقة ٣٦٢٦ ورقة ٤٢ « باللغة الروسية »

(٢) خنستوف - تاريخ الدبلوماسية ، موسكو ١٩٤٥ ج ٢ ص ١١٨ « باللغة الروسية »

النفوذ الالماني المتزايد في الامبراطورية العثمانية بل على العكس فقد ازدادت نشاطات الدبلوماسية الروسية لمواجهة خطط الامبريالية الالمانية بعد ازدياد نفوذها في الدولة العثمانية في بداية القرن العشرين الا ان الحرب الروسية اليابانية ومضاعفاتها وثورة سنة ١٩٠٥ شغلت روسيا عن المواجهة الجديدة للخطر الالماني في الامبراطورية العثمانية وفارس لفترة قصيرة على أن زيادة النفوذ الالماني في فارس تلك البلاد التي تملك فيها مصالح استعمارية خاصة في المناطق الشمالية فيها - يضاف الى ذلك ازدياد نفوذ - حليفة روسيا بريطانيا - في المنطقة المحايدة . قد حتمت هذه الظروف الجديدة مجتمعة على روسيا القيصرية التقرب من المانيا فقام القيصر الروسي بزيارة برلين سنة ١٩١٠ وتم توقيع اتفاق مع المانيا في ٤ تشرين الثاني سنة ١٩١٠ تعهدت روسيا فيه بالكف عن معارضتها مشروع سكة حديد بغداد مقابل اعتراف المانيا بالمصالح الروسية في شمال فارس وفقا لمعاهدة سنة ١٩٠٧ وتعهدت المانيا بعدم الحصول على أي نوع من الامتيازات في المناطق الشمالية مقابل تعهد روسيا بعدم عرقلة التجارة الالمانية في المناطق الاخرى من بلاد فارس . كما تقوم روسيا بمد خط حديدي من طهران الى خانقين لكي يتم الاتصال مع سكة حديد بغداد وربط مشاريع السكك الحديد الروسية في ايران بمشروع سكة حديد بغداد (١) . وفي خريف عام ١٩١٣ حققت السلطة القيصرية خطوة جديدة على طريق حماية مصالحها الاستعمارية في مناطق البحر الاسود وحماية حدودها في القفقاس من خطر اقتراب سكة حديد بغداد الى هذه المناطق . اذ وقعت في خريف ١٩١٣ مع الدولة العثمانية

(١) مجموعة الاتفاقات الروسية مع الدول الاخرى ١٨٥٦ - ١٩١٧
 موسكو ١٩٥٢ ص ٤٢٥ « باللغة الروسية »

معاهدة جديدة تقوم على اساس الغاء معاهدة عام ١٩٠٠ وحل محلها
تعهد السلطان العثماني لمدة عشر سنوات بعدم انشاء السكك الحديدية
في المناطق الواقعة الى الشرق من طرابزون - خربوط - ديار بكر . واذا
أصبحت هناك حاجة لانشائها فينفذ المشروع برؤوس أموال روسية
فقط (١) .

وهكذا كان موقف روسيا من مشروع سكة حديد بغداد . فبعد
فشلها في احباط محاولة المشروع ثم فشلها في عرقلة تنفيذه سلكت
طريقا جديدا يقوم على اساس حماية حدودها الجنوبية في القفقاس
ومناطق البحر الاسود من الخط الالماني المواكب لمسار الخط وذلك
بالعمل لابعاد الخط عن هذه المناطق كما ضمنت مصالحها في الاقسام
الشمالية في فارس من الخط الالماني بعد اتفاقها مع المانيا سنة ١٩١٠
ومع السلطان العثماني سنة ١٩١٣ .

(١) مجموعة الاتفاقيات الروسية مع الدول الاخرى ١٨٥٦ - ١٩٣٧
موسكو ١٩٥٢ ص ٤٣٥ « باللغة الروسية »

تاريخ الحركة الديمقراطية الأولى في الخليج العربي البحرين والكويت فترة ما بين "١٩٢٠-١٩٤٠"

محمد جابر الانصاري
قطر

انسحب الانجليز من الخليج عام ١٩٧١ وهم يتحسدون عن المنجزات الحضارية ونعمة الازدهار والاستقرار التي حققوها للمنطقة ، وقد ساعدت الظروف العربية والدولية التي أحاطت بالانسحاب وقيام كيانات الاستقلال في بلدانها على اعطاء انطباع مؤداه ان هذا الاستقلال ومظاهره الدستورية جاء هبة من القوة الحامية ومن الحاكمين .

واذا رجعنا الى الكتب والابحاث التي تتناول تاريخ الخليج العربي الحديث وجدناها تسهب في الحديث اما عن الصراع الدولي ومعاهدات الحماية وشجرات الاسر الحاكمة وفعالها وحروبها ، واما عن احصائيات تزايد انتاج النفط وعلامة ذلك بالدورة الاقتصادية للعالم المدعو حرا ..

ان تلك الظروف ، وان هذه المدرسة التاريخية الرسمية الشكلية ، قد التفتت في خلق نتيجة سلبية خطيرة متعمدة هي اغفال دور الانسان ، ودور نضاله ومعاناته وفكره ، في منطقة الخليج العربي ، فاذا به من

خلال ذلك كله يبدو وجودا مهما تتلاعب به المصالح الدولية وما تخلقه من صراعات وما تفرضه من واقع سياسي - اجتماعي • والحقيقة انه بسبب وقوع هذه المنطقة في قبضة قوى عالمية ، وقوى محلية متحالفة معها ، نشأ جدار من التخويف والحصار والكبت حول انسان الخليج العربي ، الذي لم يتمكن من التنفس سياسيا ، بل وحياتيا ، الا بحذر شديد وصعوبة بالغة • وعندما كان هذا الانسان يناضل فكريا وعلميا ، فانما كان يصارع قوى لا توجد أدنى نسبة بين طاقته المحدودة وطاقاتها الهائلة ، مثل ما كان غواص الخليج الاعزل يصارع اسماك القرش المتوحشة في اعماق البحر ، لذلك فقد اتخذت قصة فضاله طابعا مأساويا كصراع الانسان ضد القدر العشوم الذي يبدو ان لا فكاك منه ، وهي لذلك قصة تستحق من التاريخ وقفة متأنية عادلة • واذا كان علم التاريخ في جوهره الاصيل ، هو سجل منصف واع لتطور الانسان ، وابداعه ونضاله ، فلا بد اذن من العودة الى اصالة البحث التاريخي ، وتجاوز وثائق شركة الهند الشرقية البريطانية ، وسجلات امجاد الامراء ، واحصائيات شركات البترول ، ومن أجل تسليط ضوء الحقيقة على تاريخ نضال الانسان في الخليج العربي الذي كان ضحية - وما يزال - لهذا التضييل التاريخي المتصل الحلقات الذي لا يبعث الا على الرفض والغضب ، والذي يجب أن تسهم جهود المؤرخين الانسانيين التقدميين في ازالة براقعه الكاذبة •

وقبل النظر في تطورات الحركة الوطنية الديمقراطية الاولى في الخليج ، التي يطمح الى ابراز معالمها الهامة هذا البحث الوجيز ، نتوقف برهة للتعرف الى الخلفية الاجتماعية - الاقتصادية التي كانت الاطار التاريخي الموضوعي الذي احتوى ذاتية تلك الحركة وتحكم في مساراتها

ومنعطفاً لها وما تأقت الى تحقيقه من تطلعات ، وما استطاعت ان تحصل عليه من مكاسب .

تبلورت خريطة البنية الاجتماعية — لاقتصادية في الخليج ، خلال المئة سنة الماضية ، حسب الصورة التالية :

اولاً : فرضت العناصر العشائرية النافذة ذاتها كهيئات حاكمة . وكانت هذه العشائر ، المشتغلة بالحرب والتجارة معا ، تقيم بينها في كل بلد تحتله « حلفاً عاماً » يتولى السيطرة على شؤون الحكم وتستنفذ اطرافه في حالة تعرض الحكم للخطر ، أو قيامه بالغزو ، وتنال هذه الاطراف المغنم حسب اهميتها وانسابها وادوارها ، في حالة الاستيلاء على مناطق جديدة او تحقيق أي مكسب من المكاسب .

وكان الشيخ الحاكم عادة هو رئيس الاسرة القائدة لهذا الحلف العشائري ، وكانت الامور تقرر ببادرة الشيخ ومشاورة كبار رجال العشائر وعدد من كبار التجار الذين ينتمون في الاغلب الى العائلات الرئيسية المكونة للحلف الحاكم .

ثانياً: وتسيطر الاسرة الحاكمة على الحياة الاقتصادية سيطرتها على الشؤون السياسية ، بل ان بعض هذه الاسر كان يحترف التجارة قبل وصوله الى الحكم ، وساعدته ثرواته وعلاقاته التجارية على التحول الى قوة سياسية . لذلك فلا بد من التنبيه الى ان العلاقة بين الحاكمين وكبار التجار في الخليج علاقة عضوية ، وعلاقة وجود متبادل لا تنقسم ، ولعل في هذه الصلة التاريخية الوثيقة بين الهيئة الحاكمة والفئة التجارية النافذة ما يفسر النفوذ الواسع غير المشروع الذي يتمتع به كبار التجار في هذه البلدان الى وقتنا هذا بشكل يفوق كثيراً حجمهم ودورهم

الحقيقي في مجتمعات الخليج الحديثة ، اذ تجدهم يشكلون أغلبية المجالس «الاستشارية» - وحتى التشريعية ان وجدت - ويتمتعون بامتيازات تفوق الحصر ، ويشلون « قوة ضاغطة » في الشؤون العامة ، بينما هم لا يشلون - عدديا - الا أقلية ضئيلة اذا ما قورنوا بطبقات العمال ، واصحاب المهن والحرف والطبقة المتوسطة الصغيرة وفئات المثقفين .

وهكذا نرى أن قمة الهرم الاجتماعي الاقتصادي في الخليج تتكون من شقين : شق عشائري وآخر تجاري . وان هذين الشقين تجمع بينهما في أعلى قمة الهرم شخصية « الشيخ » الذي يمسك بيده الامور السياسية والامور التجارية الهامة في وقت معا ، ممثلا بذلك وحدة المصالح المشتركة المكونة لطبيعة النظام القائم . وفي ظل سياسة « الباب المفتوح » البريطانية امام الهجرة الاجنبية استطاعت بعض العناصر المهاجرة من ايران ومناطق آسيا الاخرى الصعود بسرعة الى مستوى كبار التجار والانضمام الى حلف الفئات الفوقية بجانب التجار والزعماء المحليين .

هذا فيما يختص بطبيعة « التحالف الفوقي » القائم ، أما فيما يتعلق بتركيب قاعدة الهرم الاجتماعي - أي الفئات الشعبية العاملة - فان الصورة تتكون من العناصر الآتية :

اولا عمال البحر : منذ عهود طويلة والخليج مجال واسع للنشاط البحري ، كاستخراج اللؤلؤ والتجارة وصيد الاسماك واستغلال احجار البناء . ولذلك فقد ازدهرت فيه صناعة متقدمة لبناء السفن والمراكب الشراعية المناسبة لأجواء الخليج والبحار المجاورة . وكانت الرساميل التجارية ، والرساميل الموظفة في صناعة صيد اللؤلؤ بالذات ، محتكرة

بيد الاقلية الغنية . وكان عمال البحر ، رغم جهدهم ومهارتهم ، يعيشون في ضنك ولا ينالون الا الفتات من هذه الاعمال المدرة للارباح الطائلة . وفي الثلث الاول من القرن العشرين تزامت في الخليج « بروليتاريا » بحرية ذات شأن من الغواصين وعمال البحر الاخرين . وقد قام هؤلاء بعدة انتفاضات وحركات تمرد ضد طواشي اللؤلؤ وطبقة التجار المستغلين ، ولكن سرعان ما تدخل الانجليز لاضداد هذه الحركات العمالية ودعسوا الاقلية التجارية التي أخذوا يعدونها لدور « الوكاله » عن مصالحهم الاقتصادية المتنامية في الخليج .

ثم أخذت هذه البروليتاريا البحرية الخليجية تنفتت بسبب اضحلال صناعة اللؤلؤ الطبيعي عالميا ، وحلول السفن التجارية الكبيرة التي تسلكها الشركات البريطانية محل المراكب المحلية ، وكان الانجليز يحرصون على التخلص من عمال الخليج العرب ليحل محلهم بحارة اغراب لا يهتمون بالوعي السياسي المضاد لطبيعة المصالح التجارية الاحتكارية .

والجدير بالذكر أن الانجليز قاموا بدور مزدوج في هذا المجال : عملوا على تفتيت الطبقة العمالية العربية وتشريدها ، لكنهم في الوقت ذاته ، أنقذوا الطبقة التجارية المستغلة التي تعرضت للخسارة بسبب تدهور اسواق اللؤلؤ ، وتوقف سفنها الصغيرة عن العمل ، باعطائها توكيلات الشركات الاجنبية واعمال التصدير والاستيراد، وهكذا تعرض عمال الخليج لعملية قطع الجذور ، وكان الانتقال الحضاري المزعوم الذي حققه مجيء الاستعمار هو انتقال الطبقة الفقيرة في الخليج من مواجهة الاستغلال التقليدي للتجار والزعماء المحليين الى الوقوع في براثن الاستغلال « العصري » و « المنظم » للشركات الرأسمالية ومن

ورائها العالم الامبريالي ، بينما وطد التجار مواقعهم في قمة التكوين الاجتماعي وازدادوا ثراء واستغلالاتا لمجتمعات الخليج في ظل الحماية الاستعمارية ، التي لم تمثل أية « حماية » الا لهذه المصالح !.

ثانيا المزارعون : كان للزراعة شأن كبير في الخليج خلال عصور تاريخه ، ومن أشهر المناطق الزراعية في الخليج التي ازدهرت في القرنين الماضيين : البحرين والقطيف وعمان الداخل ، وقد نشأت في هذه البلاد مجتمعات زراعية على درجة من التطور ، وبرعت في تنظيم وسائل الري في قنوات باطنية ، وأدخلت العديد من أنواع المزروعات ، بالإضافة الى ما حققته من تطور ثقافي شمل المنطقة بأسرها . غير ان هذه المجتمعات الزراعية المفتوحة لعوامل الغزو لم تنعم بالاستقرار ، وكانت تتعرض اما لسيطرة القوى البحرية من محلية وأجنبية ، واما لهجرة العناصر العشائرية من الصحراء والجبال المجاورة ، هذه العناصر التي تحولت بحكم مقدراتها الحربية على الفور الى عناصر حاكمة في المجتمعات الزراعية ذاتها ، التي نراها الى اليوم تمثل الطبقة الدنيا من القطاعات الشعبية ، ويحال بينها وبين المساهمة بنصيبها العادل في النظام الاجتماعي .

ولم تعرف مجتمعات الخليج الزراعية الاقطاع بمعناه التقليدي ، وكانت الارض الزراعية في الاصل ، موزعة بين عدد كبير من العائلات التي تقوم بزراعتها والاستفادة منها . غير ان ذلك لا يعني ان الفلاحين الفقراء في قرى الخليج لم يتعرضوا للاستغلال . على العكس ، لقد أصابهم من الاجحاف مثل ما تعرض له الغواصون ، ان لم يكن أسوأ . فقد استطاعت فئة الملاكين الزراعيين في الريف بالتحالف مع تجار المدن وزعماء العشائر ، حصر الملكية في ايديها بالتدريج وأخذت تستخدم

الفلاحين الفقراء وعائلاتهم في العمل مقابل قوت يومهم لا غير ، دون وجود أية ضمانات. او قوانين رسمية أو عرفية تحميهم بأي شكل من الاشكال .

ثالثا : رجال القبائل الفقراء : ظلت قبائل عديدة فقيرة خارج اطار الاحلاف الغنية الحاكمة . وكانت هذه القبائل تشتغل بالرعي ، او تستخدم بين وقت وآخر في الصراعات الناشبة ، ولم يهتم الاستعمار والحاكمون بتوطينها وتحويلها الى عناصر متعلمة منتجة ، بل ظلت في بعض انحاء الخليج - الى يومنا هذا - في عداد البدو الرحل على الرغم مما تنتجه أراضيها من نفط هائل . وكان كل هم الانجليز فصل هذه القبائل الفقيرة عن مجرى النضال الشعبي كي لا تتحول الى قوة ذات ايجابية تقديمية .

رابعا : الفئة المتوسطة الفقيرة : الى جانب القطاعات من البحارة والمزارعين والبدو الفقراء، كانت هناك فئة من أرباب المهن والحرف اليدوية التقليدية التي تشبه مثيلاتها على نحو مصغر في الاسواق القديمة بالشام وبغداد والقاهرة ، بالاضافة الى التجار الصغار من اصحاب الدكاكين ، الذين مثلوا مع الحرفيين طبقة متوسطة صغيرة .

وقد كانت هذه الفئة قليلة العدد نسبيا في مطلع القرن . الا انها اخذت في التنامي منذ ذلك التاريخ حتى أصبحت توازي في حجمها ، خاصة في البحرين والكويت ، طبقتي البحارة والمزارعين . وفي الجيل الثاني استطاع ابناء هذه الطبقة بحكم تركيبهم الاجتماعي وعقليتهم أن يكونوا أول من يفتح للتعليم العصري الذي مكنهم من تسلم عدد من المراكز الادارية والثقافية الهامة . وقد حملت هذه الفئة المتوسطة الصغيرة

الكثير من أعباء التغيير الاجتماعي والسياسي في المنطقة * ومع تدفق النفط ، اخذت في الاتساع لتصبح فئة قيادية في المجتمعات الخليجية ، وهذه الفئة هي التي قادت الطبقات الاجتماعية الدنيا في الحركات السياسية التي شهدتها الخليج خلال الاربعينيات والخمسينات ومن المنتظر أن تلعب هذه الفئة دورا متعاظما في مستقبل الخليج السياسي *

وهكذا نجد مجتمع الخليج ينقسم في جذوره الى ثلاثة أنماط من الحياة الاجتماعية - الاقتصادية (١) المدينة البحرية التجارية (٢) القرية الزراعية (٣) الحياة البدوية الصحراوية الرعوية * غير ان هذه البيئات الثلاث تعرضت - كما أسلفنا - لسيادة «تحالف فوقي» واحد مكون من كبار زعماء العشائر ، وكبار أغنياء الريف ، وكبار تجار المدن ، ثم جاءت على رأس هذا التحالف الفئة الانكليزية المسيطرة من اداريين وعسكريين ورجال أعمال ، بالإضافة الى مئات التجار المهاجرين الاجانب من ايرانيين وآسيويين *

وقد عمل الانجليز باستمرار على استغلال الفروق الاجتماعية - الاقتصادية الطائفية بين هذه البيئات الثلاث ليحولوا دون التحامها في نضال موحد ، الا ان هذه الفروق آخذة في الضمور بفضل تفتح الحس الشعبي والوعي القومي الاجتماعي * وسيكون من بديهات أي عمل وطني السعي الحثيث لايجاد صيغة عملية مرنة جامعة بين هذه العناصر الشعبية في تحالف وطني واحد في وجه «التحالف الفوقي» المتلاحمة عناصره بالفعل ، ومنذ زمن طويل *

هذه هي الصورة التاريخية لتطور البنية الاجتماعية - الاقتصادية في الخليج خلال المئة سنة الاخيرة * ومما لا شك فيه أن التطور الذي

شهدته المنطقة من ذلك الحين حتى يومنا هذا ، قد غير شيئاً من معالم الصورة ، وان لم يغيرها كلياً غير أن هذا التطور لم يدخل في الخليج في وقت واحد ، ولم يتغلغل فيه بدرجة واحدة ، كما ان الاختلال في توزيع الكثافة السكانية على مناطق الخليج المختلفة ، والتجزئة السياسية القديمة والجديدة التي جعلت من الخليج « بلقانا » مصغراً يمثلان عائقاً نحو تفاعل مجتمعات الخليج وطبقاته وعناصره السكانية تفاعلاً طبيعياً منسجماً مع قوانين التطور الاجتماعي . أضف الى ذلك ان ظهور النفط بكميات هائلة ومفاجئة في بلدان صغيرة أدى الى خلق تناقضات حادة بين الفئات الاجتماعية ، وخلخلة كثير من القيم ، وخلق نماذج بشرية منعدمة الجذور ، مهزوزة الشخصية ، تأخذ شكلية التحديث والمعاصرة ، ولكنها بعيدة ، كل البعد ، عن جوهر ذلك في واقعها العلمي وتفكيرها . ومما يؤسف له أن ثروة النفط الهائلة لم تستخدم في القضاء على الاستغلال ، وسد الهوة بين الاغنياء والفقراء ، بل استخدمت لتخلق ارتباكاً في المجتمع ، ولتزيد من حدة تناقضاته ، فهذه الثروة تبسّد في الجوانب الاستهلاكية العابرة لخدمة السوق الامبريالية ولمصلحة فئات قليلة ، ودون الاهتمام بالجانب الانمائي الطويل الامد ، ودون التفتت لخلق قاعدة اقتصادية وطنية منتجة ، ودون مراعاة للمصالح العامة وحاجات مختلف فئات المجتمع . والاستمرار في هذه السياسة الانانية ، والقصيرة النظر ، من شأنه أن يعرض الخليج كله للانهايار في أي وقت يفقد فيه النفط قيمته الاقتصادية الحالية .

على هذه القاعدة الشائكة من العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية تنامت الحركة الوطنية الديمقراطية الاولى في الخليج وئيدة حذرة حيناً ، ومندفعة صريحة حيناً آخر ، غير انها في الحالتين ، وعبر مختلف الظروف والمراحل كانت تطرح مطالب تاريخية واحدة في جوهرها واطارها العام .

وفي هذه الفترة الاولى ، فترة ما بين الحربين ، التي تعيننا دراستها هنا ، نجد أن الوعي الوطني في الخليج يستيقظ ويتفاعل سريعا مع اصداء ثورة ١٩١٩ الشعبية في مصر ، وثورة العشرين الوطنية في العراق ، وكانت البحرين هي البؤرة التي تلقت هذه المؤثرات لتدمجها مع واقعها الخاص ، وترجمها بعدئذ الى حركة وطنية سياسية وعملية وطلائية ، استمرت احداثها واتفاضاتها وتضحياتها متتالية بين ١٩٢٣ و ١٩٣٢ .

وكانت القوى القائمة بهذه الحركة : التجار الوطنيون المتفاعلون مع حركة التحرر الوطني في مصر والعراق ، وعمال الغوص والبحر الذين بلغت قوتهم أوجها قبل سيطرة الشركات الاجنبية على البلاد ، وفئات الطلاب والمثقفين الذين تخرجوا من مدارس البحرين التي كانت تدار من قبل مجالس شعبية وتتبع مناهج تربوية عربية تقدمية قبل أن يخضع الانجليز التعليم لاشرفهم المباشر .

وكانت أهداف هذه الحركة تتركز في تحقيق درجة من الديمقراطية تتمثل في الحد من سلطات الحكم ، بتكوين مجلس تشريعي منتخب ، وتحقيق مستوى من العدالة الاجتماعية يتمثل في وقف تلاعب الاستغلال التجاري ووضع قوانين عادلة تنصف عمال الغوص ، وتعريب الاجهزة والادارات التي بدأت تتسرب اليها عناصر الاغراب الموالين للسلطة ، والحفاظ على المناخ الثقافي والتعليمي الحر الذي حققته البحرين بجهودها الذاتية ، ووقف تدخل المعتمدين البريطانيين في شؤون البلاد الداخلية وحصر الامر في مجال الشؤون الخارجية حسب ما تقتضيه المعاهدات التي عقدتها البحرين مع بريطانيا باعتبارها دولة مستقلة ، لا مستعمرة .

وقد تمثلت معظم هذه المطالب في قرارات المؤتمر الوطني البحراني

الاول الذي انعقد في مدينة المحرق بتاريخ ٢٦ مايو (ايار) ١٩٢٣ بزعامة اثني عشرة شخصية منتخبة واصدر وثيقة وطنية تاريخية جاء فيها : «لقد اجتمعنا وتعاهدنا على السعي في الحصول على المطالب الآتية :

— انتخاب مجلس شورى من عموم أهل الوطن ينظر في مصالح البلاد •

— وقوف القنصل البريطاني عند نص الاتفاق بين الحكومة البريطانية وحكومة البحرين فلا يتدخل في الامور الداخلية •

— تشكيل محكمة من أربعة أعضاء عالمين بأمر الغوص للنظر في جميع دعاوى الغوص (١) » •

وقد كتب المؤرخ الرحالة أمين الريحاني بعد أن زار البحرين في تلك الفترة وتعرف الى أوضاعها السياسية مبيناً كيف تطور الامر بين الحركة الوطنية وسلطات الحماية : « طلب أهالي البحرين في الثلاث سنين الاخيرة (١٩٢٠ - ١٩٢٣) ثلاثة مطالب من الحكومة كلها ولا شك عادلة ، فوقفت السياسة الانجليزية تصدهم وتقاوم مسعاهم ، طلبوا تشكيل جمعية تشريعية فأجاب الشيخ عيسى (بن علي ، حاكم البحرين حينئذ) وأبى الوكيل البريطاني • طلبوا تنظيم شرطة وطنية فرضي الشيخ عيسى ورفض الوكيل وأصر على الرفض ، قدموا لائحة اصلاح (هي التي أشرنا اليها قبل قليل) فاستحسنها الشيخ عيسى وعزم على تنفيذها فقامت عليه وعلى الوطنيين قيامة الوكيل ، وبذل ما لسديده من قوة ونفوذ من أجل احباطها (٢) » •

(١) أمين الريحاني ، ملوك العرب ج ٢ ، ط ١ ، ص ٢٤٧ •

(٢) المصدر السابق ٢٤٧ - ٢٤٨ •

وتجاه هذه الحركة الوطنية الديمقراطية المبكرة في الخليج ، قامت بريطانيا ، الدولة الحامية التي كان يفترض فيها حماية البحرين بغزو بحري مسلح للبحرين في مايو ١٩٢٣ حيث جاء المقيم البريطاني من ابو شهر بساحل فارس ، تصحبه بوارج الاسطول البريطاني المرابطة في الخليج ، وقام بانقلاب رجعي استعماري كامل الملامح ، أمام انظار العالم كله، تمثل فيما يلي :

— قمع الحركة الوطنية ، ورفض مطالبها ، ونفي زعمائها البارزين الى الهند بدون محاكمة ، وملاحقة الباقين ، وتشريد القوى الشعبية المساندة •

— عزل الشيخ عيسى بن علي حاكم البحرين الذي وقع مع بريطانيا بيده اتفاقية الحماية ، واعترفت به حاكما للبحرين لمدة خمسين عاما ، بسبب ميله للاستماع الى المطالب الوطنية الديمقراطية •

— الغاء نظام المحاكم الوطنية ، وتشكيل محاكم مختلطة يشرف عليها المعتمد البريطاني ، ووضع جميع الشؤون الداخلية في البلاد تحت الاشراف البريطاني المباشر •

وبعد أن قمت بريطانيا التحرك السياسي لهذه الحركة ، اتجهت الى قطع جذورها المتأصلة في حقل التعليم الشعبي • فعمدت أولا الى السيطرة على مجلس التعليم واخراج العناصر التقدمية والاستقلالية منه، ثم أخذت تدريجا في تغيير المناهج ، وابعاد الاساتذة العرب الذين أتوا للتعليم في البحرين بدافع قومي ، وتعيين موظفين ومديرين يأترون بأمرها •

وقد وصف الشيخ حافظ وهبة ، الدبلوماسي العربي المعروف ، ومؤلف كتاب « جزيرة العرب في القرن العشرين » وكتاب « خمسون عاما في جزيرة العرب » الجو الارهابي الذي فرضته بريطانيا على الحقل التعليمي في البحرين خلال تلك الفترة ، وكان الشيخ حافظ قد اشتغل بالتدريس فيها وعانين أوضاعها عن كثب مما دفع الانجليز الى اصدار قرار بنفيه منها ، مع غيره من الاساتذة العرب ، اثناء حركة التصفية المضادة التي قادها الميجر ديلي وهو ضابط بريطاني طرد من العراق اثناء ثورة العشرين بسبب غطرسته - ضد مختلف القوى التقدمية في البحرين (٣) .

وخلال الفترة بين ١٩٢٦-١٩٢٨ شهدت البحرين اضرابات شاملة في مجال التعليم احتجاجا على تلك الاجراءات ، غير ان بريطانيا استمرت في خططها حتى اخضعت التعليم لسيطرتها المباشرة وتم تعيين مدير معارف انجليزي . وبذلك انتهى العهد المشرق من التعليم الشعبي الحر حيث كان المواطنون يتبرعون لميزانية المدارس ضمانا لاستقلالها وحريتها الفكرية ، وحيث كان مجلس التعليم يديره أهل الرأي ورجال الخدمة العامة من الشخصيات البحرانية المتطوعة لهذا العمل ، وحيث كانت المناهج والكتب المقررة توضع طبقا للارادة العامة المتمثلة في مجلس التعليم ، وحيث كانت الندوات الفكرية تدور في أروقة المدارس بلا رقابة حكومية .

(٣) حافظ وهبة ، خمسون عاما في الجزيرة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٤ - ١٨ .

وبعد ان تم الاجهاض السياسي ، والاجهاض التعليمي لهذه الحركة ، توجهت الخطة الانجليزية لاجهاض آخر ركيزة من ركائزها بالتدخل في شؤون عمال الغوص والبحر وتنظيماتهم ونشاطاتهم المهنية، وكانوا يمثلون في ذلك الوقت أنضج تجمع عمالي في منطقة الخليج وشبه الجزيرة كلها ، وقد مثلوا سندا كبيرا للمطالب الديمقراطية التشريعية والاستقلالية قبل الانقلاب الانجليزي المسلح في أيار (مايو) ١٩٢٣ •

ففي سنة ١٩٢٦ تم تعيين مستشار انجليزي لحاكم البحرين الجديد بصفة خبير مالي • لكنه ما لبث أن أصبح السلطة الحقيقية في كل كبيرة وصغيرة ، حتى في مسألة تعيين قضاة الشرع وأمناء الوقف الاسلامي • وبذلك ضمنت بريطانيا احكام قبضتها النهائية فالمعتمد يتصرف في علاقات البحرين الخارجية ، وهذا المستشار - الذي ظلت بريطانيا تقول عنه انه موظف لدى حاكم البحرين - تولى الاشراف المباشر على مختلف أمور الحكم المحلي من سياسية ومالية وأمنية وقضائية • وأول عمل رئيسي قام به هذا المستشار - وهو شارلز بكريف - محاولته وضع قانون خاص للغوص يخول الحكومة الاشراف على انظمته ، وتحديد علاقات البحارة مع تجار اللؤلؤ ، بحجة حماية الغواص الفقير • ولقد كان البحارة يتعرضون لكثير من الاستغلال حقا • غير ان القانون الجديد الذي وضعه المستشار دون معرفة حقيقة العلاقات العمالية في هذه الصناعة البحرانية القديمة والفريدة من نوعها ، جاء شكليا يمس الجوانب السطحية الاجرائية تاركا واقع الاستغلال كما هو • ومن ناحية اخرى كان القانون يفرض على جانب واحد هو الجانب العمالي ، أما التجار فقد تمكنوا في موسمين متتاليين،

باعتراف المستشار نفسه في مذكراته (٤) ، من خرق القانون وتحديه علنا وبشكل جماعي دون ان تتحرك السلطة لتنفيذ قانونها .

كان هذا هو السبب المباشر للانتفاضات العمالية التي شهدتها البحرين في السنوات بين ١٩٢٦ - ١٩٣٢ ، أما الاسباب العميقة فكانت تعود الى استغلال التجار للبجارة لدرجة ان دين الآباء كان ينتقل ارثا على الابناء ، كما تعود الى جو القمع السياسي والتدخل المباشر في شؤون البلاد كما أسلفنا .

وقد وصلت خطورة هذه الانتفاضات العمالية وقوتها واتساعها - خاصة في مايو ١٩٣٢ - ، اذ هاجم العمال محلات التجار المعادين ، واحتلوا الاسواق ، كما هاجموا مخافر الشرطة وسيطروا على مركز الامن في العاصمة وأطلقوا سراح رفاقهم المعتقلين ، واشتبكوا مع البوليس الاجنبي من المرتزقة ، ومع الحرس العشائري في معارك امتدت على طول سواحل مدينتي المحرق والمنامة لليال عديدة . وكل هذه الاحداث التي يعترف بها بصورة مسهبة المستشار الانجليزي نفسه ، تكذب ادعاء المدرسة التاريخية الاستعمارية التي تقول ان هذه الانتفاضة العمالية نشأت بسبب عدم تفهم البحارة لقانون الغوص الجديد الهادف لمصلحتهم ، وثبتت أن هذه الحركة في اساسها استمرارا للحركة الوطنية ضد الاستغلال الاقتصادي والقمع السياسي (٥) .

هكذا احتاجت السياسة البريطانية الى عشر سنوات بين ١٩٢٣ -

(4) Charles Belgrave, Personal Column, 2nd ed. p. 51 .

(٥) المصدر السابق : ٥٠ - ٥٣ .

١٩٣٢ لتصفية الحركة الوطنية الديمقراطية في البحرين تدريجيا ، وقطع جذورها الشعبية واحدا بعد الآخر .

ولكن بعد خمس سنوات من ذلك كانت أصداء هذه الحركة وغاياتها وتجاربها تتخمر لتنفجر في ثورة وطنية ديمقراطية مسائلة في الكويت بين ١٩٣٧ - ١٩٣٩ .

وكانت الكويت قد شهدت تجربة بدائية للحكم الشوري سنة ١٩٢١ عندما تولى أحمد الجابر الحكم . غير ان هذه التجربة لم تصب حظا من النجاح لانها كانت تجربة فوقية انحصرت في عدد من كبار التجار والوجهاء وضعوا في المجلس الاستشاري عن طريق التعيين وتاهوا في خلافاتهم الشخصية ، حتى انحل المجلس من تلقاء ذاته . ويتفق المؤرخان الكويتيان يوسف الجناعي ، وعبد العزيز الرشيد على ان هذه التجربة مبهمة الاهداف ، منعقدة الجذور الشعبية (٦) .

الا ان التجربة الثانية التي بدأت سنة ١٩٣٧ كانت أفضل تنظيما ، وأوضح رؤية ، وأشد مراسا . يصف السيد عبد العزيز حسين في كتابة « محاضرات عن المجتمع العربي بالكويت » هذه الحركة في جذورها وتطوراتها بقوله : « رغبة في تكتيل القوى وتوجيهها فكر المعارضون في انتهاج طريق يحمي الحركة ، فألفوا جمعية سرية من ١٢ عضوا وجدت في الصحافة العراقية منبرا لنشر دعوتها بالاضافة الى منشوراتها السرية التي كانت تطبع في العراق وتوزع بالكويت . وظلت

(٦) الرشيد : تاريخ الكويت .

والقناعي : صفحات من تاريخ الكويت .

تعمل في السر فترة حتى ادركت ان التعبئة الشعبية قد وصلت حدا
مناسبا ، حينذاك كشفت عن نفسها وأرسلت الى الحاكم أحمد الجابر
كتابا تاريخيا في ٣٠ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ (١٩٣٨) ، جاء فيه ان الاساس
الذي بايعتك عليه الأمة لدى توليك الحكم هو جعل الأمر على اساس
الشورى التي فرضها الاسلام ، لذلك تتقدم اليك بطلب تشكيل مجلس
تشريعي مؤلف من احرار البلاد للاشراف على تنظيم أمورها •

وبعد ان تمت الموافقة على هذه المطالب ، جرت الانتخابات ، ونزل
الوطنيون تحت اسم الكتلة الوطنية « وكان اول ما عمل به المجلس
التشريعي هو وضع قانون أساسي يعتبر أول وثيقة من نوعها في تاريخ
الكويت » ومن أهم مبادئها ما يلي : -

١ - الامة مصدر السلطات ممثلة في هيئة نوابها المنتخبين •

٢ - يشرع المجلس كافة قوانين البلاد •

٣ - مجلس الامة التشريعي هو الجهة التي تصدق على المعاهدات
الخارجية •

أثر الفرنسيين في القضاء على مكانة اللغة العربية في إفريقيا الغربية

المكتوب عبد القادر زويدي
أستاذ التاريخ الإفريقي الحديث
جامعة الجزائر

الإنسان الجديد :

ان التساؤل عن الاسباب التي أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة في أفريقيا الغربية يمكن اعتباره في صميم الموضوع ، ذلك أنه في خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المثوية ضعيفة فانه استطاع أن يركز للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيري بها في كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية في أفريقيا الغربية والمدارية (١) . وأذكر بهذه المناسبة انه في مؤتمر المؤرخين

(١) عرف عن الاستعمار الفرنسي دائما الاسلوب المباشر في حكم المستعمرات ، وفي مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية في المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب ، كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباط وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة) المزج أو الاندماج : Assimilation

راجع D. Bouche, Histoire de L'ENS. en A. O. F. , Université de NANCY, 1974 .

الافريقيين الذي انعقد في شهر ديسمبر من سنة ١٩٧٥ في باوندي عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفي افريقيا وخاصة الغرية والاستوائية ، وكان هناك بحث قدمه احد الاساتذة النيجيريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي نحو المناطق الخاضعة للاستعمار الانكليزي ، ورغم ان الموضوع كان هاماً وكان مدعوماً بالوثائق والاحصائيات المقنعة ، الا انه حين انتقل الباحث الى الحديث عن الاسباب المتمثلة في طبيعة الاستعمار الفرنسي من حيث كونه استعماراً مباشراً وكان قد ضايق الاهالي وخاصة في قوانين المزج Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة ، ثار الكثيرون في شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعي قدحا في الاستعمار الفرنسي لصالح الاستعمار الانكليزي .

يوجد الآن في أفريقيا الغربية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية ، ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية ، وكان هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين .

ويتم تعيين المتخرجين الجدد في الجامعات بافريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقى هؤلاء الاشعار بالترقية من طرف الجامعات الفرنسية ويشكل هؤلاء طبقة ممتازة في بلدانهم ترتبط أشد الارتباط بالدفاع عن الثقافة الفرنسية في أفريقيا .

ولا يقبل الاستاذ Hargraves النظرية الشائعة لدى حكام أفريقيا الغربية السابقين من كونهم قد مكنوا للثقافة الفرنسية وللديانة

المسيحية بدرجة كافية ^(١) ، والواقع أن اللغة العربية كانت لغة أفريقيا الغربية والمدارية حتى الحرب العالمية الاولى ، ولعل أول عمل رسمي لايقافها نهائيا كان هو المرسوم الذي أصدره حاكم أفريقيا الغربية في سنة ١٩١١ والقاضي بتحريم التحرير بالعربية في المحاكم منذ ذلك التاريخ .

لقد كان للوجود الفرنسي في سواحل أفريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر ، ولكن العمل المنظم ضد وجود العربية واحلال الفرنسية محلها انما بدأ مع بداية القرن العشرين ، ويعود للمفتش جورج هاردي G. HARDY الفضل الكبير في اعطاء الطابع الحقيقي لأهداف اللغة والثقافة الفرنسية في افريقيا الغربية ، فقد جاء مفتشا للتعليم في تلك المستعمرات في ظروف صعبة ، ظروف الحرب الكونية الاولى . ووجد معظم القرى لا يقبل سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمين الفرنسيين بينهم ، ويفرون من القرية في جنح الظلام حينما يفرض وجود المدرسة الفرنسية في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الاعمال ضد تعليم الافريقيين لأن ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظة في المستقبل قد تؤدي الى الفوضى والضرر بالمصالح التي يجنونها من مستعمراتهم ولكن هاردي وجد من الحكام العامين آذانا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد

(٢) الاستاذ هاريجريفس HARGRAVES من اقدم الاختصاصيين الباحثين الانكليز في تاريخ المستعمرات الفرنسية في افريقيا وتطورها الاجتماعي والثقافي ، ويغلب على استنتاجاته التأثير الديني . انظر كتابه : Franch West Africa , Newyork 1973

الشاسعة وأعطى للمعلمين كل المساعدة وراح يختار ذوي الخبرة من بينهم وذوي الجرأة والصبر وقوة العزيمة .. واعتبر هاردي أن تعليم المستعمرات إنما هو تعليم النخبة التي ستربط البلاد نهائيا بفرنسا ، وأنه يجب أن يكون عبارة عن فتح اخلاقي وثقافي ، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام في فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوي معرفة على الشكل الكلاسيكي في أوروبا ، وإنما هو عبارة عن تعليم في شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء مثلا الا بالمقادير المحدودة والعامية جدا في الاطوار النهائية ، وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية ، ويدرس فيه النبات في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى في هذا التعليم الأولوية لكل ما تحتوى عليه فرنسا من ضروب التقدم والرقى (١) .

ويرى هاردي أن جميع الخريجين من الأفارقة يجب أن يضمن لهم مجال العمل حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا عن ذلك فقد عين هاردي ولأول مرة ، معلمين أفريقيين من بين الخريجين ، وفي سنة ١٩١٦ أرسل عددا من الخريجين الذين لم يستعملوا في التعليم الى الدار البيضاء في المغرب الأقصى حيث هيئت لهم وظائف .

المدرسة الفرنسية - الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية في أفريقيا الغربية طابعها النهائي مع

(١) انظر : Georges Hardy, Une Conquête morale = L'Enseignement : en A. O. F. , Paris (A. Colin) 1917 .

بدايات الحرب العالمية الأولى ، وذلك في وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر، وعندما بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعها النهائي في أفريقيا الغربية كان في تلك البلاد عدد كبير من المدارس العربية التي تأسست في الماضي وبعضها كان له شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرستي تمبكتو وجني اللتين بلغتا درجة الجامعات في أيام الاسقين على الخصوص ، ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق تلك المدارس التي انتشرت لها فروع في عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم أبدا تركها تؤدي دورها كما كانت تعمل في الماضي ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، فقد ركز الفرنسيون اهتمامهم على جلب ابناء الوجهاء والعائلات الشهيرة في المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسي منذ الصغر ، اما التعليم في تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردي دوايه بقوله : (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد في غرب افريقيا كما في الجزائر وتونس والمغرب الاقصى ثقافة اسلامية وذلك يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التي سبقت وجود حضارتنا ، وايضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسي فقد كان علينا ان نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمي للاسلام واللغة العربية بحيث تكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الاولى وقبول الثانية) •

لقد كانت كل مدرسة عربية — فرنسية Ecole Franco - Arabe

او مدرسة MEDERSA كما كانت تسمى ايضا، تؤدي خدمة لانتشار

الفرنسية على حساب اللغة العربية التي كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا . ويتحدث هاردي عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول :

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية - عربية ، يأخذ فيها اللسان الفرنسي والعلوم الفرنسية بالناصية اكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية ، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة واصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية ، وبهذا امكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية) ثم يستطرد هاردي الى القول :

« ومن ناحية اخرى فان العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون اصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل نستطيع القول بانها اصبحت لا تؤدي اكثر من رموز وذكريات في استعمال الزمن، وقد اختلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصب لها من ذلك التاريخ في برنامج المدارس الفرنسية - العربية اكثر من الدور والمكانة التي تحتلها اللغات الاجنبية في الثانويات الفرنسية » (١) .

وبالاضافة الى هذا فقد الحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية - العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردي :

« لانه يوجد احيانا خط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الافريقية ، ذلك ان مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطني، وطلابنا في الغرب الافريقي تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية اقل بكثير من تلك المناسبات التي يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (١) .

وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم ، فهم مساعدو الادارة الفرنسية في شؤون الاهالي وخاصة الحالات ذات الصبغة التقليدية والعائلية ، وفي هذه الوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة التي طبقوها في شمال افريقيا على خريجي المدارس الفرنسية - العربية ، وقد عبر هاردي بكل وضوح على الدور الخاص لخريجي المدارس الفرنسية - العربية كما كانت تستدعيه المصلحة الفرنسية بقوله :

« ... وبما ان مدارسنا تستهدف التصاق الطلبة بالتراب ، وتعويدهم على العمل اليدوي او تحضير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد والاشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية - العربية تكون بصورة عامة مترجمين رسميين قضاة او كتاب ضبط للمحاكم الاهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية الاهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين لادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من الضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسي قراءة وكلاما، ومن الضرورة كذلك ان يكونوا على معرفة جيدة باغراضنا الحضارية ... » (٢) .

Ibid .

(١)

Hardy , op. cit. , p. 111 .

(٢)

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون في الجزائر حينما اصطدموا
اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم في افريقيا الغربية
اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين افراد تلك الطبقة، فجعلوا
تعليم اولادهم وفق المخطط الفرنسي في المدارس الفرنسية - العربية
ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردي هذه الحقيقة اكثر فيقول :

« وبما انه من المفروض ان المدارس الفرنسية - العربية لا توظف
طلابها عن طريق الصدفة وبذلك فهي لا تمتلىء الا بالنخبة الاجتماعية ...
وهذا يعني استعمال الطبقات الارستقراطية الحاضرة وعلى مختلف
المستويات على هذه البلدان الجديدة كضمانات جديده ... ومن ناحية
اخرى فان المدارس الفرنسية - العربية الثلاث في افريقيا الغربية
انما هي في الواقع وقبل كل شيء مدارس لابناء وبنات الوجهاء ،
ان مدرسة تمبكتو التي هي اكثر شبها بمدرسة الجزائر قد اقيمت في
منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالي تستقبل ابناء الامراء والعلماء
المشهورين في حوض النيجر ^(١) ، اما مدرسة بوتليميت ^(٢) التي
وضعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا ^(٣) ، فهي تجمع
احفاد العائلات الكبيرة للترازة والبراكنة والعصابة الذين كان

(١) تقع تمبكتو في الشمال الشرقي من مالي الحالية .

(٢) في الجنوب الموريطاني .

(٣) الشيخ سيديا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد
من التفاصيل حوله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Stewart , The role of Shaykh Sidiyya and the qàdiriyya in
Southern Mauritania , PH. D. thesis 1970 ; Massignon
« Bibliothèque d'un marabout , le cheikh Sidia » Revue
Africaine , 1911 ,

آبائهم قد لعبوا دورا مهما في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي... وتعتبر مدرسة سان لويس اكثر اهمية وهي تمتلىء بشروط مماثلة، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الاولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والسريس والمافدينغ والسراكوليين والبيمارا (١) وهناك طالبا على الاقل من ابناء الملوك السابقين في الناحية .. كما تأوي هذه المدرسة الابناء الثلاثة لسلطان وضاي السابق الذين بعد ان امضوا بعض الاشهر في ثانوية الجزائر قدر الحاكم العام لافريقيا الاستوائية الفرنسية ان يعهد بهم اليها (٢) وينتهي هاردي الى النتيجة التالية :

(ان هذه المدارس الثلاث بعد ان تحولت وفق اهداف محددة لافريقيا الغربية الفرنسية .. تستحق البقاء .. وهي الى جانب المدارس الاخرى تكفي لان تهيب لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين) (٣) .

التاريخ :

في سنة ١٩١٢ صرخ نائب لاليه L'Allier في الجمعية الوطنية الفرنسية السيد بيروني Peyronet لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales Coloniales قائلا : (ان هناك مادة اريد ان ارى اختفاءها دون تأسف الا وهي مادة التاريخ ويكفي ان تعوض اثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطي لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا) (٤) .

(١) اسماء للقبائل الكبيرة والهامة في غرب افريقيا .

(٢) Hardy , op. cit. , p. 112 .

(٣) Hardy , op. cit. , p. 112 - 13

(٤) Annales coloniales , 1912 , p. 37

وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية في البرامج المخصصة لمدارسهم في افريقيا الغربية بكل دقة ، فكانت فكرة هاردي تقتضي تدريس التاريخ وفق الاهداف التي تبرر الوجود والاحتلال الفرنسي للمنطقة بل وتؤدي الى اقتناع الطلاب بوجوب بقاءه، ولتحسين هذه الفكرة يقرر هاردي ان المعلم الفرنسي يجب ان يوضع في قسم تتخلله خطوط متشابكة لتجسم المدفع الذي عياره ٧٥ مم، وذلك هو التاريخ فان اضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع في تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الاهالي القابلة للخوارق ، وعلى حد تعبيره (فان تدريس التاريخ في المستعمرات يجب ان يعتمد عن اي تأثير كان قد عرفه ميشلي Michelet) (١) .

لقد كانت الادارة الفرنسية في حاجة الى دراسة الاهالي نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم ، وقد كان لرؤساء الاقسام العسكرية (CHEFS des circles militaires) منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذي يجب ان يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من اشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الاسلوب مارتي : MARTY وموريس دولافوس . Maurice delafosse .

ففي حين كان الاول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحررا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسي فيما يكتبه كان الثاني حاكما الاعالي السنغال والنيجر ثم انتصب استاذا (حجة) في تاريخ افريقيا الغربية بباريس . وفق طريقتهما اصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة

(١) هو احد اصحاب النظريات الفلسفية المشهورين ، كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة في كتابه التاريخ .

افرنسية بافريقيا الغربية والاستوائية من نوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقد يشار لبعضها احيانا بشكل مقتضب وتعتمد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا (١) . ولا يزال لهذه المدرسة اثرها القوي في فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب افريقيا الغربية الان او الاشراف على رسائلهم امثال Hubert des Champs هيردي شامب EVES Person وايف بيرسون فسي جامعة باريس وتضع هذه المدرسة كأساس الطريقة الاثنولوجية نصب اعينها فيصبح تاريخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل في تنقلاتها التاريخية بين الشمال والجنوب وتفسر علاقاتها انها كانت لا تتجاوز فسي نوعيتها العلاقة الاستغلالية التجارية في ابشع صورها وخاصة قضية الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البداية قد قطعت الصلات الانسانية بين افريقيا الغربية وشمالها . وكونت وحدات جيش المهارة (او الجمال السريعة) لمراقبة الحدود وانهاء حركة القوافل القديمة وبذلك حرمت كل تنقل عن طريق القوافل، وبقيت هذه الوضعية قائمة حتى استقلال كل من شمال افريقيا وغربها، واثناء هذه الحقبة الطويلة التي استمرت حوالي نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع على ظهور تقاليد سودانية خاصة في مجال الديانة، وذلك بالتدخل المباشر والتمكين لنظام المريدين في الطريقة التيجانية ان يصبح هو السائد ، اما العناصر التي عارضت وعلى رأسها رجال الطريقة القادرية فقد قضى عليهم بمختلف الاساليب، ومنها العنف .

1 - cf. Paul Marty , études sur l'Islam et les tribus du sudan , Paris , 1918 ;

Mauric delafosse , les noirs de l'Afrique , Paris , 1921 .

الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عصر الجهاد في افريقيا الغربية (١). وقبل خضوعها للاحتلال الفرنسي في اخر ذلك القرن، عمل عدد من رجالها على القيام بثورات اصلاحية، كانت اهدافها :

- (١) - اصلاح وضعية المسلمين في بلادهم عن طريق احياء الاسلام في النفوس وتكوين دول حسب مفهوم العقيدة الصحيح.
- (٢) - نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

(٣) - ربط صلات قوية مع الاسلام وخاصة في شمال افريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا ان الخلافات التي رافقت فترة الجهاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها اثر عكسي خاصة في مناطق نهري النيجر والسنغال وساعد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال وزعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسي منذ البداية فعمل احمد البكاي الكنتي ، زعيم تمبكتو ، على الاستعانة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بان الانكليز لم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته احمد الاحتلال الفرنسي او الانتداب بكل الوسائل، ولما بدأ الفرنسيون في الثمانينيات من ذلك القرن تنفيذ

(١) عن حركة الجهاد هذه ، يراجع بصورة خاصة : H. F. C. SMITH , « A Neglected theme of west African History » , Journal of west African society of Nigeria , Vol . 2 , 1961 , p. 184 FF.

مخططهم التوسعي باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم في سان لويس كان من اشهر من حاربوهم. الشيخ ساموري في غينيا بكل تصميم وضراوة، وانشأ دولة مستقلة تشبه الدولة التي كان قد اسسها الامير عبد القادر الجزائري لملاءمة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين، ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين اكثر فتمكنوا من احتلال كامل افريقيا الغربية مع بداية القرن العشرين بقوة السلاح ^(١) ، وقد رفض السكان التجنيد الاجباري رفضا مطلقا في البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في افريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم في شمال افريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامي لديهم من انه لا يجوز التجنيد في جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية انذاك قد قررت وتريد تجنيد ابناء المستعمرات استعدادا للحرب العالمية الاولى ، فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الأهالي ، فاستأجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الاولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فأعطت وعودا بتصليح اوضاع السكان في المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاض الاهالي تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم ارضيته الثقافية على الخط الفرنسي، ولكن كانت لا تزال تقف امامه حواجز الرعوية وعدم المساواة بالفرنسيين الشباب الذين اخذ ثقافتهم واراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الاهداف،

87 - 123 , pp. 1963 , Paris , Canal , Afrique Noire , Jean Suret - 1

ولذلك كانت مطالب الممثلين الافريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية التي تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الاهالي (انديجينا) .

لقد نادى فرحات عباس (ممثّل حزب البيان الجزائري المعتدل في الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائري ، وقال ميقان اييتي : MIGAN APITHY الذي كان ممثّل منطقة الداهوس - طوغو : (ان عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا ان نقحم انفسنا فيما هو اساس قضايا الوطن الام ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر)، ثم اراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا : (ان الافريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسي في القضايا التي تهم الجميع، هذا الجميع الذي نكونه معهم) (١) . وربما يعتبر ميقان اكثر الممثلين من افريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض الممثلين من الشمال الافريقي وزعماء افريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزي الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذاتي او الاستقلال ، وفي غير ذلك فقد كانت الواقعة هي ابرز سمة ارتبط بها السادة نواب الغرب الافريقي في الجمعية الوطنية الفرنسية (٢) فحينما لوحظ بعض الامتعاض من طرف النواب الفرنسيين من مطالبة

(١) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب الممثلين الافريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

- R. Morgenthau , Political parties in French west Africa , oxford 1964
- E. Mortimer France and the Africans , London 1969 .

Ibid .

(٢)

عباس فرحات بالحكومة المحلية ضمن الاتحاد الفرنسي في بلاده انبري APITHY ليخاطب النواب الفرنسيين قائلا : (بالتأكيد فان بعض زملائي قد طالب بالاستقلال في اطار الاتحاد الفرنسي للبلدان التي يمثلونها، ولكن هذا لا يتعارض مع المبادئ التي كنتم قد قبلتموها انتم انفسكم واكدتموها في احيان كثيرة)^(١) . وحينما تم رفض المشروع الاول للدستور من طرف المنتخبين الفرنسيين لانه كان يتضمن بعض مبادئ للمساواة بالرعاية في المستعمرات قال ياسين دياالو (وكان يمثل غينيا): انه فيما يختص بالافريقيين فان الدستور المقترح قد أدى رفضه الى الرضى الكامل)^(٢) .

حينما اعلنت نتائج الانتخابات في افريقيا الغربية بعد نهاية الحرب الكونية الثانية لم يفز بها غير بعض المثقفين في المدارس الفرنسية وكان للادارة المحلية الفرنسية دورها على كل حال، ومنطقيا كان لا يمكن لنائب ان يؤدي دوره في الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الاشكال بغير اللغة الفرنسية، ولقد كان نواب الغرب الافريقي حريصين منذ البداية على اعلان الارتباط بفرنسا، وباستثناء ممثل غينيا (ياسين دياالو) فقد انقسم نواب الغرب الافريقي جميعا حسب الانضمام اما للحزب الاشتراكي الفرنسي او للحزب الشيوعي الفرنسي وهذا ضرب من الواقعية حيث كان هؤلاء الوافدون الجدد على باريس في حاجة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية، ووجدوا في الحزبين الشيوعي

1 - Ajayi and crowder (eds.) , History of west Africa , Vol. 2 , London 1964 , pp. 664 FF.

2 - Journal officiel , débats 2eme session , 18 September 1964 , p. 474 FF.

والاشتراكي قبولاً للانخراط ضمن كتلتيهما النيابيتين، ولم يكن من هم نواب الغرب الافريقي غير الاهتمام بادخال الاصلاحات ولما وجدوا في البرلمان الفرنسي خطراً واضحاً تجاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كتلة ما وراء البحار «الممثلة للمستعمرات» وهذا حتى يجدوا، كغيرهم، بعض التضامن^(١) ولقد ضمت كتلة النواب لغرب افريقيا الفرنسية انذاك نائبين مسلمين من مجموع ستة نواب، وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لم يكن له ابدا علاقة نسبية بالدين، ففي منطقة السنغال كان انتخاب سنغور المسيحي المتدين والذي لم يعيش في السنغال منذ ١٩٢٨ حتى نهاية الحرب بتأييد واضح من لمين غاي، ولم يكن تمثيل المناطق الاسلامية الاخرى، وهي تمثل اكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت، لينسجم هو الاخر مع الوازع الديني، وكان هذا اتجاه جديد لم تكن لتعرفه افريقيا الغربية على هذه الصورة في سنة ١٩٠٠ مثلاً ولا في السنوات التي بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجباري منذ سنة ١٩١٢، وبشكاثر عدد الطلبة الخريجين من المدارس الفرنسية في فترة ما بين الحربين اخذ الاتجاه الجديد طريقه الواضح الذي مثلته نخبة ضئيلة العدد، ولكنها كانت شديدة الاثر لدرجة انها جعلت النخبة القديمة المتمثلة في شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقاد اليها والحقيقة ان الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير في انتقاء افراد من النخبة القديمة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد، اما المناهضون فقد اكلتهم فترة الجهاد الاولى وقضي على انصارهم وتشتت احفادهم تحت نير الفاقة، وبقي المناصرون الذين ازداد عددهم بفعل

1 - MARCEL CHAILLEY , Histoire de l'Afrique occidentale , Paris 1968 pp. 474 FF.

التهجير واعطاء الاولوية في كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا اهداف الادارة مقابل ابهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا في ظلها .

التعليم الديني الفرنسي :

لم يكن في افريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون افارقة، وهذا باستثناء افراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الاهليات في سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الاولى للجاليات المسيحية من الاهالي في عدة مناطق هي :

(١) — بلدية السنغال (سان لويس، دكار ، كوري، روفسيكوتياز)

(٢) — في الكازامانس (السنغال الجنوبي) .

(٣) — في اعالي السنغال والنيجر (افراد قلائل من قبائل البمبار

او الموسى في سيغو بصورة خاصة) .

(٤) — بعض الافراد في باقاس بغينيا .

(٥) — في ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة) .

(٦) — في الداھوي (في الجنوب الغربي من ذلك الاقليم) .

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسح في مدة اربعين عاما، وقد وجدت ثمارها الاولى في المناطق الوثنية وكان الرسمىون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مينا^(١) والحقيقة ان

1 - Hardy , op. cit. , p. 319

الفرنسيين في افريقيا كما في غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرار قول غمبتا ذلك السياسي الفرنسي الشهير : (ان مناهضة اعمال الكنيسة يجب ان لا تكون مادة للتصدير) ذلك ان التبشير كان قد منع في فرنسا منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنسية في المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وكانت مدارس المبشرين في افريقيا الغربية قد سبقت الى الوجود قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فقد كانت المدارس التبشيرية واستمرت طيلة عهود الاحتلال تنفق عليها الادارة الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذلك حسب تعبير هاردي (لانه يكون من غير الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنسي العميق الذي يؤديه المبشرون) (٢) .

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسي، ولكنه سمح للبروتستانت ايضا بالعمل ، وكانت نسبة الكاثوليك الى البروتستانت بين الاهالي المنتصرين هي الغالبة منذ البداية . وبالرغم من ان مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها (٣) ، كانت في ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة في تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة لافجري التي كان قد جربها في الجزائر، وهي تعتمد مطالب اليتامى واقتناص مناطق المجاعات لتنصير بعض الافراد من بين المسلمين ثم الهروب بهم او عزلهم من المناطق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا للاسلام (٤) . ثم مال

1 - Ibid , p. 320

2 - Les écoles de MARAB outs .

3 - CF, HARDY , op. cit. , p. 320 ; Paul MARTY , Les écoles Mouraboutiques du sénégal , Paris 1914 .

المبشرون في الاتجاه الى الاعمال الاجتماعية مما سهل مهمتهم للاستقرار والانتشار في جميع المناطق، وهذه الطريقة هي التي لا يزال يسيّر عليها المبشرون في افريقيا الغربية، واغلبهم فرنسيون، حتى الان (١) .

لقد سخرت الادارة الفرنسية في افريقيا السدين لخدمة اهدافها واستخدمت المدرسة لنشر اللغة الفرنسية، واستفادت من الامتيازات التي كان يحصل عليها الافراد من التعاون مع تلك الادارة للقضاء على اللغة العربية وتمكنت في اقل من نصف قرن من خلق طبقات جديدة تنوق الى اهداف وتتعاق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الاجيال السابقة، وهو عمل كبير لا يمكن المؤرخ ان لا يلاحظ المجهودات التي بذلها الفرنسيون عن جدية ومعرفة في سبيله . واخيرا فانه لا يمكن اعتبار هذا البحث احاطة بموضوع واسع كهذا الذي نحن بصدد، ولكنه، وهذا هو الهدف الذي كتب من اجله، اقترح جدي لعناصر الموضوع نضعها امام الباحثين وخاصة الشباب من بينهم، ولنا اليقين بأنه سوف لن تنقصهم المصادر وانما يلزمهم العمل .

(١) لمزيد من التفاصيل حول طريقة الكاردينال لافيغري ، راجع بصورة خاصة :
Lavigerie , oeuvres choisies , Paris 1884 .

العصر الذهبي عصر الإزدهار الحضاري وبدايات التدهور السياسي الإداري

الدكتور فاروق عمر فوزي
كلية الآداب، جامعة بغداد

مقدمة :

حين بدأ عهد المهدي تنفس الناس الصعداء بعد حزم المنصور وشدته فقد آمن الخائف وانصف المظلوم وبسط يده في العطاء ، الا ان المهدي لا يستوي مع المنصور في الكفاءة الادارية والدهاء السياسي . وقد ظهرت نتائج ذلك في العصر الذي تلاه والذي اصطلحنا على تسميته « بالعصر الذهبي » .

ان العصر الذهبي بكل ما فيه من مظاهر الحضارة ودلالات الازدهار يعتبر في نظرنا بداية منعطف جديد في تاريخ الخلافة العباسية تمثل فيه بدايات التدهور الاداري والتفكك السياسي والتحلل الحضاري .

فمظاهر الحضارة في عصر الرشيد بادية للعيان في الروايات التاريخية التي تضمها كتب مؤرخينا الرواد ولعلنا نقتبس هنا رواية يعقوبي حيث يقول (١) :

«وكان الرشيد مع ذلك اول خليفة ضرب بالصوالجة والطباطب ورمى بالنشاب في البرجاس وقدم اهل الحنق بذلك • واول خليفة لعب بالشطرنج والنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الارزاق واول خليفة اتخذ القيان من بني هاشم فتشبه الناس جميعا به وسلکوا سبيله» •

وعن السيدة زبيدة زوجة الرشيد يقول اليعقوبي فيما يقول :

«واما ما يتلين به الملوك وينعمون به ، فهي (أي زبيدة) اول من عمل في الاسلام الاله من الذهب والفضة المكللة بالجواهر واتخذت رفيع الوشي حتى بلغ ثوب وشي عمل لها خمسين ألف دينار • وأول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يركبون الدواب ويختلفون في حوائجها برسائلها وكتبها • واول من عمل القباب من الفضة والابنوس والصندل ورأسها وكلايها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والخز ... وأول من اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجواهر وشمع العنبر وتشبه الناس بأم جعفر في جميع أفعالها » (٢) •

ومهما كانت درجة المبالغة في هاتين الروايتين وأمثالهما ، فالواقع ان هذه الصفات والمزايا كانت من خصائص العصر الذهبي العباسي التي توغلت في سائر فئات المجتمع فكثرت مجالس الانس والغناء وزاد شراء الناس للجواري والمغنيات حتى بلغت قيمة الواحدة منهن الاف الدراهم فراجت تجارة الجواري وتشقيفهن وبانت مظاهر الترف الاجتماعي والثراء الكبير في المأكّل والملبس والمشرّب وفي المواكب الرسمية والشعبية وألعاب الفروسية وركب الخيل والصيد ولعب الصولجان ومواكب النزهة في دجله وما الى ذلك •

على أن عهد الرشيد بكل ما فيه من مظاهر الحضارة والترف

الاجتماعي والازدهار الثقافي كان منعطف جديد نحو التدهور سياسيا واداريا • ان روايات (ألف ليلة وليلة) جعلت من شخصية هارون الرشيد شخصية اسطورية واخفت الكثير من حقائق شخصيته التاريخية (٣) •

فقد عاش هارون في بلاط ابيه المهدي الذي بدت عليه مظاهر الترف والاسراف والتحلل الحضاري • حياة نعيم ودعة بعيدا عن المسؤولية وتحمل المشاق والعقبات ، محاطا بالخدم والجواري والخصيان • ثم عين وليا للعهد بتحريض من امه الخيزران ومربية يحيى البرمكي اللذين لعبا دورا مهما في تنصيبه خليفة للمسلمين بعد وفاة الهادي بطريقة غامضة •

ان المنعطف الجديد يتصف بما يأتي :

من الناحية الادارية فوض الرشيد امور البلاد منذ سنة ١٧٠ هـ حتى ١٨٧ هـ للبرامكة حيث يشير الطبري الى قول الرشيد ليحيى البرمكي « ... قد قلدتك امر الرعية واخرجته من عنقي فاحكم بما ترى ... » (٤) ، ورغم ان هذا القول يمكن ان يكون من صنع صنائع البرامكة موضوعا على لسان الرشيد فالواقع ان البرامكة كانت لهم اليد الطولى في السياسة والادارة حوالي العقدين من الزمان وان نكبتهم كانت بمثابة نقطة تحول في الكفاءة الادارية للدولة التي بدأت تسير نحو التدهور رغم ان اثارها لم تبدأ بعد نكبتهم مباشرة •

ولم يكن الرشيد ذلك الاداري الكفو من مراقبته للععمال ولعل ذلك ظاهر في علاقاته بولاية الاقاليم حيث لم يكن موفقا في قضية علي بن عيسى بن ماهان واليا على خراسان الذي عاث بهذه الولاية وأخذ أموال الناس واستخف بالرجال وكان الرشيد يفض الطرف عنه لكثرة ما يقدمه

له من « الاموال والهدايا والطرف من المتاع والمسك والجوهر وأنية الذهب والفضة والسلاح والدواب .. » (٥) . وكان حماد البربري والي الرشيد على اليمن شديد الجور على أهلها الذين لم يهدأوا حتى عزل .

وقد اتخذ الرشيد جملة من التدابير الادارية تعتبر بدعة في التاريخ الاداري للدولة العربية الاسلامية فلم تكن الكتب الصادرة من ديوان الخراج تصدر الا بتوقيع الخليفة فخص يحيى البرمكي بهذا الاجراء . وأشرك الرشيد جعفر البرمكي في النظر في المظالم (٦) . كما تنازل عن واجبه في مراقبة عيار العملة النقدية وقلدها لجعفر البرمكي الذي ضرب اسمه على الدنانير والدراهم في بغداد والمحمدية . ويعلق المقرئ حول اشراف جعفر البرمكي على دور الضرب قائلا « اذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله (٧) » . ولا شك فان هذه الاجراءات تدل على تماهل الخليفة عن اداء واجبات من صميم مسؤولياته المباشرة .

ومن الناحية السياسية لم يكن الرشيد موفقا في معالجته لمشاكل الأقاليم بل ان المستشرق بارتولد يرى ان « هيبة الخليفة نفسه لم يحافظ عليها دائما فقد هاجمه أهل الكوفة سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٩ م عندما امضى ٤٠ يوما في الحيرة (٨) » .

وتفاقت الاضطرابات في المشرق الاسلامي بحركة رافع بن الليث ولم يستطع الرشيد ان يجد حلا لها . بل ان تكتلات البلاط عقدت المشاكل أكثر بحيث ضاعت المسؤولية بين الآراء المتضاربة والمصالح المتنازعة . أما في المغرب الاسلامي فقد نجح ادريس بن عبدالله الحسني في اقامة كيان مستقل في مراكش سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م فنشأ كيانان اسلاميان لأول مرة . وازاء هذا الوضع المتأزم وبسبب القلاقل في

افريقيا (تونس وشرقي الجزائر) اضطر الرشيد ان يعترف بالاغلبية
امراء مستقلين مقابل دفع ٤٠ الف دينار لبیت المال . ان هذا الوضع ان
دل على شيء فانما يدل على اعتراف الرشيد بالتفكك السياسي والانحلال
الاداري في الخلافة العباسية .

ويعتبر الخليفة الرشيد مسؤولا عن التفكك السياسي حين قرر
تقسيم اقاليم الخلافة بين ابنائه الثلاثة الامين والمأمون والمؤتمن . ان
توليه العهد لاكثر من واحد وتقسيم الخلافة أدى الى الحرب الاهلية بين
الامين والمأمون تلك الحرب التي ضيعت الاموال والارواح وافقدت
الخلافة هيبتها ونشرت الفوضى في البلاد . وربما كان الرشيد في
ما قام به مدفوعا برغبته في أن يحكم أبناءه من بعده . أي ان يستمر
الحكم في نسله ، وكذلك لتأكيد السلطة العباسية على كل الاقاليم الا انه
من الصعب القول بان هذا الحل الذي ابتدعه الرشيد كان حلا
صحيحا .

والواقع أن الرشيد بعث روحا جديدة في الحرب الاسلامية -
البيزنطية ولكن الذي يؤخذ عليه عدم السير على خطة منظمة في
عملياته البحرية وعدم متابعته الضغط على الروم واستغلاله مشاكلهم
الداخلية لتأكيد تفوقه العسكري وتحسين حدود الخلافة البرية
والبحرية بل انه كان يجنح للسلم حالما يطلب الامبراطور الصلح ،
ولهذا ورغم ان الجهاد كان من مآثر العصر الذهبي البارزة فان الحدود
لم تتغير في صالح المسلمين .

ومع أن عهد المهدي شهد بدايات بروز التكتلات في البلاط ، فقد

زادت حدة هذه التكتلات في بلاط الرشيد فقد كان للبرامكة اتباعهم ومواليهم وكان للفضل بن الربيع ويزيد الشيباني اتباع وموال وكان لعلي بن عيسى بن ماهان انصاره وشيعته . وكان لا بد ان يحدث صراع على النفوذ والسلطة لعبت فيه الخيزران وزبيدة دورا كبيرا فقد استعان البرامكة بالخيزران التي كانت « هي النافذة في الامور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن امرها (٩) » . ان ذلك يظهر لنا أثر التكتلات في سياسة الرشيد وبوادر تأثير الحزم في سياسة الدولة العباسية ويبدو أن خروج الرشيد من عاصمته بغداد بين حين وآخر ولكثرته في الرقة يدل على تضايقه من الجو المتأزم في بلاطه في بغداد . على اننا يجب الا ننظر ، كما فعل بعض المستشرقين (١٠) الى هذه التكتلات نظرة عنصرية بل ان كل كتلة كانت تضم افرادا وشخصيات من عناصر مختلفة جمعتهم المصلحة المشتركة .

ومن المستغرب ان يهمل الرشيد شؤون الاتصال والمواصلات مع سعة رقعة دولته ففي رواية « ان امور البريد والاخبار (١١) » اُهملت في عهده وان الخليفة حين توفي كانت هناك ٤ آلاف خريطة لم تستعمل .

كل هذه اسباب تجعلنا نعتبر الرشيد وعهده نهاية فترة وبداية منعطف جديد في التاريخ العباسي .

ان ما ارتكبه الرشيد من اخطاء في حالات معينة اثارت عجب واستغراب المؤرخين الرواد انفسهم فيعجب ابن الاثير من تدابير فيما يتعلق بولاية العهد قائلا « وهذا من العجائب (١٢) » ذلك لان الرشيد لم يتعظ بما جرت ولاية العهد لاكثر من واحد من ويلات على الدولة .

ويوافقه الطبري حيث يقود على لسان العامة « وقال بعضهم بل قد القى
بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة (١٣) » •

ونحن بعد ذلك كله لا ننكر تدابير الرشيد واصلاحياته الا اننا
لا نتفق مع بعض المؤرخين روادا ومحدثين حين يقارنون الرشيد بجده
المنصور حيث تقول عنه احدى الروايات بانه « كان يقتضي اثار
المنصور (١٤) » فالاول لا يمكن ان يصل في حزمه وكفاءته الادارية
وحكمته السياسية الى درجة الخليفة المؤسس ابي جعفر المنصور •



التطورات السياسية للخلافة : نظرة تحليلية

عمر الرشيد (٧٨٦/١٧٠٠ - ٨٠٨/١٩٣) :

يقول بارتولد « من المعروف ان شخصية هارون الرشيد لم تعد تحيطها هالة الف ليلة وليلة » والواقع ان شخصية هذا الخليفة تعتبر اكثر الشخصيات شهرة لا في الاساطير الشعبية فحسب بل في روايات المؤرخين الاوائل والمحدثين منهم على حد سواء . وهذه الحقيقة تدفعنا الى احتراز اكثر من اجل غربة حقائق التاريخ من بين مئات الروايات المفعمة بالخيال البراق والقصة الساذجة والخبر الموضوع والمدسوس .

لقد اخفت هذه التناقضات شخصية هارون الرشيد الحقيقية وضاعت مظاهر سياسته الداخلية والخارجية ولعل ذلك يعود الى ظروف عصره السياسية والحضارية الى حد كبير .

كان هارون الرشيد ثالث اولاد الخليفة المهدي وثاني ابنائه من الخيزران الجارية ذات الآمال الكبيرة والطموحات الواسعة التي تزوجها المهدي وحررها سنة ١٥٩ هـ / ٧٧٥-٧٧٦ م فلعبت دورا مهما في حياة زوجها وابنها الرشيد (١) .

ان تربية الرشيد وحياة الدعة والرفاهية التي عاشها جعلت منه

شخصية يسهل التأثير عليها خاصة من قبل امه ومرييه يحيى البرمكي •
وتصفه رواياتنا التاريخية بحدة المزاج وسرعة تغلب العواطف بين الثورة
العارمة والرقعة المتناهية • كما وانه كان لا يدخر وسعا في تبذير الاموال
الوفيرة وبذلها لسبب او دون سبب حتى ان الطبري يقول « لم ير
خليفة قط قبله اعطش منه للمال (٢) » ويقول ابن الطقطقي ان الرشيد كان
« يجزل العطاء (٣) » •

ولم يكن هارون الرشيد ولي عهد مهتما بالخلافة ومصيرها بل كاد
أن يقبل بالتنازل لجعفر بن موسى الهادي لولا الحاح الخيزران ويحيى
البرمكي وتشجيعهما له على الصمود في وجه اخيه الهادي والحفاظ على
حقه الشرعي في الخلافة • ولذلك فقد كان من الطبيعي ان يتمتع البرامكة
ومن ورائهما الخيزران بسلطات واسعة بعد ان تبوأ الرشيد كرسي
الخلافة • حتى ان الجهشيارى (٤) يرى ان الدواوين كلها كانت بيد
يحيى البرمكي •

ان الظروف الصعبة التي مر بها هارون الرشيد في خلافة موسى
الهادي وضياح شخصيته بين البرامكة والخيزران وحدة مزاجه شجعت
الى حد كبير على نمو التكتلات في البلاط العباسي وتبلورها • فقد أمر
الرشيد في أوائل عهده بقتل او سجن او ابعاد الاشخاص الذين تعاونوا
مع أخيه الهادي • ومع ان البرامكة تمتعوا بصلاحيات واسعة الا ان
شخصيات عربية مهمة كانت تنافسهم في البلاط نذكر منها الفضل بن
سليمان الطوسي ومحمد بن فروخ الازدي ويزيد بن مزيد الشيباني
والكثير من امراء العباسيين وكذلك كل من الفضل بن الربيع بن يونس
وعلي بن عيسى بن ماهان وغيرهم • وقد لعبت هذه الشخصيات والكتل
التي وراءها دورا مهما في سياسة الرشيد واجراءاته المختلفة •

ولم يكن عصر الرشيد خاليا من الاضطرابات الداخلية في ارجاء مختلفة من الخلافة العباسية . على أن اسباب هذه الاضطرابات تعود احيانا الى حركات المعارضة الخارجية أو العلوية أو الفارسية أو غيرها وهذا ما سنتطرق اليه في فصل قادم . اما البعض الآخر فكان يعود الى اضطرابات قبلية أو حركات تمردية ذات طابع سياسي لا لون عقائدي له بل سببته سوء ادارة بعض الولاة وتذمر فئات معينة من الرعية .

ففي بلاد الشام ثارت العصيات القبلية بين اليمانية والقيسية في سنة ١٧٤ هـ - ٧٩٠ م وتكررت سنة ١٧٦ هـ - ٧٩٢ م واشتدت سنة ١٨٠ هـ - ٧٩٦ م . ورغم ان الخلافة العباسية تدرك بان انقسام اهل الشام ، اعداء الدولة التقليديين ، على انفسهم قوة لها فان تفاقم الوضع أدى من جهة أخرى الى ارباك الادارة واضعف من قوة السلطة المركزية مما دفع الرشيد الى ارسال جعفر البرمكي للسيطرة على الاقليم (٥) ، وقد نجح جعفر في استعادة الامن والاستقرار وذلك بتجريد القبائل من السلاح وقتل اهل الفتنة والمحرضين عليها والمنفعين بها من (الزواويل) واللصوص وبعض شيوخ القبائل مثل ابي الهيثام (٦) . وقد جلب جعفر البرمكي معه عددا من الزعماء الشاميين الى عاصمة الرشيد الذي قرر فرض نوع من الاقامة الجبرية عليهم في بغداد كما انه اصطنع البعض الآخر .

وفي اقليم اليمن تمرد الهيصم الهمداني ومعه اليمانية سنة ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م وتمركز في الجبال الوعرة وكلما طال امر حركته كلما تجمع حوله عصاة آخرون فأيده عمر الحميري والصباح السذي اعتصم بناحية حرار وقد استطاع حماد البربري ان يشتت شملهم بعد مجزرة قتل فيها الالاف فاتتهى التمرد بعد اكثر من تسع سنوات وقتل الهيصم

في بغداد • اما الوالي فقد بقي في اليمن ثلاثة عشر عاما واشتهر بسوء سياسته وتعسفه (٧) •

اما خراسان ذات الموارد البشرية والاقتصادية الكبيرة فقد بقيت موضع اهتمام الرشيد الا انه اساء اختيار الولاة لها ولعل الدسائس وتكتلات البلاط لعبت دورها في قرارات الرشيد فيما يخص ادارة خراسان فقد عين خاله الغطريف بن عطاء على خراسان فكان سيء السيرة والتدبير ، ولكن الرشيد لم يعزله حتى اشتدت الفتن عليه • وفي سنة ١٧٨هـ - ٧٩٤م توجه الفضل البرمكي الى خراسان بعد ان عينه الرشيد عاملا عليها • وتمتدح مصادرنا التاريخية سياسة الفضل وحسن ادارته فقد « ازال سيرة الجور وبني الحياض والمساجد والرباطات وأحرق دفاتر البقايا وزاد الجند والقواد (٨) » •

ولكن الامر لم يدم للفضل البرمكي حيث تعاقب على حكم خراسان ولاة اخرين حتى عين الرشيد علي بن عيسى بن ماهان وتجمع الروايات (٩) على ان علي بن عيسى تعسف في الجباية وفي المعاملة فشكى الناس ذلك للسلطة المركزية دون جدوى ذلك لان هذا الوالي كان يحمل الى الخليفة الكثير مما خف وزنه وغلى ثمنه من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب كما وان وارد خراسان لم ينقص في عهده • هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان الوالي كان من منافسي البرامكة ومن كتلة غير كتلتهم ولذلك فان الخليفة لم يكن يصدق ما يسمع عنه من شكاوى ظانا انها من اختلاق البرامكة وانصارهم ولذلك استمر هذا الوالي عشر سنين يحكم الاقليم •

ان ثورة رافع بن الليث بن نصر بن سيار في سمرقند هي التي

نبت الرشيد الى سوء ادارة علي بن عيسى . فقد استطاع رافع ان يهزم جيش علي في معركة ضارية زادت من شيعة حيث انضم اليه اهل نسف كما التحق به اعداد كبيرة من اهالي بخارى وخوارزم وفرغانة واشروسنة والختل وغيرها من اقاليم ما وراء النهر وبلاد الترك . وقد اضطر علي بن عيسى تجاه هذا الضغط العسكري ان ينسحب من بلخ الى مرو ولكن الرشيد لم يمهله طويلا حيث عزله وصادر امواله وارسل هرثمة بن اعين لتسلم امر واصلاح الوضع ومعه كتاب العزل الذي يشير فيه الرشيد الى ظلم ابن ماهان للناس ومخالفته للخليفة حيث يقول :

« رفعت من قدرك ونوهت باسمك واوطأت سادة العرب عقبك وجعلت ملوك العجم حولك واتباعك فكان جزائي ان خالفت عهدي ونبتت وراء ظهرك أمري حتى عثت في الارض وظلمت الرعية واسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك وظاهر خيانتك وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان وامرته ان يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتابك وعمالك ... » (١٠) .

ولم يستطع الرشيد في حياته ان يقضي على الحركة رغم انه حاول ان يسير اليها بنفسه حيث وافاه الاجل وهو في طريقه الى خراسان وبقيت الحركة حتى ولاية المأمون سنة ١٩٥هـ - ٨١٠م الذي استطاع بسياسته في استرضاء اهل خراسان ان يفرق اتباع رافع بن الميث ويكسبهم الى جنبه مما ادى الى استسلام رافع وذوبان معارضته .

اما ارمينية فقد انتشرت فيها القلاقل في عهد الرشيد وعمل هذا الخليفة على توطئ قبائل عربية برمتها في ارمينية فكان كل والي يأخذ

معه اخذا من عشيرته فلما عين يوسف السلمي نقل اليها قبائل نزارية ولما تولى يزيد الشيباني جاء ومعه جماعة من ربيعة وجلب الوالي عبد الكبير الخطابي قوما من مضر . وهكذا فقد تنوعت قبائل العرب في ارمينية بعد ان كانت صنفها الغالبة قبل عهد الرشيد من القبائل اليمانية .

ومع ذلك فلم تستقر الاوضاع في هذا الاقليم ، ويورد المؤرخون اسبابا لحركات الخزر (١٢) هذه منها الموت الفجائي لابنة خاقان ملك الخزر التي تزوجها الفضل البرمكي ومنها اثارة بعض العصاة والمتمردين العرب الذين دخلوا اراضيهم واستجاشوهم على التمرد على الوالي العربي . . . على ان هذه العوامل وغيرها ربما كانت عوامل مساعدة ولكن الاهم من ذلك كله طبيعة الخزر وموقع بلادهم بين دولتين متعاديتين العباسية والبيزنطية فكان كل منهما يستغلهم في مناسبات عديدة لمصلحته ضد الطرف الاخر .

اما الاضطرابات في افريقيا (١٣) فقد استمرت الحرب سجالا مع الاباضية في ولاية يزيد بن حاتم المهلبى وابنه داوود المهلبى . وفي سنة ١٧٧ هـ - ٧٩٣ م تحرك الجند بقيادة ابن الجارود وطرّدوا الوالي المغيرة ابن بشر المهلبى ثم قتلوا الوالي الجديد الذي ارسل لتولي افريقية واستمر ابن الجارود بالعصيان حتى ارسل الرشيد هرثمة بن اعين الذي فتح القيروان سنة ١٧٩ هـ - ٧٩٥ م وسلم ابن الجارود نفسه لهرثمة فارسله بدوره الى الرشيد .

وهكذا فان تمرد الجند والتنازع على السلطة بين قادة الجيش حالت بين السلطة وبين مقارعة الحركة الاباضية في افريقيا التي ، كما سنرى ،

استفحل امرها في تونس • وقد عين الرشيد محمد بن مقاتل العكي سنة ١٨١ هـ - ٧٩٧م فتمرد عليه الجند لسوء سيرته وهنا برز ابراهيم بن الاغلب فقضى على حركة الجند ودخل القيروان مساعدا الرشيد الى تعيينه واليا على افريقيا تخلصا من مشاكلها السياسية واعبائها المالية !! فقد تعهد ابن الاغلب ان يضمن الاستقرار ويستغني عن الاموال التي تدفعها مصر الى والي افريقيا سنويا كمعونة وضمن فوق ذلك ان يدفع لبيت المال ٤٠ الف دينار سنويا •

تعاظم نفوذ البرامكة ونكبتهم :

البرامكة اسرة ايرانية من بلخ وينسبون الى برمك (١٤) وهو لقب لرئيس سدنة معبد النوبهار في بلخ • وهذا المعهد من المعابد البوذية التي تعبد فيها الهتهم حيث يشير ابن الفقيه انه معبد للاصنام ويؤيده في رأيه هذا جغرافيون آخرون •

وليس يهنا هنا تاريخ اتصال البرامكة بدولة العباسيين واسلام جدهم خالد البرمكي والتحاقه بالدعوة العباسية ثم خدمته للدولة في عهدي ابي العباس والمنصور • ثم ازدياد نفوذ يحيى بن خالد البرمكي في دولة المهدي واتصاله بالخيزران زوجة المهدي وعلاقته الوثيقة بها وبابنها هارون الرشيد حيث اصبح يحيى البرمكي مريبا لهارون الرشيد ومشرفا على شؤونه ومراققا له في حملاته وسفرائه ، بل ان الذي نود التأكيد عليه في هذا المجال هو دورهم في عهد الرشيد •

كان يحيى البرمكي مثقفا ذا قابليات كبيرة يذكيها طموح ليس له حدود وقد سخر كل هذه القدرات في خدمة هارون فقد لعب دورا كبيرا في ولاية العهد لهارون بعد الهادي ولعب دورا كبيرا في وقوفه

وراء هارون يشد من عزمه ويشجعه على الحفاظ على حقه الشرعي في الخلافة تجاه ضغوط الهادي الشديدة آملا ان يحقق من وراء ذلك طموحاته •

ان المبالغات التي اثرتها الروايات التاريخية القديمة والقصص الروائية التي حكتها اقلام الادباء مثل جرجي زيدان والكتاب المحدثين مثل جميل المدور جعلت من « اسطورة البرامكة » قصة شعبية يتداولها الناس مبالغين في احداثها ومدلولاتها ، والواقع ان البرامكة الذين نعرفهم في التاريخ لم يتعدوا اصابع اليد الواحدة ومهما بلغ هؤلاء القلة من نفوذ وسطوة فان نفوذ الخليفة بقي على الدوام اقوى واهم • ولعل اكبر دليل على ذلك السهولة التي استطاع بها الخليفة ان يقضي عليهم •

كان يحيى البرمكي والخيزران عاملين مؤثرين في سياسة الرشيد بعد تقلده السلطة • فقد تقلد يحيى البرمكي الوزارة وفوضه الرشيد الامر قائلا :

« فاحكم بما ترى واستعمل من شئت واسقط من رأيت فاني غير ناظر معك في شيء (١٥) » •

على أن يحيى كان من الذكاء بحيث اشرك الخيزران في الامر فكان يستشيرها ويعرض عليها الامور قبل اصدارها لدرجة ان بعض الروايات تعتبرها « الناظرة في الامور (١٦) » • ومهما يكن من امر فقد كانت الدواوين كلها بيد يحيى البرمكي خاصة بعد سنة ١٧١هـ حين اضاف اليه ديوان الخراج • اما الفضل بن يحيى البرمكي فكان الساعد الايمن لابيهِ في الامور الادارية وتولى امارة عدة اقاليم من اهمها خراسان وطبرستان وارمينية • وارسل للقضاء على حركة يحيى بن عبد الله الحسيني • ومهما

بالفت الروايات الشعبية في اظهار اعمال الفضل البرمكي ، فالواقع انه قام باصلاحات مهمة في الولايات التي ادارها فقد شجع الزراعة في خراسان واعفى الزراع من الضرائب الخراجية المتبقية عليهم وبنى المساجد والرباطات . كما وان الرشيد عهد له بتربية ابنه محمد الامين . ولم يكن جعفر بن يحيى البرمكي مثل اخيه بل كان يحب الانس والطرب والمتعة ويتألق في مسكنه وملبسه . وقد قربه الرشيد لدرجة كبيرة حيث تشير رواية تاريخية « وغلب جعفر على الرشيد غلبة شديدة حتى صار لا يقدم عليه احد (١٧) » . ولا بد ان تشير بان الخليفة اخطأ حين عهد لجعفر بمهام سياسية وادارية فقد اعطاه خاتم الوزارة مرة ثم اشركه معه في النظر في المظالم وامره بان يراقب دور الضرب ، وكتب اسمه على الدنانير بجانب اسم الخليفة .

ان هذه الخطوة الكبيرة وهذا النفوذ السياسي والاداري الواسع اضافة لما اشتهروا به من كرم جعلت من البرامكة اسرة تتمتع بصيت كبير وشعبية واسعة بدت وكأنها تضاهي سمعة الخلافة وهيبتها . وكثر شيعتهم وصنائعهم ومواليهم والمنسوبون الى كتلتهم لدرجة ان رواية تقول : « ان في دولة الرشيد دولة ملوكها البرامكة » . كما درج الناس على تسمية بعضهم « بالسلطان » او « الملك » (١٨) . فقد قال اشجع السلمي في جعفر البرمكي :

ذهبت مكارم جعفر وفعالة في الناس مثل مذاهب الشمس
ملك تسوس له المعالي نفسه والعقل خير سياسة النفس

وهنا لا بد ان ندرك ان سلطة البرامكة المطلقة لم تستمر اكثر من اربع سنين ذلك ان وفاة الخيزران سنة ١٧٣ هـ - ٧٩٠م كانت بداية لنهاية نفوذهم الذي بدأ يتقلص بصورة تدريجية رغم أنها بطيئة . ان موت

الخيزران يعتبر في رأينا بداية لنهاية نفوذ البرامكة ، لا لان الخيزران كانت السند المهم ليحيى البرمكي فحسب بل لان موتها اخلى الجو ليحيى البرمكي واولاده لكي يتصرفوا في الامور بسلطة مطلقة اكثر من ذي قبل الامر الذي جعل الخليفة يشعر اكثر من أي وقت مضى بثقل نفوذهم وتماديهم ، والى ذلك يشير الفخري (١٩) حين يقول :

« وقيل ان جعفرا والفضل ظهر منهما من الادلال ما لا تحمله نفوس الملوك فنكبهم لذلك » .

ولقد استمر تأثير البرامكة وبدرجات متفاوتة خلال اكثر من سبع عشرة سنة ، ولكن الرشيد تخلص منهم سنة ١٨٧هـ فجأة بعد ان دبر المكيدة لهم سرا . وقد حار المؤرخون في سبب النكبة فاختلفت الروايات الموضوع بالروايات الشعبية وحبكت القصص والاساطير وتداخلت بالوقائع الحقيقية حتى بات من الصعب التفريق بينهما . ولعلنا ننفي منذ البداية (اسطورة العباسية) اخت الرشيد وقصة زواجها الصوري من جعفر البرمكي لانها رواية لاتقف امام النقد الداخلي لمتن الرواية ولا امام النقد الخارجي . فالرواية يرويها الطبري دون سند او سلسلة رواة وليس لها ذكر في كتب الدينوري واليعقوبي والاصفهاني وهم من اوائل من كتب في احداث العراق في هذه الفترة . ويبدو الجهشياري مستهزئا بها ويشير الى رواية عن مسرور الكبير مفندا هذه القصة بقوله (٢٠) :

« كأنك تريد ما تقوله العامة فيما ادعوه من أمر المرأة ... لا والله ما لشيء من هذا اصل ولكنه من ملل موالينا وحسدهم » .

ويناقد ابن خلدون (٢١) هذه القصة وينفيها اصلا ولا يعقل ان

تقدم العباسية على ذلك وعصرها قريب عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين • فاین يطلب الصون والعفاف اذا ذهب منها ؟ • واكد ابن كثير (٢٢) وغيره ان العديد من العلماء انكروا هذه الاسطورة التي وضعتها الاقلام الفارسية الحاقدة خاصة وان متنها يغلب عليه الطابع الاسطوري المخلوق •

هذا من جهة ومن جهة اخرى فالعباسية كانت متزوجة من محمد بن سليمان وتوفي عنها ثم تزوجت ثانية وثالثة فلم تبق دون زوج • حتى ان الشاعر ابا نواس يتندر في شعره بامرها ويقول اذا اراد رجل الموت فما عليه الا الزواج من العباسية !! وكانت القيم والتقاليد قوية فعالة في عصر الرشيد فان هذا الخليفة جعل ابنه الامين وهو من ام عريية وليا اوليا للعهد فكيف يوافق على زواج اخته من مولى أعجمي ؟ وكيف يتم الزواج والخليفة لا علم له • واذا كان الزواج سوريا فكيف يوافق عليه الخليفة مع انه ينافي الشريعة الاسلامية التي لا تقر زواجا بالصورة التي نقرأها في الرواية •

ومن الروايات تلك التي تدعي أن سبب نكبتهم هو ميلهم الى العلويين وهذه روايات ضعيفة موضوعة (٢٣) وليس لها ما يبررها كما وان البرامكة يظهرون في روايات اخرى وكأنهم اعداء للعلويين (٢٤) على اننا لا نعتقد بان البرامكة كانوا موالين سياسيا للقضية العلوية وربما اظهروا في مناسبة او اكثر تعاطفهم مع بعض العلويين او سمحوا في مجالسهم بمناقشة الافكار والآراء الشيعة العلوية كما كانت تناقش آراء عديدة اخرى • وليس لدينا روايات موثوقة تدل على اخلاصهم للقضية العلوية او ولائهم لشخصية سياسية علوية • كما واننا لا نعتقد بان

البرامكة كانوا زنادقة كما حاول بعض المؤرخين اتهامهم (٢٥) . فقد قيل في حقهم :

إذا ذكر الشرك في مجلس اضاءت وجوه بني برمك
وان تليت آية عندهم أتوا بالاحاديث من مزدك (٢٦)

وهذه تهمة قذفوا بها بعد زوال نفوذهم كما اتهم قبلهم ابو مسلم الخراساني وآخرون غيره . وليس في رواياتنا الموثوقة ما يؤيد ذلك . والمعروف ان تهمة الزندقة كانت سلاحا سياسيا بيد السلطة تصم بها كل من تشك في ولائه لها .

وقد ذهب المؤرخون المحدثون (٢٧) مذاهب شتى في تفسير سبب سقوط البرامكة . فقد اورد الدكتور الدوري جملة اسباب سياسية ومالية وعنصرية وشخصية تعود الى تكتلات في البلاط ادت الى الاسراع في سقوطهم . اما الدكتور حسن ابراهيم حسن فيرى بان النكبة حدثت اثر وقوع حوادث جاءت متتابعة ووجد اعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب وخاصة الفضل بن الربيع من استئثار البرامكة بالنفوذ واستمالتهم الناس ما اوغر صدر الرشيد عليهم . ويعزو الدكتور الجرمود ان السبب الرئيسي للنكبة يعود الى اجراءات سياسية جعلت الرشيد مطوقا سياسيا وعسكريا بالبرامكة وانصارهم خاصة بعد تشكيل الفضل البرمكي لفرقة العباسية (او الكرمينيسه) الاعجمية التي تدين بالولاء للبرامكة . اما الدكتور عبد المنعم ماجد فيرى ان النكبة مبعثها نزاع شخصي بين كتل البلاط العباسي وان العامل الاول في النزاع هو مشكلة ولاية العهد .

ولعل من الصواب الا نعزو النكبة الى عامل واحد بعينه ذلك ان مؤرخينا الرواد يعددون اكثر من سبب لسقوط البرامكة . فالجهشياري يذكر اكثر من عشرة مسائل اعتبرها اسبابا للنكبة ويعدد ابن خلدون اخطاء البرامكة التي يعتبرها المسؤولة عن سقوطهم . ويمكن تلخيص هذه العوامل في رأيه :

« باستبدادهم على الدولة واحتجابهم اموال الجبائية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على امره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه ... » (٢٨) .

وعلى هذا فالوقائع تثبت ان سقوط البرامكة المفاجيء لم يكن وليد انفعال مفاجيء من قبل الخليفة بل كان تديرا مخططا له ولدته احداث تراكت على بعضها لعل ابرزها نفوذهم الكبير في البلاط والادارة والمجتمع . فكان جعفر البرمكي يتصرف وكأنه الخليفة . واجتمعت ليحيى البرمكي الوزارتان وهما ادارة الدواوين والخاتم . وكان الفضل يسمى الوزير الصغير لانه كان اداريا متنفذا وكان يحيى يرى بان الفضل سيخلفه في المسؤولية .

ان هذه السطوة اثارت شكوك الرشيد واذكت فيه تجاربه المريرة فحز ذلك في نفسه وشعر بان كرامته قد اهينت وهو شيء كما يقول ابن الطقطقي « لاتحتماه نفوس الملوك » . وقد عبر الجهشياري عن موقف الرشيد قائلا بان الرشيد ندد بيحيى البرمكي متهما اياه « استبد بالامور دوني وأمضاها على غير رأيي وعمل بما احبه دون محبتي » (٢٩) .

واذا كان السبب الاول سطوتهم السياسية ونفوذهم الاداري فان السبب الثاني هو جمعهم للثروة والاموال بين ايديهم وهذا ما يبرر كثرة عطاياهم وسخاءهم الكبير الذي فاق عطايا الرشيد رغم ما يعرف عنه من

الكرم • ويظهر من بعض الروايات انهم حجزوا عنه الاموال ولذلك اتهمهم بانهم « نهبوا مالي وذهبوا بخزائني » (٣٠) •

اما السبب فهو في رأينا حبههم للنقاش والجدال في أمور السياسة والعقيدة والكلام ويظهر ان مجالسهم كانت حافلة بالكتاب والادباء والمفكرين والشعراء واصحاب العقائد والمذاهب المختلفة وكانوا لا يتخرجون في نقاش مسائل عديدة سياسية ومذهبية ، وتشير روايات تاريخية (٣١) ان جعفر البرمكي كان يسمح للعلويين في حضرته لمناقشة مسائل تتعلق بالنص والاختيار والاحقية في الخلافة • وربما كان ذلك سببا في انزاعهم مرة بالتشيع للعلويين او للمعتزلة (٣٢) ومرة بالزندقة ومرة ثالثة بالميل للفارسية وللمجوسية • والمعروف ان موقف البرامكة هذا في حرية النقاش كان على عكس موقف الرشيد الذي كان يتخرج في النقاش والجدال في الدين خاصة (٣٣) • ولعل موقف الرشيد يعود الى سبب ديني ذلك لانه يعتقد ان الجدال يؤدي الى الخلط والتشويه وخاصة على العامة من الناس كما وانه يسمح لمذاهب معاوية بالانتشار وكذلك الى سبب سياسي لانه يعتبره خطرا على سلامة وأمن الدولة لانه يؤدي الى استفحال التيارات السياسية المعادية ثم ضعف عوامل التماسك وغلبة عوامل الانقسام •

اما العامل البارز الاخير في سقوط البرامكة فيعود الى تكتلات معادية ضد كتلة البرامكة ولعل ابرز من يمثل الكتلة المعادية لهم هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الخليفة الذي سعى بهم وأوغر قلب الرشيد عليهم • كما وان علي بن عيسى اتهم موسى بن يحيى البرمكي بمحاولة التآمر ضد الدولة في خراسان • وتكلم محمد بن الليث ضدهم وذكر الرشيد بمسؤولياته تجاه الامة ، وكانت البرامكة تكره ابن الليث

هذا « لان فيه ميلا على العجم » • كما وان البرامكة كانت منحرفة عن القائد العربي يزيد بن يزيد الشيباني • ولم تكن علاقة زبيدة ام الامين ودية مع البرامكة وكانت تشكوهم باستمرار الى الخليفة الرشيد (٣٤) هذا اضافة الى علاقة الفضل البرمكي بالخليفة ساءت بعد ان نكث الرشيد بعهدده ليحيى بن عبد الله العلوي الذي استسلم للفضل البرمكي بعد أن اقنعه هذا الاخير بالعفو والامان • ولا ننسى كره بعض الهاشميين لهم كما وان ابن خلدون (٣٥) قال ان بني قحطة وهم عرب يمانية كانوا اعداء للبرامكة •

واغلب الظن ان هذه العوامل الاربعة قررت مصير البرامكة حيث أمر الرشيد عام ١٨٧هـ - ٨٠٣ بالقبض عليهم وصادر املاكهم وضياعهم • وفي نفس الليلة ١ صفر - ٩ كانون الثاني أسر الخليفة بقتل جعفر البرمكي وعلق جثته على جسور بغداد لقد صورت الروايات الشعبية نكبة البرامكة وكأنها مذبحة مأساوية ان الرشيد لم يقتل منهم الا جعفرا اما يحيى والفضل فقد أمر بحبسهما وقد توفي الاول سنة ١٩٠هـ - ٨٠٥م والثاني ١٩٣هـ - ٨٠٩م • وقد رثاهم العديد من شعراء زمانهم وقال عنهم الرقاشي :

على اللذات والدينا جميعا ودولة آل برمك السلام

وقد استوزر الرشيد بعدهم الفضل بن الربيع الذي بقي وزيرا للرشيد حتى اخر خلافته ولعل سقوط البرامكة بالسهولة هذه تدل على مدى قوة الخليفة العباسي ومدى المبالغة في الاراء السني تبرز دور الفرس في الحياة السياسية والادارية للدولة والخطأ الكبير الذي وقع به المؤرخون الذين ادعوا بان الدولة العباسية قسمة بين العرب والفرس

فقد كان العرب ولما يزالوا في عهد الرشيد اصحاب اليد الطولى في الامر .

الحرب الاهلية (النزاع بين الامين والمأمون) :

ان الصراع على السلطة بين الامين والمأمون الذي استمر حوالي خمس سنوات عجاف سالت خلالها دماء اهل العراق واهل خراسان وانتهى بمقتل الامين تعود في واقعها الى ذلك القرار السياسي الخاطيء الذي اتخذه الرشيد بتقسيمه الخلافة بين ابنائه الثلاثة والذي ينم عن قصر نظر في الادارة والتدبير .

فلقد كان الرشيد ابنه محمد العهد سنة ١٧٥هـ - وكان ابن عشر سنين فقط وولاه ولاية المغرب (٣٦) ، وبعد سبع سنوات أي في سنة ١٨٢هـ - ٧٩٨ م ولي الرشيد ابنه عبد الله ولاية العهد الثانية وحين حج سنة ١٨٦هـ - ٨٠٢ م كتب عهدا احتاط فيه لاحدهما على الآخر واشترطت هذه العهود على محمد الامين الوفاء لاختيه عبد الله المأمون وأرسلت نسخ منه الى العمال واثبتت في الدواوين . وجاء في نصها : « ان محمد الامين اذا فعل غير ما ورد فيها فحقه يسقط في الخلافة » (٣٧) .

ولا جدال فقد كانت عهود الكعبة في صالح المأمون ولم يكن للامين سلطة على اخيه في المشرق ولم يعط الحق في عزله او التدخل في ادارة الدويلات التي تحت نفوذه . بينما اعطى للمأمون اذا افضت الخلافة اليه الخيار في ابقاء اخيه الثالث المؤتمن او عزله .

وفي سنة ١٨٩هـ جدد الرشيد البيعة وأعطى للمأمون جميع ما في

العسكر من الاموال والسلاح ووجه الخليفة هرثمة بن اعين لكي يعيد البيعة على الامين ومن بحضرته في بغداد للمأمون والمؤمنين .

ان النصوص الواردة حول هذه العهود والمواثيق تتضمن تعهدات من قبل الطرفين ولعل هذه التعهدات كانت متداخلة وتعتمد على توفر حسن النية بين الامين والمأمون وهي صفة لم تكن متوفرة بين الطرفين مما ادى الى زيادة الشكوك ولعب الرجال الذين حولهما دورا في تعميق الخلاف لمصالح شخصية وسياسية . فكان الفضل بن الربيع وعلي ابن عيسى بن ماهان الى جانب الامين اما الفضل بن سهيل وطاهر بن الحسين فكانا الى جانب المأمون . ولا ننسى كذلك فان « جماعة من بني العباس قد مدوا اعناقهم الى الخلافة (٣٨) أي طمعوا فيها . ويقول المسعودي حين كتب الرشيد الشرطين وعلقهما على الكعبة « استعظم الناس أمر الشرط والايامن في الكعبة » (٣٩) ذلك لان هذا التدبير لم يكن له سابقة من قبل .

يقول الشرط على لسان محمد الامين : (٤٠)

« ان امير المؤمنين ولاني العهد وولى عبد الله . . بعدي وولاه خراسان وثغورها وكورها وحربها وخيرها وخراجها . . وبيوت اموالها . . في حياته وبعد مماته . واتعهد على تسليم ذلك له وتسليم ما اقطعه امير المؤمنين للمأمون من قطيعة او جعل له من عقدة او ضيعة وتسليم ما ابتاع المأمون لنفسه من الضياع والعقد او ما اعطاه ابوه من مال او حلى او كسوة او منزل او دواب » .

ويقول الشرط على لسان المأمون :

« امير المؤمنين ولاني بعد اخي وولاني في حياته ثغور خراسان

وبعد مماته على ان لا يعرض لي الامين في شيء مما اقطعني امير المؤمنين وما اعطاني وعلى ان لا يعرض لاحد من عمالي بسبب محاسبة ولا يدخل علي ولا عليهم مكروها وعلي انا ان انفذ كتبه واحسن مؤازرته وجهاد عدوه من ناحيتي فان احتاج محمد مني الى جند فعلي ان انفذ امره ولا اخالفه ولا اقصر في شيء كتب به » *

ولكن نص تعهد الامين يختلف في الطبري عنه في اليعقوبي في نقاط جوهرية ثلاث :

اولها تجديد المنطقة التي يحكمها المأمون من الري وهمدان حتى اقصى اقليم خراسان والثانية يذكر الطبري اسم القاسم وهو الابن الثالث للرشد الذي عين واليا للعهد بعد المأمون وأعطى حق اغفائه من هذا المنصب للمأمون وثالثها جملة تشير الى ان كل المسلمين مسؤولين امام الله تعالى بان يحافظوا على ما في هذا العهد من شروط في صالح المأمون .

لقد تعددت تفاسير المؤرخين المحدثين حول طبيعة هذا الصراع ودوافعه وحاول اكثرهم ان يفسروه تفسيراً عنصرياً باعتباره نزاعاً بين عرب وفرس اختل التوازن بينهما مرة اخرى معتمدين على اقوال الفضل ابن سهل للمأمون « انت بين اخوالك وشيعتك » الا ان المتمعن في الحرب يرى انها استمراراً للكفاح الاجتماعي الذي ميز الفترة السابقة وازداد تعقيداً بدخول نزاعات اقليمية (عراقية - خراسانية) وليست عنصرية وقد حاول الامين ان يستفيد كذلك من اهل الشام ولكنه فشل في مسعاه وكان عليه ان يتعظ بتجربة عبد الله بن علي العباسي واستفاد المأمون من اهل خراسان . ولكنه اعتمد كثيراً على الفضل بن سهل وطاهر بن

الحسين وكان عليه ان يتعظ بتجربة اجداده مع ابي مسلم الخراساني والخلال والبرامكة .

حين خرج الرشيد من بغداد لقمع حركة رافع بن الليث سنة ١٩٣هـ - ٨٠٨م كان يشكو من تدهور حالته الصحية ، وقد صحبه في هذه الرحلة ابنه المأمون والفضل بن سهل والفضل بن الربيع بينما بقي الامين في بغداد . وقد توفي الرشيد فعلا في هذه الرحلة في طوس تاركا وراءه مشكلة معقدة شغلته طويلا وتخبط في وضع الحلول لها الا وهي فكرة من سيخلفه في الحكم بعد وفاته ؟

ان الحل الذي استقر عليه الرشيد كان حلا غير عملي من المحتمل ان يؤدي الى انفجار الوضع السياسي في أية لحظة ويعتمد عليه في دقة تطبيقه كما قلنا سابقا توفر حسن النية وقوة شخصية الطرفين الامين والمأمون بحيث تبعدها عن تأثيرات رجال البلاط والحاشية وذوي المصالح . ولا بد ان نقر بعد ذلك كله ان الرشيد قد قسم الدولة فعلا الى شطرين لا يرتبط أحدهما بالآخر .

في ظل هذه الظروف استلم الامين الخلافة فأمر بمنح الجند عطاء يعادل مقداراً رواتبهم لستين . أما المأمون فقد عاد من سمرقند الى مرو واخذ البيعة لاختيه من ثم لنفسه ومنح الجند عطاء يعادل رواتبهم لسنة كاملة . كما أرسل هدايا عديدة لاختيه الامين بهذه المناسبة . على ان الامين امر ان يعود الجيش الذي كان مع الرشيد الى بغداد ولكن المأمون كان بحاجة اليهم لقتال رافع بن الليث خاصة وان الرشيد نفسه أوصى بان يبقى الجيش بعهد المأمون . وقد نفذ الفضل بن الربيع أوامر الامين وعاد بالجيش الى بغداد . من هنا بدأت العلاقات تتوتر ذلك

ان الامين كخليفة لابد وان يحاول ان يمد سلطته على كل الاقاليم بما فيها خراسان الواقعة ضمن سلطة المأمون . ومن الطبيعي كذلك ، وكما حدث من قبل ان يحاول الخليفة الامين خلع المأمون واعلان ولاية العهد لابنه موسى . كل هذه الامور كانت تخامر ذهن الامين ومما زاد في تعنته حاشيته التي كانت تشجعه على الاسراع في خلع المأمون . (٤١)

ففي سنة ١٩٣هـ عزل الامين اخاه القاسم عن الجزيرة وابقاه على قسرين والعواصم ثم استقدمه بعد سنة الى بغداد . وفي سنة ١٩٤هـ امر الامين بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم . وقد استوحش المأمون من ذلك فقطع البريد واسقط اسم الخليفة من الطراز . فارسل الامين وفدا الى خراسان يطلب من المأمون القدوم الى بغداد يعرفه فيه حاجته اليه واشاره والاستعانة برأيه ومشورته !! فحذره الفضل بن سهل من الذهاب الى بغداد فاعتذر المأمون وارسل رسالة الى الخليفة يقول فيها :

« اما بعد فان الامام الرشيد ولاني هذه الارض على حين طلب من عدوها ووهي من سدها وضعف من جنودها ومن أخللت بها او زلت عنها لم آمن انتفاضي الامور فيها وغلبة اعدائها عليها بما يصل ضرره الى امير المؤمنين حيث هو . فرأى امير المؤمنين ان لا ينقض ما ابرمه الامام الرشيد » (٤٢) .

وكل ذلك لم يمنع الامين من اعادة الكرة لتوكيد سلطته على الاقاليم التابعة لآخيه فطلب منه ان يتنازل له عن مناطق من خراسان تكون تابعة للسلطة المركزية وان يقبل بتعيين صاحب البريد من قبل الامين له اهميته الخاصة اذا علمنا ان مسؤولياته تتعدى البريد الى

مراقبة اعمال الولاية واحوال الرعية والكتابة حول ذلك الى الخليفة بشكل تقارير سرية مستمرة • ولكن الفضل بن سهل شجع المأمون على الرفض قائلاً بان « محمدا تجاوز الى طلب ما ليس له بحق » •

والظاهر ان المأمون قد أدرك أن هذا الرفض معناه القطيعة فسيطر على الاحوال في خراسان وشدّد الحراسة والامن وخاصة على الطرق الموصلة بين العراق وخراسان ويشير الطبري انه : (٤٣)

« حصر أهل خراسان من ان يستمالوا برغبة او تودع صدورهم رهبة او ان يحملوا على سؤال خلاف او مفارقة » •

وقد استمرت الرسائل تترى بين الاثنين الامين يريد تأكيد سلطته والثاني يتشبث بالعهود والمواثيق على الابقاء على ما في يده من سلطان وفشلت كافة محاولات الخليفة في كسب وجوه أهل خراسان اليه •

وكان لا بد للامين تجاه هذا الصمود ان يعزل المأمون من ولاية خراسان ومن ولاية العهد كذلك ولكنه وقبل ان يقدم على هذه الخطوة قرر ارسال العباس بن موسى بن عيسى اليه عله يقنعه في تقديم موسى ابن الامين على نفسه • ولكن الطلب رفض من قبل المأمون بتحريض من الفضل بن سهل ، كما وان المأمون هدد بان أي عمل يقدم عليه الخليفة في هذا الاتجاه سيعارض بقوة السلاح • ولكن الامين اعلن سنة ١٩٥هـ — ٨١٢م البيعة لابنه موسى بولاية العهد ولقبه (الناطق بالحق) • اما المأمون فكان قد اتخذ لقب (امام الهدى) دون ان يلجأ الى ادعاء الخلافة لنفسه • وقد أرسل الامين رسولا الى مكة لجلب الشروط التي كتبها الرشيد حول ولاية العهد وقد مزقها الامين وحرقها • وفي جمادي الثاني سنة ١٩٥هـ — اذار ٨١١م عهد الامين بقيادة الجيش لعلي بن عيسى بن

ماهان ووعدته بولاية الاقاليم الشرقية وارسله لقتال المأمون • ولم يضيع المأمون وقته بل اعلن نفسه خليفة في ١٠ شعبان ١٩٥ هـ - مارس ٨١١ م وبويع من قبل اعوانه وحاشيته في خراسان •

ولم يستطع ابن ماهان ان يقابل جيش طاهر بن الحسين، فقد اندحر وقتل في المعركة وارسل رأسه الى المأمون • وتقدم طاهر نحو العراق بسهولة حيث لم يجابه في طريقه عقبة كبيرة فقد استطاع طاهر بن الحسين واحمد بن الحسين والحسن بن هرثمة ان يحتلوا الاحواز وواسط والمدائن والكوفة والموصل والبصرة حيث اعلن اسم المأمون خليفة للمسلمين • كما اعلن امير مكة داوود بن عيسى بن موسى خلع الامين لنكته بعهد اخيه واحرقه الشرط المعلقة في الكعبة •

وقد حوَصر الامين في بغداد وتأزمت أوضاعه ثم أُسِر وقتل وأرسل طاهر برأسه الى المأمون مع شارات الخلافة • وقد أصبح طاهر ابن الحسين مسيطرا على الموقف والزعيم الذي لا ينازعه احد ولكن سرعان ما طغت شخصية الفضل بن سهل عليه وعلى بقية القادة امثال هرثمة بن اعين • فقد سيطر على الامور الادارية والعسكرية وأصبح يلقب (ذي الرئاستين) متمتعا بنفوذ لا حدود له • كما أصبح اخوه الحسن بن سهل واليا على العراق والاقاليم التابعة له اما القادة العسكريين فقد حرموا ، عن قصد ، من الامتيازات التي كانوا يستحقونها !

وكان المأمون قد خطب في أهل خراسان موضحا سياسته التي سسير عليها اذا ما قدر له أن ينتصر على اخيه فقال : (٤٤)

« ايها الناس اني جعلت لله على نفسي ان استرعاني اموركم ان

اطيعه فيكم ولا اسفك دما عمدا لا تحله ضرورة .. ولا اخذ لاحد مالا
ولا اثانا ولا نحلة تحرم علي . ولا احكم بهوي في غضبي ولا رضاي
الا ما كان في الله له . جعلت ذلك كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشدودا
اني افي رغبة في زيارته اياي في نعمتي ورهبة في مسألته اياي عن حقه
وخلقه .

فان غيرت او بدلت كنت للعبد مستأهلا وللنكال متعرضا ...»

واذا كان الامين قد اندحر وقتل بسبب تفكك انصاره وقلة اخلاص
القادة الذين حوله امثال العباس بن موسى بن عيسى الذي بايع المأمون
في السرحين زار خراسان والفضل بن الربيع الذي اختفى عن الانظار
سنة ١٩٦هـ في رجب حين كان الامين في اشد الحاجة اليه . وقد اثرت
رعاية المأمون القوية على معنويات القادة والانصار من جماعة الامين اذا
كان كل ذلك قد حدث فانه لم يحدث بسبب القابليات الخارقة للمأمون
ذلك اننا يجب ان نحذر من المبالغات والدعاية القوية التي بشها انصار المأمون
وهم الكتلة التي انتصرت في نهاية المطاف ولذلك نلاحظ الكثير من
الروايات التي اوردها الكتاب والرواة كانت الى جانب المأمون وهم حين
يذكرون يطلقون عليه لقب «المخلوع» . وليس من شك فان لكل من
الاخوين نقاط قوة ونقاط ضعف . فرغم ان الامين اخطأ في تقليد امرة
الجيش الى علي بن عيسى بن ماهان الوالي سيء السيرة فان وصية له
تدل على بعد نظر في امور السياسة . كما وان الامين كان لنا مع قواد
جيشه مثل الحسن بن علي بن عيسى الذي قام بحركة ضد الامين سنة
١٩٦هـ . وقبض على الخليفة وامه وسجنهما ولكن الامين افلت من
السجن بمساعدة (الحريية) فلم يعاقب الحسين بل عفا عنه !! وكان عند
الامين شهامة العربي وغيرته فقد كان بإمكانه ان يستعمل ولدي المأمون

وحرمه كوسيلة لجلب المأمون الى الطاعة ولكنّه رفض الفكرة أصلاً
قائلاً : « تدعوني الى قتل ولدي وسفك دماء اهل بيتي ؟ ان هذا للخدمة
والتخليط » لقد قتل الامين ولكن مشاكل وتناجج الفتنة الداخلية وتناجج
الحرب الاهلية بقيت دون حل تواجه الخليفة المأمون ووزيره الفضل بن
سهل *

عصر المأمون ١٩٨/٨١٤ - ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م :

حاول المأمون ان يستقر بمرور مركز خراسان معتمدا على مشورة
الفضل بن سهل وعلى العون والمساعدة من اهل خراسان ولكنه واجه
تحدياً عنيفاً من العراق المركز التقليدي للخلافة العباسية وخاصة من
« اهل بغداد » *

ولعل اهم ما يميز عصر المأمون عدا الازدهار العلمي والرقعي
الفكري والثقافي ظواهر سياسية ثلاث :

- اولاً : محاولته نقل مركز الدولة الى خراسان وعاصمتها مرو *
- ثانياً : التوفيق مع العلويين حين بايع الرضا بولاية العهد *
- ثالثاً : اتخاذه الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة واتباعه سياسة
(المحنة) *

ولعل هذه النقاط الثلاث تعكس صفاته كرئيس فقد كان مثقفاً
وفيه دهاء وسياسة وحسن تدبير ومن يتمعن في تعقيدات سياسته بعد
تبوئه الخلافة يدرك بانه كان سياسياً ذا نزعة واقعية لا تخدعه الاماني
ولا تجور عليه الخدائع « (٤٥) » *

فقد برر قتل اخيه الامين باصدار منشور نص على :

« اما بعد فان المخلوع وان كان قسيم امير المؤمنين في البيت والحرمة فقد فرق حكم الكتاب والسنة بنية وبينه في الولاية والحرمة لمفارقته عصمة الدين وخروجه من الامر الجامع للمسلمين » (٤٦) .

اما الظاهرة الاولى ... فقد ظل المأمون في مرو حوالي خمس سنوات وكان الفضل بن سهل يحسن له البقاء في مرو متظاهرا بعدم الاستقرار في العراق ولعله كان يرمي من وراء ذلك الى نقل مركز الدولة الى مرو . ولا شك فان الفضل هذا كان فارسيا مجوسيا لم يدخل الاسلام الا قبل وقت قصير ولذلك كان يحبذ التقاليد والثقافة الفارسية ويحاول ادخالها في مراسيم الدولة والبلاط العباسي .

ويظهر انه كان يحمل على كرسي مجنح حين يذهب لمقابلة الخليفة ويقول الجهشيارى « وانما ذهب ذو الرياستين في ذلك مذهب الاكاسرة ... » (٤٧) . كما وان الفضل بن سهل عين اخاه الحسن بن سهل واليا على العراق مكان طاهر بن الحسين ليكون بالامكان احكام السيطرة على الوضع في العراق والاطمئنان الى عدم وصول اخباره الى اذن الخليفة . واستطاع الفضل بن سهل كذلك ان يفرق بين المأمون وقائده هرثة بن اعين الذي أصر على مقابلة الخليفة ليعرفه على اسباب الاضطرابات في العراق والجزيرة ويطلب اليه الرجوع الى بغداد . وحين قابل هرثة الخليفة عاتبه قائلا « قدمت هذا المجوسي (يقصد الفضل) على اوليائك وانصارك » . ولكن الخليفة أمر بسجنه ثم دس اليه الفضل بن سهل من قتله .

ان بقاء المأمون في مرو اثار الكثير من الامتعاض بين العرب فعدا هرثة بن اعين وانصر بن شيت الذي سنأتي على ذكره بعد قليل - اظهر

نعيم بن حازم بن خزيمة التميمي وعبد الله بن مالك الخزاعي ويحيى بن عامر معارضتهم لسياسته الخراسانية • ويظهر ان المأمون فقد الثقة بالقبائل العربية امكانية الاستفادة منها حيث اجاب على سؤال لما اذا لا ينظر الى عرب الشام كنظرته الى عجم اهل خراسان فقال : -

« والله ما انزلت قيسا عن ظهور الخيل الا وانا ارى انه لم يبق في بيت مالي درهم واحد ، واما اليمين فوالله ما احببتها ولا احببني قط • واما قضاة فسادتها تنتظر السفيناني وخروجه فتكون من اشياعه ، واما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ولم يخرج اثنان الا خرج احدهما شاربا ••• » •

اما اهل بغداد فقد عارضوا سياسة هذه وتحدوه حين دعوا صالح بن المنصور ليبايعوه بالخلافة ولكنه رفض فبايعوا ابراهيم بن المهدي مسا دعا المأمون بعد اطلاقه علي ما يجري في العراق الى العودة الى بغداد سنة ٢٠٤هـ - ٨١٩م والتخلص اثناء سفرته الى بغداد التي استغرقت حوالي سنتين من علي الرضا والفضل بن سهل •

حركة نصر بن شيت العقيلي : (٤٨)

« انما هواي في بني العباس وانما حاربتهم محاربة على العرب لانهم يقدمون عليهم العجم » •

وتعتبر حركة نصر بن شيت العقيلي في الجزيرة من ردود الفعل الاقليمية تجاه سياسة المأمون الخراسانية • تصاير العقيلي فلقد كان العنصر الفعال في الثورة العباسية سنة ١٢٩هـ - ١٣٢هـ القبائل العربية الخراسانية الذين كونوا اغلبية الشيعة العباسية يساعدهم في ذلك الموالي

من الفرس على اننا يجب ان نفرق بين فترة الثورة وبين ما حدث في
اعقابها ، فرغم ان العرب قاموا بالثورة ورغم انهم احتفظوا باغلب المراكز
الادارية والسياسية والعسكرية بعد تأسيس الدولة العباسية الا أنه
ظهرت في هذه الدولة نزعة قوية تميل الى ادخال المظاهر الحضارية
الفارسية في الادارة وأصول السياسة وتقاليد المجتمع ، كما وبدأ الموالي
وخاصة من الفرس يقلدون مناصب ادارية وسياسية مهمة وعلى ذلك فان
ما حدث في العصر العباسي الاول أن العرب لم يفقدوا مراكزهم بل
شاركهم فيها غيرهم من المسلمين من غير العرب ، وهذا هو الفرق بين
الدولة الاموية والعباسية التي كانت فمهما للاسلام أوسع من الفهم
الاموي المحدود .

وهكذا فان التفسير العنصري الذي نادى به كان كلوتن وولهاوزن
حول الثورة العباسية والادعاء بان ثورة الفرس المظلومين ضد العرب
الحاكمين لا اساس فيه من الصحة ومثلما رفضنا التغير العنصري للثورة
العباسية فاننا نروض التفسير العنصري للحرب الاهلية بين الامين
والمأمون والتي حدثت بعد وفاة الخليفة هارون الرشيد سنة ١٩٣هـ
لأننا نلاحظ تواجد العرب والموالي في كلا الكتلتين المتنازعتين ، رغم
اعترافنا بطغيان العنصر الفارسي الى جانب المأمون وطغيان العنصر
العربي الى جانب الامين .

ان افضل تفسير للحرب الاهلية هي انها شكلت نزاعا اقليميا بين
العراق وخراسان حول ايهما سيكون اقليما مركزيا للدولة . ويتمتع
بامتيازاتها . الا ان بلاد الشام ظلت ناقمة على العباسيين منذ ان نقلوا
عاصمتهم من دمشق الى الهاشمية ثم بغداد في العراق .

وقد امل السوريون استعادة مجدهم السليب فقاموا بثورات متتابعة ضد العباسيين وتعلقوا باسطورة السفياي المنتظر الذي سينقذهم من الظلم العباسي كما وانهم ضد ثوارا من العباسيين مثل عبد الله بن علي للثورة ضد الحكم العباسي وكان الاجدر بعبد الله بن علي ان يدرك كانه لا يمكن الاعتماد على اهل الشام ذوي الميول الاموية لتحقيق مطامح سياسية عباسية •

وقد وقع الامين في نفس الخطأ الذي وقع فيه عبد الله بن علي حيث اقتصره عبد الملك بن صالح العباسي بجدوى الاعتماد على القبائل السورية ومحاولة الانتصار بهم في حربه ضد المأمون قائلا : « ان اهل الشام قوم ضرستهم الحروب وأوتهم الشدائد وحلمهم منقاد الي مسارع الى طاعتي » على ان اهل الشام تجنبوا الاصطدام باهل خراسان وخافوا قضية الصراع بعد ان اعطوا عهدا بمساعدة الامين •

وقال احدهم « انكم لتعرفون مواقع سيوف اهل خراسان في رقابكم • اعتزلوا الشر قبل أن يعظم وتخطوه قبل ان يضطرم شأنكم • داركم داركم • (الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري) وقال آخر « والله ما انا من قيسها ولا يمنها ولا كنت في أول هذا الامر لأشهر اخرة » فانهزم اهل الشام امام اهل خراسان • وفشلت محاولة الامين التمسك بالخلافة وكان من المنهزمين في هذه المعركة بين اهل الشام واهل خراسان نصر بن شيت العقيلي على انه عاد فثار على المأمون ثانية سنة ١٩٨هـ • ونصر من بني كعب بن ربيعة وكان اسلافه من رجال بني امية وكان مقيما في كيسوم بشمالي حلب • وقد اقنع عن بيععة المأمون وتغلب على كيسوم وما جاورها ومنع خراج منطقة ان يرسل الى بغداد ثم امتد نفوذه شمالي الشام والجزين حتى سمياط • وحين زاد عدد

اتباعه وقويت شوكته بما اجتمع اليه من الاعراب واهل الطمع عبر
الفرات الى جانبه الشرقي مستوليا على القرى والمدن ، ثم حاصر حران
وقد آتاه جماعة من الشيعة العلوية وأغروه بمبايعة خليفة من آل علي
فقد قيل له « ايها الامير قد وترت بني العباس وقتلت رجالهم ... فلو
بايعت خليفة كان اقوى لما انت فيه . قال من أي الناس ؟ قالوا ترسل
الى بعض من آل علي بن ابي طالب عليه السلام فتبايعه . قال : اولي بني
السوداوات ان كان يقول من وليته منهم انه خلقي وانه يرزقني . ثم
طلب اليه ان يبايع خليفة من بني امية فرفض هذا العرض ايضا قائلا :
« ان اولئك قد ادبر أمرهم والمدبر لا يقبل ابدا ... » .

وقد مرت ثلاث سنوات ونصر العقيلي متقلب على منطقته وقد كان
من الممكن ان يكون مصير العقيلي مصير غيره من الثوار المغامرين
ورؤساء القبائل الشامية الحاقدين على الدولة العباسية التي ذهبت
امتيازاتهم القديمة الذين احرزت ثوراتهم بسرعة لولا ان طاهر بن الحسين
الذي ارسله المأمون لمحاربته ، كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن
سهل لانتزاعه بلاد العراق منه « فقد ولي الفضل بن سهل اخاه الحسن
على بلاد العراق وكتب المأمون الى طاهر بن الحسين ان يمضي الى
الجزيرة لمحاربة نصر العقيلي وقد علق طاهر بن الحسين على ذلك قائلا :
« ما انصفني امير المؤمنين » ويظن من هذا القول ان طاهر بن الحسين
كان يرى بانه كان ينبغي توجيه قائدا آخر لمحاربة نصر وان منزلته
والدور الذي لعبه في أثناء النزاع بين الامين والمأمون تقضي بانصافه .
لذلك لم يكن طاهر بن الحسين جادا في محاربته لنصر . بل ان نصر
استطاع ان يهزم جيش طاهر الذي عاد الى الرقة بفلول جيشه وكان
قصارى امره الحفاظ على الامن وسلطة الدولة في النواحي التي
احتلها .

وبعد رجوع المأمون الى بغداد سنة ٢٠٣هـ اطلع عن كتب عيسى
الحالة في الجزيرة وتغلب نصر بن شيت العقيلي عليها فولى عبد الله بن
طاهر بن الحسين الجزيرة والشام ومصر والمغرب وأمره بمحاربة المتغلبين
بها فذهب عبد الله سنة ٢٠٦هـ . اما طاهر بن الحسين فذهب الى
خراسان ولكنه لم ينس ان يكتب الى ابنه كتابا يحوي حكما ووصايا
سياسية وادارية واخلاقية . وقد شاع هذا الكتاب بين الناس واعجب به
الخليفة المأمون كذلك حتى قيل بانه امر بان يكتب به الى جميع
العمال .

وقد حاصر عبدالله بن طاهر نصرا وضيق عليه فأوفد اليه المأمون رجلا
من اهل الجزيرة هو جعفر بن مجيد ليعطي نصر الامان . وقد جاء في
الامان :

« اما بعد فان الاعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر
والاحتجاج بالعدل ودعوة الله الموصول بها العز ولا يزال المعذر بالحق
والمحتج بالعدل من استفتح ابواب التأية واستدعاء اسباب التمكين حتى
يفتح الله وهو خير الفاتحين ويمكن خير المسكنين . ولست تعدو ان
تكون فيما لهجت به احد ثلاثة : طالب دين او متلبس دنيا او متهورا
يطلب الغلبة ظلما . فان كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لامير
المؤمنين يغتنم قبوله ان كان حقا فلعمري ماهمية الكبرى ولا غاية
القصوى الا الميل مع الحق حيث قال والزوال مع العدل حيث زال وان
كنت للدنيا تقصد فاعلم امير المؤمنين غايتك فيها ولا امر الذي تستحقها
فاذا استحققتها وامكنه ذلك فعلمه بك فلعمري ما يستجيز منع خلق
ما يستحقه وان عظم . وان كنت متهورا فسيكفي الله امير المؤمنين
مؤنتك ويعجل ذلك كما عجل كفايته موت قوم سلكوا مثل طريقك كانوا

أقوى يدا واكثف جندا واكثر جمعا وعددا ونصر منك فيما اصارهم اليه
في مصارع الخاسرين وانزل بهم من جوانح الظالمين . وامير المؤمنين
يختتم كتابه بشهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمد
عبده ورسوله (ص) وضمانة لك في دينه وذمته الصفح عن سوائف
جرائمك ومتقدمات جرائمك وانزالك ما تستأهل من منازل العز والرفاه
ان أثبت ورجعت ان شاء الله والسلام » .

وقد قبل نصر بن شيت امان المأمون بشرط الا يطاء بساط المأمون
وقد رفض هذا الشرط . وعلق على ذلك قائلا : « أترأه اعظم جرما عندي
من الفضل بن الربيع ومن عيسى بن ابي خالد ؟ والمعروف ان الفضل
اخذ قواد المأمون وجنوده وسلاحه وجبيح ما اوصى به اليه الرشيد
وذهب به الى الامين وتركه في مرو وحيدا وأسند عليه اخيه فكان امره
ما كان حيث عفى عنه المأمون .

وكتب المأمون الى نصر بن شيت يهدده بالقضاء عليه وعلى اتباعه
ومن انطوى تحته من حزاب الناس . وحين سمع نصر بن شيت علق على
ذلك قائلا : « ويلي هو لم يقو على اربعمائة ضفدع - يقصد الزط -
تحت جناحه يقوى على حلبة العرب » والظاهر ان الخليفة المأمون كان
جادا في امانه لنصر الا ان نصر ذلك الشيخ العربي الحذر اشترط عدم
مقابلة الخليفة وحين رفض الخليفة امتنع نصر عن التسليم خوفا على
نفسه وعلى قبيلته من اجراءات العباسيين وحفاظا على كرامته حيث
اعتبر اصرار المأمون تحديا له وعلى ملاحقة عبد الله بن طاهر له وجده
في قتاله خاصة بعد ان عنفه الخليفة وحثه على الاشتداد في القتال
اجبرت نصر على الاستسلام والقدوم الى بغداد بعد ان استمرت الحرب
خمس سنوات . وفي رواية غير متواترة ان نصرا لما علم عزم المأمون على

القدوم الى بغداد أملى على كاتبه خطابا للبطريق مانويل البيزنطي عارضا
التحالف مع الروم فلما علم الامبراطور ميشيل بذلك بعث رسلا
فوصلوا الى كيسوم فوجدوه قد خرج الى قرية سروج . ولكن اتباع
نصر انكروا عليه اتصاله برسل الروم مما اضطره الى ارسال من قتل
هؤلاء الرسل . ويبدو ان الملاحم الرومية حفظت ذكرى ثورة بن نصر
ابن شيت وتسميه المصادر الرومية فيوفويوس . ويشير ميشيل السوري ان
نصرا كان يعامل المسيحيين برفق ويقول : « ليس لي عندكم الا الجزية
وكل فرد بعد ذلك حر في اختيار عقيدته » وخرج نصر بالامان سنة
٢٠٩هـ - ٨٢٥م واستسلمت كيسوم بعد مقاومة خمس سنوات . وسار
عبد الله طاهر ليستقري الشام بلدا بلدا لا يسر ببلد الا أخذ من رؤساء
القبائل والعشائر والصعاليك والزواquil وهدم الحصون وحيطان المدن
وبسط الامان للاسود والايض والاحمر وضمنهم جميعا . ونظر في
مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج فلم يبق مخالف ولا ضالع الا
خرج من قلعته وحصنه .

وقد دخل نصر العقيلي مع جمهرة من اتباعه بغداد في موكب حافل
في صفر سنة ٢١٠هـ وانزل مدينة (ابي جعفر) ووكل به من يحفظه .
على ان بعض العباسيين والحاquدين على المأمون لم يرضهم الصلاح وانتهاء
الفرع والقضاء على الخلاف بين السلطة واثار قوى فقطعوا جسر
الزوارق الذي يمتد على عرض نهر دجلة عند اقتراب موكب نصر وقد
قبض عليهم وكان المأمون قاسيا في عقابه لهم .

وبدخول نصر العقيلي بغداد ووقوعه تحت سلطة الخليفة انقطعت
اخباره وتوقفت فعالياته السياسية ويعترف الطبري بانه لم يسمع عنه شيئا بعد
ذلك فيقول « ولم اقف على خبر له بعد » ومن هذا الاستعراض

الشخصي لنصر العقيلي ولاخباره نقول بان الرواة العرب المولعين بتصوير امثال هذه المساجلات بين الخلفاء والثوار واضفاء صبغة أسطورية فيها الكثير من المبالغة قد أبدعوا في تصوير العلاقة بين الخليفة ونصر العقيلي على اننا اذا طرحنا جانبا هذا الترويق بدا لنا بجلاء أن الدولة العباسية لم تعد تعيش في دور قوتها في ايام المنصور بل ان الحرب الاهلية قد انهكتها وان الخليفة كان يحاول بشتى وسائل الانغراء والتشويق ان ينهي ثورة نصر العقيلي التي طالت ، اما نصر فيظهر بمظهر الرئيس القبلي الفخور المتعالي والثائر المغامر الذين زخرت بهم بلاد الشام في العصر العباسي الاول من امثال حبيب بن مرة المري وابي الورد مجزاة بن كوثر الطلابي وابو الهيثام عامر بن عسارة وغيرهم . فلقد خسرت بلاد الشام وقبائلها خسارة كبيرة بزوال الدولة الاموية حيث ذهبت امتيازاتها والاموال التي كانت تدر عليها . ولم يكن هدف نصر العقيلي حين ثار اسقاط الدولة العباسية بل جلب انتباهها الى اهمية القبائل الشامية وخطورتها وبالتالي نيل حظوة الخليفة وقد ادرك الخليفة المأمون ذلك ولهذا فهو يسبغ عليه الوعود والامتيازات اذا رجع الى الطاعة واستسلم .

لقد كان نصر ثائرا من اجل القبائل الشامية التي فقدت الامتيازات التي اغدقت عليها في العصر الاموي . اما ادعائه بانه ثار من اجل الدين فقدوا مراكزهم للعجم فقول مبالغ فيه ذلك لان الدولة العباسية في عصرها الاول لم تقدم العجم على العرب الذين احتفظوا بمراكز القيادة في السياسة والادارة والجيش ، ولكنها اشركت الموالي في هذه الوظائف والامتيازات . على ان الدولة العباسية التي قامت على اكتاف العرب في اهل خراسان والعراق وخاصة القبائل اليمانية والرعية منهم كانت تنظر نظرة حذر وشك الى القبائل الشامية الموالية للامويين فلم تقرب شيوخهم

ولم تصطف فيهم وهذا بعينه يفسر لنا سبب ثورة نصر بن شيبان العقبلي وأمثاله من شيوخ القبائل السورية الذين كانوا يمثلون الفروسية العربية من الطراز الكلاسيكي بكل ما في ذلك من معان .

انفصال طاهر بن الحسين بخراسان :

بعد ان قتل المأمون الفضل بن سهل برزت شخصية جديدة هي شخصية طاهر بن الحسين الذي أصبح صاحب الشرطة ببغداد سنة ٢٠٤ هـ ثم أصبح واليا على خراسان والجلال سنة ٢٠٥ هـ وكان طاهر ذا طموح كبير وكان يرغب ان يتولى خراسان وقد ادرك الخليفة ذلك وكان يرى انه سينفصل عن الدولة في حالة تثبيت مركزه هناك . وهذا ما حدث فعلا سنة ٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م حين قطع طاهر الخطبة باسم الخليفة . وقد استطاع الخليفة ان يقتل طاهر بطريقة او باخرى ولكنه لم ينجح في ازالة آل طاهر من خراسان حيث خلف طلحة ابا طاهر ثم جاء بعده اخوه عبد الله بن طاهر فترسخت الإمارة الطاهرية في خراسان (٤٩) .

اضطرابات القبائل العربية في الاقليم المصري :

استفحلت العصية القبلية في مصر القيسية التي ناصرت الاميين واليمانية التي انحازت الى المأمون سنة ٢١٤ هـ - ٨٢٩ م ولكن الانتفاضة تطورت الى حركة عارمة سنة ٢١٦ هـ حين « انتفضت اسفل الارض عربها وقبظها واخرجوا العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة » مما جعل الخليفة يخرج بنفسه الى مناطق الحركة وجعل قيادة الجيش الى الافشين . ويظهر ان اساس التمرد يعود الى شدة العمال في جباية الخراج من المزارعين من عرب وقبط . ولذلك فقد عزل المأمون عامل الخراج كما جلب معه بعض زعماء الحركة الى العراق ومع ذلك فقد ظل المأمون يعتقد بان

الحركة كان يجب ألا تتطور بالشكل الذي تطورت اليه حيث قال مشيراً الى اشتراك القبط في الحركة :

« هؤلاء كفار لهم ذمة اذا ظلموا تظلموا الى الامام وليس لهم ان يستنصروا باسيافهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم » .

عوامل التفكك ترجح وعوامل التماسك تتضاءل :

بدأت عوامل التفكك بالعمل الفعال منذ عهد الرشيد حيث نشأت امارة الاوارسة في المغرب وامارة الاغالبة بتونس (افريقيا) وفي عهد المأمون وبسبب ظروف الحرب الاهلية وفقدان قوة السلطة المركزية انفصلت الامارة الطاهرية بخراسان . وقد فعل محمد بن ابراهيم الزياتي باليمن ما فعله طاهر بن الحسين بخراسان وبني مدينة جديدة له هي زبيدة سنة ٨٢٠م سنة ٢٠٤ ثم توارث الامارة اولاده واعوانه من بعده .

ان السلطة المركزية في بغداد على عهد المأمون لم تقف مكتوفة الايدي تجاه عوامل التفكك هذه بل كانت تحاول جاهدة ان ترجع عوامل التماسك فقد رأينا كيف تخلص المأمون من طاهر بن الحسين، كما وانا نعتقد بان ما أمر به سنة ٢١٢ هـ من لعن معاوية على منابر بغداد والامصار الاخرى كان بمثابة اعداد للرأي العام موجه ضد الامويين في الاندلس في عصر عبد الرحمن الاوسط وربما كان ينوي ان يشن حملة عسكرية على معقلهم في الاندلس كما حاول ذلك قبله المهدي والمنصور .

سياسة المأمون الاعتزالية :

كان العباسيون متقلبين في سياستهم الدينية في عهد خلفائهم الاوائل وبعد تجارب عديدة مع اتجاهات دينية مختلفة مال العباسيون

الى اهل الحديث وكونوا علاقات شخصية قوية مع الكثير منهم وذلك
لجعلهم سنداً للخلافة .

وحين جاء المأمون الى الخلافة قرب الفلاسفة والمتكلمين وكان فيه
ميل الى العلم والثقافة حيث جمع في (بيت الحكمة) امهات الكتب
العربية وغير العربية مع مئات العلماء والمفكرين والمترجمين . وجمع بلاط
فلاسفة وعلماء تدارسوا القرآن والحديث والفقه والمسائل المتفرعة منها
ولكن المأمون كان يميل الى آراء المعتزلة ويعجب بأدلتهم العقلية والنقلية
ولذلك أصبح احمد بن ابي داود المعتزلي ذا نفوذ كبير في دولة
المأمون .

وتعرف المعتزلة بانها أول مدرسة كلامية في الاسلام وانها استطاعت
ان تثبت الاصول العقلية للعقيدة الإسلامية (٥٠) . ولا شك انها لعبت
منذ نشأتها على يد واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد في نهاية القرن
الاول الهجري دورا كبيرا في تاريخ الفكر الاسلامي وهناك نظريات
عديدة في أصل المعتزلة . ولكن الذي يهمنا في هذا المجال النظرية
السياسية لأصل المعتزلة التي قال بها المستشرق نلينو والمستشرق بنبرك
واكدها الاستاذ احمد امين وغيره (٥١) وتشير هذه النظرية الى ان
الاعتزال بدأ سياسيا في حرب صفين ومعركة الجمل حين ظهر جماعة
أطلق عليهم المعتزلة لامتناعهم عن مناصرة الفريقين المتنازعين ووقوفهم على
الحياد وان اتباع واصل بن عطاء هم استمرارا فكريا لموقف عملي سابق
له وليس من شك فهناك نقاط قوة ونقاط ضعف حول هذه الفرضية وان
مؤيديها لم يتوصلوا الى استنتاجات متشابهة حولها . وللمعتزلة أصول
مشتركة تميزهم عن غيرهم من الفرق « فليس منهم احد يستحق اسم
الاعتزال حتى يجمع القول بالاصول الخمسة : التوحيد والعدل والوعد

والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٥٢) .

وتتشعب من هذه الاصول مسألة مهمة في تاريخ الاعتزال وهي مسألة خلق القرآن التي اصطلح عليها اسم « المحنة » . فكانت المعتزلة تقول بان القرآن مخلوق انطلاقا من مبدأ نفي صفات المعاني عن الله تعالى ومنها الكلام . فالقرآن مخلوق لانه مجموعة من الحروف والاصوات يخلقها الله تعالى ولا يمكن اعتباره قديم وغير مخلوق لان ذلك يؤدي الى مشاركة القرآن بصفة وهي من صفات الله وهي القدم الازلية . فالله وحده لا شريك له واذا كان القرآن غير مخلوق شارك الله في صفة من صفاته عز وجل .

ولكن اهل الحديث عارضوا المعتزلة وتصلبوا في موقفهم ، وتصلب المعتزلة كذلك في موقفهم خاصة وان المأمون اتخذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة . والواضح ان المعتزلة الذين نادوا بحرية الرأي والادارة وسيادة العقل تعسفوا حين وصلوا الى كرسي الحكم واضطهدوا مخالفيهم في الرأي الذين قالوا بان القرآن غير مخلوق فكانت المحنة التي قاسى منها احمد بن حنبل واتباعه الامرين . ومما لا شك فيه ان المأمون نفسه أيد سياسة المعتزلة هذه وقد وضع موقفه في كتابين ارسلهما الى اسحق بن ابراهيم وقال فيهما يرد على وجهة نظر اهل الحديث (٥٣) :

« وتزين في عقولهم الا يكون مخلوقا فتعرضوا بذلك لرفع خلق الله الذي بان به عن خلقه وتفرّد جلّالته بابتداع الاشياء كلها بحكمته وانشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ اولها ولا يدرك مداها وكان كل شيء دونه خلقا من خلقه وحدثا هو المحدث له وان كان القرآن ناطقا به ودالا عليه وقاطعا للاختلاف فيه وضاهوا به قول النصارى في

ادعائهم في عيسى بن مريم انه ليس بمخلوق ... ثم هم ان الذين جادلوا بالباطل فدعوا الى قولهم ونسبوا انفسهم الى السنة وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتههم ثم اظهروا مع ذلك انهم اهل الحق والدين والجماعة وان من سواهم اهل الباطل والكفر والزندقة فاستطالوا بذلك على الناس وغرروا به الجهال ..

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم والجرم في أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ... » •

ان الاضطهاد الذي عانى منه اهل الحديث وخاصة بعد عهد المأمون حيث توفي بعضهم من الضرب والسجن في عصري المعتصم والواثق زاد من شعبيتهم بين جماهير الناس وكان للمحنة ردود فعل مساوية في العنف في عهد المتوكل حيث سيطر اهل الحديث فسادت المجتمع الاسلامي موجة من التعنت والتزمت ...

المأمون وولاية العهد :

في رمضان سنة ٢٠١ هـ - اذار ٨١٧م عين المأمون علي الرضا بن موسى الكاظم وليا للعهد وقد استدعى الامام الرضا من المدينة الى مرو حيث كان يقيم الخليفة وقد ضرب اسمه على النقود كما زوجه من ابنته (٥٤) •

ان هذه الاجراءات لاقت معارضة شديدة من اهل بغداد حيث اعلنوا عصيانهم على الخليفة وساندتهم في ذلك عدد من العباسيين وقد ارادوا اول الامر البيعة للمنصور بن المهدي ولكنه رفض فبايعوا ابراهيم

ابن المهدي خليفة واسحق بن موسى بن المهدي وليا للعهد • وقد اتخذ
ابراهيم لقب « المبارك » •

ولا نريد هنا ان ندخل في تفاصيل البيعة للرضا وانعكاساتها فلذلك
مكان آخر ولكننا نقول بان ابراهيم بن المهدي لم يستطع مواصلة الحكم
في بغداد بل اعيد الاعتراف بالمأمون خليفة للمسلمين بعد أقل من سنتين
سنة ٨١٩ م •

ولم يعالج المأمون مشكلة ولاية العهد طيلة مدة حكمه ولكنه بعد
أن وقع مريضاً في مرضه الاخير كتب الى ابنه العباس والى عبد الله بن
ظاهر بن الحسين والاشراف والولاة ان خليفة من بعده هو اخوه
ابو اسحق (المعتصم) • ويظهر ان بعض القادة في الجيش كانوا منقادين
للببيعة للعباس (٥٥) ولكن المعتصم استطاع ان يسيطر على الموقف كما
وان الذي حسم الامور وهذا الاوضاع ان العباس نفسه اسرع في
البيعة لعمه المعتصم وكان المأمون قد أوصى اخاه المعتصم وصية مهمة
أودع فيها خلاصة تجاربه ومما جاء فيها : (٥٦)

« واعمل في الخلافة اذا طوقها الله عمل المريد لله الخائف من
عذابه وعقابه ولا تغتر بالله ومهله فكان قد نزل بك الموت • ولا تغفل
أمر الرعية ، الرعية الرعية العوام العوام فان الملك بهم وبتعهدك
المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين ... وعجل
الرحلة عني والقُدوم الى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين
امنت بساحتهم فلا تغفل عنهم في كل وقت » •

والمعروف ان المأمون توفي وهو يجاهد البيزنطيين قرب طرسوس
في الجبهة الشمالية •

المعتصم والاتراك :

كانت شخصية المعتصم على نقيض شخصية المأمون فبقدر ما كان المأمون سياسيا مرنا كان المعتصم رجل حرب صلبا شديدا ، وبقدر ما كان المأمون مثقفا كان المعتصم عديم الاهتمام بالكتب والمعارف بل انه وصف بكونه « أميا لا يكتب » وبقدر ما كان المأمون عقائديا ملتزما كان المعتصم عسكريا محترفا ولذلك فان استمرار تأييده لمذهب المعتزلة لم يكن في أغلب الظن عن عقيدة راسخة بل كان تقليدا أعمى لسياسة سلفه المأمون واتقيادا حرفيا لوصيته له .

ولذلك فنحن لا نرى في سياسة المعتصم وادارته ما ينم عن تبرير حازم او سياسة بارعة ولعل اظهر ما تميز عصره هو اكثاره من استخدام الاتراك وايثاره لهم وتفضيلهم على العرب وسائر العناصر الاخرى .

وفي تفسيرهم للسبب الذي دفع المعتصم على الاستعانة بالاتراك يسير المؤرخون المحدثون ، كالعادة على التفسير العنصري التقليدي الذي اقتبسوه من مستشرقى القرن التاسع عشر . فالدوري يشير الى ان « العلاقة ساءت بين الخراسانيين (وهم في رأيه عجم) وبين العباسيين بعد انتقال المأمون من مرو وبعد نكبة آل سهل وظهرت استحالة التوفيق بين آمال الخراسانيين وبين مصالح العباسيين فالتجأ المعتصم الى عنصر جديد ... » (٥٧) أي انه يرى ان اعتماد المعتصم على الاتراك يعود بصورة رئيسية الى اختلال التوازن بين الفرس والعرب وخاصة في الجيش العباسي على اننا لا نقر بان طبيعة الحرب الاهلية ونتائجها كانت ذات مغاز عنصرية كما اوردنا ذلك في حينه . كما وان البحث في الاصول التاريخية لدخول الترك في البلاط العباسي والادارة والجيش

يظهر لنا بوضوح أن العملية ليست من بناء أفكار المعتصم بل في الواقع بدأت منذ عهد الخليفة المؤسس ابي جعفر المنصور . (٥٨)

ولما كنا سنبحث هذا الموضوع بتفصيل اكثر في مكان آخر فلا بد لنا هنا ان نوضح مغزى التنظيم العسكري الجديد الذي اقدم عليه المعتصم .

اننا يجب ان ندرك ان اصطلاح « الموالي » كان اصطلاحا مرنا ذو مدلولات واسعة ولم يكن يعني فقط المسلمين من غير العرب ولم يكن يقتصر على الفرس كما يحلو للبعض تفسيره واستنباط نتائج خاطئة منه، ومن جملة مدلولات هذا الاصطلاح هو ان المولى الذي يرتبط بنوع من الولاء او الرابطة بقبيلة ما او بسيد ما قد يكون عبدا او مملوكا بغض النظر عن عنصره ارتفع الى مرتبة مولى . وقد كان هذا النوع من الموالي متواجدا من العصر الاموي وكذلك في العصر العباسي . فقد سأل الخليفة المنصور احد انصار الامويين عن سبب سقوط الامويين في رأيه ؟ فأجاب من تضييع الاخيار ، ثم سأله اين وجد الامويين الوفاء ؟ فأجاب في مواليهم (٥٩) وقد استخدم المنصور كما نعلم مواليه في البريد ثم ان الخليفة المهدي اعتمد بدرجة اكبر على مواليه وقدمهم على غيرهم في الخدمات بسبب اخلاصهم واندفاعهم في تنفيذ أية خدمة يريدها منهم الخليفة .

واذا ما تقدمنا اكثر في العصر العباسي الاول نلاحظ اصطلاحات جديدة تدل على ازدياد اعتماد الخلفاء على مواليهم وصنعائهم فترد في عصر الرشيد مثلا كلمة الخادم كلقب للعديد من الافراد الذين اعتمد عليهم هذا الخليفة في اموره المهمة . فقد كان هرثمة بن اعين

من موالى الخليفة وكان مسرور الكبير من اقرب المقربين اليه . كما نلاحظ ان العديد من القادة العسكريين في جيش الخليفة هارون الرشيد في حروبه مع البيزنطيين كانوا من العبيد والخدم التابعين للبلاط العباسي ولشخص الخليفة بالذات وتشير الروايات التاريخية الى ان الامين اغرق بلاطه بالعبيد والخدم وهذا ما فعله المأمون كذلك خاصة اذا علمنا ان الجيش الخراساني الذي قاده طاهر بن الحسين لفتح بغداد كان يتكون اضافة الى العرب والفرس من البخارية والخوارزمية والأتراك مما يدل على ان سكان شرقي خراسان وبلاد ما وراء النهر كانوا ممثلين بصورة واضحة فيه .

وعلى ذلك فان ظهور هذه الكتلة من الموالى المرتبطين بالخليفة من الخدم والعبيد في العاصمة وفي بلاط العباسيين وما نالوه من نفوذ متزايد يعتبر من العوامل الممهدة الرئيسية للتدابير العسكرية التي اقدم عليها الخليفة المعتصم . ومما لا شك فيه فان اهم ما يميز هؤلاء الأتراك الذين اعتمد عليهم المعتصم انهم غرباء لا تربطهم صلة بقبيلة او شخص غير الخليفة العباسي مما يجعل اخلاصهم واعتمادهم وولائهم له وحده ومما يجعلهم بعيدين عن التكتلات والولاءات والعصبيات التي يرتبط بها غيرهم من الكتل الاخرى وبسعى آخر فان المعتصم ادرك بان الاعتماد على الترك أفضل لدولته وأضمن لخلافته لان ولاءهم غير مشئت وخالص له بينما العرب تنقسمها العصبيات القبلية والفرس تراودهم الامال الاقليمية والدينية القديمة (المجوسية) . هذا من جهة ومن جهة اخرى فقد استقرت العناصر المختلفة في الخلافة العباسية وتحضرت ولم تعد قبائل العراق وخراسان تتسابق للحرب والقتال كما كانت من قبل، ذلك ان حياة الحضارة والرفاهية ارغمتهم على تغيير اسلوب حياتهم ، فمالوا الى

الزراعة والتجارة والمهن وبدأ عندهم الولع بالثقافة اما الاتراك فكانوا لا يزالون بدوا متقلبين ويسميهـم الجاحظ « بدو العجم » (٦٠) .

ولا يفوتنا ان نذكر ان التقارب الفكري بين طبيعة المعتصم وثقافته وبين طبيعة هؤلاء الاتراك وثقافتهم فلم يكن لديهم ميل نحو امور الحضارة وتقليدها قدر ميلهم الى امور الحرب والسلاح وهذا ما كان يفضلـه المعتصم الذي نشأ مولعا بأمر الحرب والفروسية .

وأخيرا وليس آخرا فان عملية دخول الممالك الاتراك الى المؤسسة العسكرية والمؤسسة الادارية العباسية بصورة فعالة في عهد المعتصم يرتبط كذلك بالتدابير النشطة التي اتخذها المأمون وبعده المعتصم لاحكام السيطرة على بلاد ما وراء النهر والاقاليم المجاورة لها في ترانسكونيا والعمل على نشر الاسلام فيها بهمة ونشاط . مما سهل عليه عملية هجرة او استقدام الاتراك الى العراق في عصر المعتصم والعهود التي تليه . ولقد كان عدد الاتراك يتزايد سنة بعد اخرى حيث يذكر اليعقوبي (٦١) بان المعتصم الح في طلب الاتراك من مواطنهم وكذلك اشترى من كان ببغداد من رقيق الناس !! ويشير علي بن الجهم الى ان الخليفة جمع ما لا يقل عن ٧٠ ألفا من الاتراك حين يقول : (٦٢)

امامي من له سبعين الفا من الاتراك مسرعة السهام

بناء سامراء :

بعد بحث طويل تعرف المعتصم على موضع دير على دجلة شالي بغداد فبنى مدينة (سر من رأى) سنة ٢٢٠ هـ - ٨٣٥م وقد ذكر مؤرخونا الرواد اسبابا عديدة لانتقال الخليفة بجيشه ودواوينه الى

سامراء لعل اهمها الفارق الحضاري (٦٣) والاجتماعي بين سكان بغداد وبين الترك الذين كما ذكرنا كانوا بدوا جفاة يركبون الدواب ويسيروا في بغداد دون نظام . هذا اضافة الى تكرار التصادم بينهم وبين الناس لسوء تصرفهم (٦٤) وكذلك لضيق المدينة بهم بسبب كثرتهم وتزايد عددهم (٦٥) .

ومهما عدد المؤرخون من اسباب فاننا نؤكد على سبب واحد نعتبره العامل المهم الذي جعل أمر الانتقال من بغداد الى سامراء امرا حتميا الا وهو التصادم بين كتلتين مسلحتين في العاصمة الاولى (اهل بغداد) والثانية الترك . فاذا كان البلاط العباسي والمؤسسة العسكرية قد تقبلت الاثراك كعنصر جديد فان العاصمة نفسها لم تهضمهم ابدا بسبب الفارق الكبير بين الكتلة القديمة والكتلة الجديدة في الطباع والثقافة والاتجاهات والميول وهذا الامر جعل المعتصم يدرك اكثر فاكثر بان البحث عن مركز عسكري واداري جديد لا بد منه اذا أريد للسلطة المركزية ان تثبت وتستقر .

ولكن من هم هؤلاء الذين نصطلح عليهم (اهل بغداد) ؟ ان دورهم في الواقع يعود الى ايام الحرب الاهلية بين الامين والمأمون (٦٦) فهم الذين كونوا العنصر الرئيسي في جيش الامين وهم الذين أبدوا بسالة كبيرة في مقاومة جيش طاهر بن الحسين الذي حاصر بغداد وتذكرهم مصادرنا حين تتكلم عن المعارك العديدة في ضواحي بغداد وفي داخلها وتسميهم احيانا (جند اهل بغداد) ولذلك فهم ليسوا من الرعايا او العامة ، كما يحلو لبعض المؤرخين تسميتهم وانما وحدة عسكرية متميزة تتكون مما لا يقل عن ٥٠ الفا من الفرسان والمشاة مسجلين في (دفاتر الجند) . وتظهر رواية اخرى ولاءهم للامين وندمهم على مقتله .

ولعل أهم من ذلك ان نلاحظ بان جند اهل بغداد كان يعتمد في تكوينه على كتلة مهمة ظهرت ايضا اثناء الحرب الاهلية وهي (الابناء) (٦٧) •

والابناء ينعنون بنعوت كثيرة في المصادر المتوفرة لدينا فاحيانا يسمون ابناء الدولة او ابناء الدعوة او ابناء الشيعة (العباسية) • ولكن الشائع في تسميتهم هو الابناء ومفرده الابناوي او البنوي •

والمحتمل جدا ان هؤلاء الابناء هم احفاد اهل خراسان شيعة العباسيين واصحاب الدعوة العباسية والذين كانوا في غالبيتهم من القبائل العربية الخراسانية ومن الموالي الايرانيين • على انهم حين استقروا في العراق وفي بغداد بالذات تأثروا ببيئتهم العربية الجديدة هذه فمروا بعملية (تعريب جديدة) صقلتهم وظهرت عنصرتهم العربي الذي رسا أثرت عليه البيئة الخراسانية • كما أثرت البيئة العراقية الجديدة على الايرانيين منهم تأثيرا واضحا فقد غدا ارتباطهم السياسي بشخص الخليفة العباسي واصبح ولاءهم لسياسة السلطة العباسية المركزية • ويظهر أن غالبية قادتهم من العرب من امثال عبد الله بن حميد بن قحطبة الطائي •

وفي رسالة للجاحظ يتكلم البنوي عن نفسه ودوره في الدفاع عن العباسيين فيقول : (٦٨)

« انا اصلي خراسان وهي مخرج الدولة ومطلع الدعوة • • وفرعي بغداد وهي مستقر الخلافة • وفيها بقية رجال الدعوة وابناء الشيعة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة •

ولنا أبعد في أنفسنا ما لا ينكر من الصبر تحت ظلال السيوف
القصار والرماح الطوال •• ونحن اهل الثبات عند الجولة والمعرفة عند
الحيرة •• ولنا القتال عند ابواب الخنادق ورؤوس القناطر ونحن الموت
الاحمر عند ابواب النقب » •

ان هؤلاء الابناء المسيطرين على بغداد والفخوريين بأمجادهم
العسكرية والسياسية باعتبارهم احفاد الخراسانية شيعة العباسيين
وعبادهم هم الذين اجبروا المعتصم على الانتقال الى سامراء بجند •
فالابناء منذ حرب الامين والمأمون كانوا يستهزئون بالعجم جند طاهر
بن الحسين فقد قال عبد الرحمن بن جبلة الانباري عن طاهر بن الحسين
وجيشه قبل احدى المعارك في ضواحي بغداد :

« يا معشر الابناء يا ابناء الملوك والفساف السيوف انهم العجم
وليسوا باصحاب مطاولة ولاصبر فاصبروا لهم فداكم ابي وامي » (٦٩) •

ان نفس النظرة التي نظر بها اهل بغداد الى جيش طاهر بن الحسين
ظلوا ينظرون بها الى جيش المعتصم • وكما اجبر المأمون على تغيير
سياسته اجبر المعتصم على تغيير عاصيته !!

لقد كانت خطة المعتصم على حد قول الطبري ان يعثر على موضع
« اخرج اليه وابني فيه مدينة واعسكر به فان رابني من عساكر بغداد
حادث كنت بنجوة وكنت قادرا على ان اتيهم في البر وفي الماء » (٧٠) •

ولذلك فان المعتصم كان من جند اهل بغداد فيكون بمأمن منهم
من جهة وليستطيع ضربهم وكسر شوكتهم اذا تردوا من جهة ثانية •

ويشير اليعقوبي (٧١) الى أن تخطيط المدينة الجديدة تميز بمراعاة النواحي العمرانية والحضارية وذلك امر طبيعي لان الدولة العباسية استقرت وثبتت وان عهد المعتصم يختلف عن عهد المنصور باني بغداد المدورة . وقد اهتم المعتصم بال عمران وصفوف الاسواق وكانت « كل تجارة منفردة وكل قدم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه اسواق بغداد » . واهتم بزراعة الضواحي القريبة من المدينة وحمل اليها الاشجار وحفر الترع فكان قدوة لرجال دولته في الاهتمام بالزراعة والتشجير (٧٢) .

على ان ابرز ما اهتم به هذا الخليفة المحارب هو راحة جيشه فقد قسمهم الى وحدات تسكن كل منها في ناحية خاصة وراعى في التقسيم جنسياتهم الاصلية وجعل قائد كل وحدة او صنف مسؤولا عن المحلة او المنطقة التي تسكن فيها .

الاضطرابات في جنوبي العراق :

تعرضت منطقة البطحة في العراق الى اضطرابات قام بها الزط . ولا نعرف الشيء الكثير عن هؤلاء الناس ويرى المسعودي (٧٣) أن أصلهم من الهند هاجروا الى ايران فالعراق بسبب المجاعة والفاقة ويؤيد البلاذري القول بان اصلهم هندي ويحدد منطقتهم بالسند . اما ابن خلدون فيقول انهم قوم من اخلاط الناس (٧٤) .

ومهما يكن من امر فالظاهر انهم من ضعفاء الهنود الذين جابوا البلدان حتى وصلوا احوار العراق وقد حاول ولاية العراق وخاصة الحجاج الثقفي ان يستغلوهم لزراعة المنطقة عن طريق استقرارهم فيها .

وفي العصر العباسي اثار الزط الاضطراب وعسدم الاستفرار في عهد المأمون الذي لم يتمكن من قمع حركتهم ، بل انهم بدأوا يغيرون على السفن القادمة الى بغداد من البصرة، كما انضم اليهم العبيد وهاجموا المناطق القريبة ونهبوا غلاتها حتى انقطع الطريق المائي الى بغداد كما قطعوا الطريق بين واسط والبصرة.

وفي سنة ٢١٩هـ - ٨٣٤م ارسل المعتصم جيشا بقيادة عفيف بن عتبة فحاصروهم واحكم الحصار فاستسلم مئات منهم وقتل آخرون . وقرر الخليفة بعد ذلك تهجير الالف منهم الى الثغور الشمالية وخاصة ثغر عين زربة وبذلك خفت وطأتهم في الجنوب .

تمرد في الجزيرة الفراتية واذريجان :

وتسرد جعفر الكردي في الجزيرة واذريجان ثم انتقل الى ارمينيا وانضم اليه العديد من الناس فباتت حركته خطرا مما دعا السلطة المركزية الى قمعها بسرعة (٧٥).

فترة من الهدوء النسبي :

توفي المعتصم سنة ٢٢٧هـ - ٨٤١م فخلفه ولي عهده الواثق الذي تميزت فترته بازدياد نفوذ القادة العسكريين الاتراك مثل اشناس الذي لقب (بالسلطان) ووصيف وياتاخ وبغا الكبير .

كما بقي المعتزلة اصحاب النفوذ والسلطان وخاصة احمد بن ابي داوود الذي كان احد اثنين لا يصدر الخليفة « الاعن رأيهما ولا يعاب عليهما رأيهما فيما رأيا وقلدهما الامر ففوض اليهما ملكه » (٧٦) اما الثاني فهو الوزير محمد بن عبد الملك الزيات .

وقد حذا الواثق حذو ابيه وعنه في سياسة الاعتزال وتشدد في القول بخلق القرآن (٧٧) وقد ادى ذلك الى تمرد جماعة من اهل بغداد ضده سنة ٢٣١ هـ يعرفون بأهل الحديث بزعامة احمد بن نصر بن مالك الخزاعي ولكن السلطة استطاعت ان تجهض الحركة والقي القبض على زعيمها الذي اتهم بنشر آراء مخالفة لعقيدة الدولة وحوكهم مجازمة رسمية حضرها قاضي القضاة احمد بن ابي داود ، وحكم عليه بالموت حيث قتله الخليفة وصلبه في بغداد (٧٨) . ولكن سياسة (اسكات المخالفين في الرأي والعقيدة كانت ذات مردودات سلبية ذلك انها اذكت المعارضة وشدت من عزم القوى المضادة فكانت من السهل على المتوكل ان ينهي سلطة المعتزلة السياسية فيما بعد .

وشهد عهد الواثق تحركات قبلية اثارت الفوضى في الحجاز حيث انتفض بنو سلوم وبنو مرة وبنو فزارة وقطعوا الطريق بين مكة والمدينة . كما حدثت انتفاضات قبلية في اليمامة وقد لعب القائد (بعا الكبير) دورا مهما في اخساد هذه الحركات مما زاد في نفوذه في البلاط والادارة .

ولم يعهد الواثق لأحد حين توفي سنة ٢٣٢ هـ - ٨٤٧ م برز دور القادة الاثراك في التدخل في تعيين الخليفة الجديد حيث انتخبوا في البدء ابن الواثق ثم بدلوا رأيهم وعينوا جعفر المتوكل فكانت سابقة خطيرة ومثلا سيئا لتدخل القادة العسكريين في السياسة .

الجيش يتدخل في السياسة :

لم يكن جعفر المتوكل من المقربين الى الواثق في عهده بل ان الذي يستعرض سيرته في عهد الواثق لابد وان يتذكر حياة الرشيد في عهد الهادي فقد كان الواثق يسيء معاملة اخيه المتوكل ويود ان يعين ابنه خليفة من بعده رغم انه كما ذكرنا سابقا لم يقم بهذا العمل فعلا .

والواقع فإن الواثق حد من نشاط المتوكل وعين اثنين من رجال البلاط للإشراف على اموره ومراقبته . وقد حاول المتوكل ان يوسط الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لدى الخليفة الا ان هذا الوزير رفض القيام بالعمل وأهان جعفر المتوكل مما دعا هذا الاخير الى الاستنجاد بابن ابي داود الذي توسط لدى الخليفة دون جدوى (٨٠) .

ولم يكن حصول المتوكل على الخلافة وليد خطة مدبرة بل نتيجة الظروف الحسنة التي اعقبت موت الواثق الذي لم يعهد لاحد من بعده . فقد اضطرب الجيش وعقدوا اجتماعا لاختيار الخليفة الجديد وقد اقترح ابن الزيات ان يكون محمد بن الواثق خليفة ولكن وصيف رفض الاقتراح باعتبار ان محمدا صغيرا ولا تجوز الصلاة وراءه . ثم نظر المجتمعون في اسماء مقترحة اخرى حتى تقرر تعيين المتوكل حيث لعب القادة العسكريين وعلى رأسهم وصيف وايتاخ دورا بارزا في ذلك وأيدهم احمد بن ابي داود باسراعه بسبايعة المتوكل الامر الذي جعل ابن الزيات يعترف بالامر الواقع .

ان اهمية مجيء المتوكل للخلافة تكمن في ان القادة العسكريين استطاعوا ولأول مرة في التاريخ العباسي أن يجعلوا كدستهم هي النافذة في امر سياسي الا وهو اختيار الخليفة .

وعلى ذلك فقد جاء المتوكل الى الحكم (٢٣٢ هـ - ٢٤٧ هـ) بترشيح ومساندة القادة الاثراك في الجيش . وكنتيجة للمنافسة الحادة بين القادة الترك وبين (البيروقراطية) المدنية التي يرأسها الوزير ابن الزيات . وقد سقط ابن الزيات بعد حوالي الشهر من تسلم الخليفة الجديد الحكم وبدأت فترة الاضطراب السياسي ادرك الخليفة المتوكل

خلالها خطر تدخل الاتراك في السياسة وحاول ان يهيج نهجا جديدا ويربط نفسه بتكتلات جديدة لينقذ نفسه والخلافة من الازمة .

على ان الباحث في خلافة المتوكل تواجهه قلة الروايات التاريخية عند المؤرخين الرواد في القرن الرابع الهجري وعدم تناسبها مع الاحداث التي وقعت حينذاك . فالطبري يسكت عند كثير من الاحداث واعل سبب ذلك يرجع الى سوء العلاقة بالحنابلة ولذلك يتحاشى ذكر اخبارهم . اما المسعودي فينتدح سياسة الخليفة في اعلاء السنة والحد من نشاط المعتزلة ولكنه ينقد موقف الخليفة تجاه العلويين ولعلنا نستطيع ان نتفهم موقف اليعقوبي الحذر تجاه سياسة المتوكل السنية تلك السياسة التي لم تكن تنسجم مع مشاعر اليعقوبي العلوية المعتدلة . ان اهم ما يذكره اليعقوبي هو القول بان المتوكل منع الكلام حول القرآن واطلق سراح كل المعتقلين بسبب (المحنة) اما المؤرخين المتأخرين امثال ابن الاثير والسبكي والبغدادى وابن الجوزي وابن كثير والسيوطي فيمتدحون سياسة المتوكل الدينية ولكنهم في الغالب ينتقدون موقفه من العلويين اما الشعراء فقد استغلهم الخليفة استغلالا كبيرا في الدعاية لسياسته وابرار وجهة نظره .

ولسياسة الخليفة المتوكل اوجه مختلفة على ان اهم المظاهر الدينية — السياسية ميزت عهده هي الازمة السياسية المستمرة التي انتهت بمقتله .
نم موقفه المعادي للمعتزلة والمؤيد لاهل السنة والجماعة الذي يعتبر منعظا جديدا خالف به سياسة اسلافه منذ عهد المأمون ثم عدائه للعلويين وتشدده تجاه اهل الذمة .

التكتلات السياسية والقادة الاتراك :

ان الازمة التي رافقت اعتلاء المتوكل للخلافة اظهرت بجلاء الصراع الحاد بين المؤسسة العسكرية المتمثلة بالقادة الاتراك وبين البيروقراطية المدنية التي يتزعمها الوزير ابن الزيات وقد سقط ابن الزيات بعد حوالي شهر ونصف من مجيء المتوكل فتدهورت معنويات الكتائب ومرت المؤسسات الادارية بفترة من الاضطراب ادرك المتوكل خلالها قوة تسلط العسكريين وبدأ يعمل على ايجاد تكتل جديد يدين بالولاء له .

ان السياسة الجديدة التي انتهجها المتوكل ساعدت على انتعاش البيروقراطية المدنية بصورة تدريجية وتقلص نفوذ القادة العسكريين . ودعما لنفس السياسة الجديدة تبنى المتوكل سياسة دينية جديدة تتسم بالعداء للمعتزلة والتشدد تجاه العلويين والتضييق على اهل الذمة . كل ذلك لكسب عواطف جماهير المسلمين وعلى رأسهم الفقهاء والمحدثين وعلى ذلك فان اتقاء الخليفة لموظفي الادارة وحاشيته في البلاط كان يتم خلال عهده وفقا لأطر وشروط السياسة الجديدة .

ولعل سقوط الوزير ابن الزيات يعود في الاساس الى عوامل رئيسية ثلاث هي : اولا : سوء معاملته للمتوكل في عهد الواثق . وثانيا ارتباط اسمه بالحنة . وثالثا : تأثير قادة الجيش وخاصة ايتساخ . ان رواية اليعقوبي^(٨١) التي تنسب سقوط ابن الزيات الى خشونة اخلاقه وتعاليه ليست كافية ولا بد ان نربط سقوطه بالضغط الكبير الذي مارسه الجيش . وقد تلا سقوطه فوضى ادارية واضطراب في صفوف الكتائب الذين عانوا الكثير خلال هذه الفترة .

وفي سنة ٢٣٣هـ - ٨٤٨م سقط عمر بن فرج^(٨٢) وصودرت املاكه واملاك الكتائب الذين في معيته . ولم تجد السلطة العباسية في حوزته

أكثر من ١٥ ألف درهم ولكن مولاه نصر سلم الدولة ٣٠ ألف دينار من أموال سيده ١٤ ألف دينار من أمواله الخاصة وقد عومل عمر بن فرج معاملة قاسية وتعرض لاهانات شديدة . ولعل أهم أسباب سقوطه تعود إلى سوء معاملته للمتوكل قبل الخلافة وإلى استغلال نفوذه في الارتشاء وكسب المال وإن الأموال الكبيرة التي استطاع عمر وأخيه أن يقدموها للمتوكل تشير إلى اكتنازهم الأموال خلال مدة ترأسهم للإدارة .

إن هذه الأمثلة للمصادرات تعيد إلى الأذهان الأحداث التي تعرض لها الكتاب والوزراء في عهد الخليفة الواثق كذلك .

وقد تبع سقوط عمر بن فرج سجن إجميد بن خالد الوزير وسقوط الفضل بن مروان إن هذه الأمثلة وغيرها إضافة إلى أنها مؤشرات ذات دلالات سياسية مهمة تظهر محاولات الخليفة لضبط الإدارة وتحسينها والقضاء على الرشوة والاختلاس .

المتوكل ورؤساء الجيش :

حاول المتوكل جاهدا أن يرضي قادة الجيش فكان يتأخ قائدًا للجيش والمغاربة والأتراك والموالي إضافة إلى مسؤولياته في الحجابة والبلاط . أما بغا الشرابي (الصغير) ووصيف فكانا حجابا إضافة إلى مسؤولياتهم العسكرية .

أما بغا الكبير الذي كان يرتبط بالخليفة برباط القربى من جهة أمه (٨٣) فكان قائدًا لعدة حملات عسكرية أهمها حملة أرمنية ٢٣٨-٨٥٢ وعين المتوكل صالح التركي أميراً على دمشق ويزيد التركي أميراً على مصر كما أن نديمه المقرب الفتح بن طاقان كان تركياً . وإن موسى بن بغا الكبير أصبح قائداً لحرس القصر نيابة عن أبيه .

على ان المنعطف الذي غير سياسة الخليفة تجاه القادة العسكريين هو انتقال الخليفة الى دمشق حيث « عزم سنة ٢٤٢هـ على المقام بها ونقل دواوين الملك اليها وامر بالبناء بها » (٨٤) وقد شغب الجند والأتراك واجبروا الخليفة على الرجوع بعد اقامة شهرين فيها . ولا شك فان قراره بالرجوع كان حكيما، ورغم انه كان رضوخا للقادة والجند (٨٥) فان بلاد الشام وهي المعروفة بولائها للامويين لا يمكن ان تساند خليفة عباسي وكان على المتوكل ان يتذكر حركة عبد الله بن علي العباسي وفشلها وجهود الامين واخفاقها لقد ادرك المتوكل بعد احداث دمشق سنة ٢٤٢هـ سوء نية بغا الكبير وابنه موسى وتأمرهما عليه مع انه اعفى عنه بعد ذلك بقليل . ولكن القادة العسكريين استمروا في الحصول على امتيازات جديدة فوسعوا اقطاعاتهم في المناطق المحيطة بسامراء كما وان انشاء (ديوان الجند والشاكرية) (وديوان الموالي والغلمان) يدل على ازدياد عدد الترك وتوسع المؤسسة العسكرية وزيادة مصروفاتها المالية وكان القادة وجندهم يحصلون على ارزاقهم رغم تدهور حالة الخزينة المركزية وذلك بالضغط على الخليفة كما استطاع بعضهم مثل وصيف الحصول على ضياع في اصفهان والجلال وفارس (٨٦) وهكذا اصبحت الحالة لا تحتل بالنسبة للخليفة .

ولكن رؤساء الجيش وجنده لم يقتنعوا بكل هذه الامتيازات ، ولا بد لنا من ان نشير بان تدهور العلاقة بين الخليفة والقادة العسكريين كانت تعود بالدرجة الاولى الى مطالب هؤلاء القادة المستمرة والمتزايدة للسلطة والمال ، ذلك لانهم كانوا يدركون اهميتهم ويمون قوتهم في الجيش والادارة . وان اية مقاومة من الخليفة كانت غير مجدية بل انهم دبروا خطة لقتله قبيل عودته من دمشق ولكن بغا الكبير وقف ضد هذه المؤامرة .

ولا بد لنا ان نلاحظ بان المتوكل منذ البدء ينتهز اية فرصة مؤاتية لتقليص سلطة الاتراك فاتتهز فرصة ذهاب ايتاخ للحج ونقل عنه الحجابة الى وصيف ثم امر والي بغداد بسجنه حين عودته من الحج حيث نجحت الخطة ومات ايتاخ في السجن سنة ٢٣٥هـ . ولاشك بان بغداد بميولها المعادية للترك ولتسلط الجيش كانت انسب مكان لاعتقال ايتاخ وسجنه دون ان يجد نصيرا له والى ذلك تشير رواية تاريخية :

« ولو لم يؤخذ ما قدروا على أخذه ، ولو دخل سامراء فاراد باصحابه قتل جميع من خالفه امكنه ذلك » (٨٧) .

ثم كانت محاولته الفاشلة لنقل الخلافة الى دمشق الستى اتبعها باجراء اخر حيث بنى مدينة جديدة سماها « المتوكلية » (٨٩) تبعد ثلاثة فراسخ عن العاصمة سامراء واقطع فيها اتباعه والقادة المواليين له وبذلك اراد الابتعاد عن اعدائه المتمركزين في العاصمة القديمة .

ثم عزز المتوكل مركزه اكثر حين شكل فرقة عسكرية جديدة ليس فيها عنصر تركي بقيادة ابنه المعتز ووزيره عبد الله بن يحيى بن خاقان وتتكون من ١٢ الفا من العرب والصعاليك . وقد حاول الجند القدماء التآمر على الفرقة العربية الجديدة دون جدوى بل ان المتوكل قلص نفوذ وصيف وحاول قتله وقتل بغا معه .

ان هذه الاجراءات المتتالية زادت من حذر الترك وشكوكهم تجاه الخليفة الذي كان ينبغي استئصالهم معتمدا على البيروقراطية المدنية التي فشلت في الساعة الحرجة ان تقف معه . فلقد استغل الترك نزاع الخليفة مع ابنه المنتصر فخالفوا الاخير ضد ابيه وكانت النتيجة مقتل الخليفة وانتصار الجيش .

الاضطرابات في الاقاليم :

ان الصبغة الغالبة على عهد المتوكل هي التكتلات والمؤامرات في العاصمة وفي داخل البلاط بالذات والمتسمة بمحاولات الخليفة التخلص من نفوذ الجيش في الادارة والسياسة وكذلك الحسد من ابتزاز كبار الكتاب والوزراء .

على ان ائشغال الخليفة بتدبير امور العاصمة زاد من رجحان عوامل التفكك فظهر الصفارون في سجستان واستطاعوا تكوين سلطة سياسية على انقاض السلطة الظاهرية (٨٩) .

كما ثارت قبائل ربيعة في اذربيجان بقيادة محمد بن الليث فأخمد حركتها بغا الشرابي وقاد البطارقة في ارمينية حركة تمرد واسعة وقتلوا الوالي العباسي فاشتعلت الحرب وقاد بغا الشرابي حملة كبيرة كان نتيجتها مقتل الالاف قبل اخماد الحركة وفي اسفل صعيد مصر تحرك البجة الاحباش وقتلوا المسلمين سنة ٢٣٧هـ فانقطع اهم مورد للدولة من معدن الذهب ذلك انهم كانوا يؤدون للدولة سنويا ٤٠٠ مثقال تبر غير مصفى . ولكن الحملة العباسية استطاعت اخضاع البجة والعودة الى شروط العهد السابق مع المسلمين (٩٠) .

ولاية العهد :

ان عهد المتوكل والعديد من اجراءاته تعيد الى الازهان عهد الرشيد واجراءاته وكان المتوكل لم يستفيع بتجربة الرشيد المريرة ولم يتعظ باخطائه التي أدت الى الحرب الاهلية بين الامين والمأمون .

فقد قسم المتوكل الخلافة بين ابنائه الثلاثة ٢٣٥هـ - ٨٥٠م (٩١)

وهم المنتصر والمؤيد والمعتز وعقد لكل منهم لواءين الابيض لواء العمل والاسود لواء العهد . وكان المنتصر اكبر اولاده وعمره ١٣ سنة . وقد عينه المتوكل على افريقيا والمغرب والثغور الشامية والجزيرة والسواد والحرمين والجبال والسند والاهواز وغير ذلك . اما المعتز فله خراسان وفارس اما المؤيد فله جند دمشق وحمص والاردن وفلسطين (٩٢) .

وحين بدأ المتوكل ينحرف عن المنتصر لميوله وآرائه اعطى ابنه المعتز امتيازات جديدة منها الاشراف على بيت المال وعلى دور الضرب حيث ضرب اسمه على الدراهم . لقد كرر المتوكل اخطاء الرشيد فكانت النتيجة وبالا عليه لان المنتصر كما سئرى انحرف عنه وتآمر ضده واشترك في قتله .

اغتيال المتوكل :

تعتبر الازمة بين الخليفة والقادة العسكريين سببا رئيسيا في اغتيال المتوكل . لقد بدأت الازمة بسقوط ايتاخ وظهور البيروقراطية المدنية على الصعيد السياسي تحت زعامة الوزير عبد الله بن يحيى والفتح بن خاقان . ثم تطورت الاحداث التي صعدت الازمة حتى انفجرت حين بدأ المتوكل يتخذ اجراءات متتالية لاستئصال الترك واستبعادهم فصادر ضياع وصيف . وانتهم الاتراك الفجوة الكبيرة بين الخليفة وابنه المنتصر فتحالفوا مع المنتصر ووضعوا نهاية مؤلمة للخليفة .

ولذلك فأننا نميز كئلتين واضحتين على مسرح الاحداث :

الاولى تتألف من الفتح بن خاقان وعبيد الله بن يحيى
والامير المعتز واتباعهم •

والثانية تتألف من المنتصر والقادة ووصيف وبغا واثامش واتباعهم
كما وانه كان هناك مسألتين اساسيتين :

الاولى من سينتصر في الصراع على السلطة والنفوذ اهل القلم
المديون ام اهل السيف من قادة الجيش •

والثانية هل سينجح المعتز على الحصول على ولاية العهد الاولى
بدلاً من اخيه المنتصر وقد جمعت المصالح بين وصيف والمنتصر ولذلك
وحدوا جهودهم ضد المتوكل • وقد تبني الترك وجهة نظر وصيف
بالدرجة الاولى ولم تكن تهمهم مشكلة ولاية العهد او مصير المنتصر •

وكان بغا الشرابي العقل المدبر للمؤامرة حيث أعد القتل ودبر خطة
الاغتيال في مجلس الشراب • ورغم ان المنتصر كان الى جانب المتآمرين
الا انه لم يشترك في اعداد الخطة والمعروف ان المتوكل اسرف في اهانة
ابنه وخلعه من ولاية العهد فاحتسب المنتصر بالقادة لاسباب شخصية
بحثة •

ولابد ان نشير الى ان الجند لم يكن لهم يد في المؤامرة بل اتهم
علموا بها بعد وقوعها وانما حاكها ونفذها حفنة من القادة العسكريين
بالتعاون مع بعض المدنيين في البلاط مثل احمد بن خصيب الذي قرأ
اعلافا على الناس بان المتوكل قتل في البلاط على يد الفتح بن خاقان
وان امير المؤمنين المنتصر قتل الفتح بن خاقان • والمعروف ان الوزير
عبيد الله بن يحيى كان حاضرا ولكنه لم يجرؤ على الكلام بل بايع
المخليفة الجديد توا •

على ان الجند المغاربة لم يقتنعوا بالتصريح الرسمي وكادت ان تبدأ اضطرابات جديدة لولا ان تسكن المتآمرون من قتل مجموعة صغيرة منهم فهدأت الحالة من جديد .

وقد شعر القادة العسكريين بعد مقتل المتوكل بالاطمئنان الحقيقي فلم يبق احد يهدد مصالحهم ويقلص نفوذهم ولم يكن باستطاعة عبيدالله ابن يحيى ان ينظم مقاومة عسكرية مضادة او يجابه هؤلاء القادة ، ثم ان الرؤساء المدنيين بالامكان اصطنائهم كما حدث بالنسبة لأحمد بن الخصيب

لقد شعر المتوكل بتآمر الاتراك عليه ولذلك اكثر من احاطة نفسه بالخدم والحاشية ولكن لم يكن الى جافه شخص عسكري كفؤ يتمكن من حمايته من القادة الترك وقد فشل بن خاقان والوزير بن يحيى في اتخاذ اجراءات صارمة للحفاظ على أمن الخليفة وسلامته وفي ليلة الاربعاء ٤ شوال ٢٤٨ هـ قتل المتوكل في مدينة الجعفرية وكان في حالة سكر شديد بعد انقضاء مجلس شرابه وقتل معه نديمه الفتح بن خاقان وهو يدافع عنه .

نظرة تحليلية :

ان سياسة الخليفة المتوكل كانت نتيجة حتمية لعاملين مهمين :

الاول : ظهور مذهب (اهل السنة والجماعة) الذي تطور عن اهل الحديث ومحاولته اثبات مكائته بين القوى المنافسة له .

والثاني : عكس مخاوف الخليفة ومحاولته الحفاظ على الخلافة العباسية ضد الاحزاب والتكتلات المعادية لها .

لقد مال الخلفاء العباسيون مثل المتوكل اما على اصحاب الحديث

والفقهاء او على (المعتزلة) وقد فشلت محاولة المأمون للتوفيق الديني - السياسي ، وخرج اهل السنة والجماعة وعلى رأسهم احمد بن حنبل من المحنة وهم اكثر قوة من ذي قبل وكان على المتوكل ان يعترف بالامر الواقع وان يجري الاستناد على مذهب (اهل السنة) كقاعدة لسلطته السياسية ضد القادة الترك والعلويين .

لقد انكشف تأمر الترك على الخليفة في محاولة ايتاخ في سنة ٢٣٤ - ٨٤٨م اغتيال الخليفة وكانت الحادثة بداية التنافر بينه وبين الاتراك حيث اصبح الاتراك في صف المعارضة للمتوكل . ثم جاء العداء بين الخليفة وابنه وولي عهده والمتنصر بمثابة حلقة الوصل بين الاتراك والعلويين الذين اتخذوا من الامير المتنصر رمزا لوحدة جبهة المعارضة للخليفة .

وهكذا فان سياسة المتوكل الدينية كانت نتيجة طبيعية للظروف السياسية التي كان عليه ان يعيش في خضمها ونحن نعتقد بان المستشرق ميور بالغ حين صوره في صورة الخليفة الظالم المتزمت ذي الافق الضيق . لقد كان الخليفة المتوكل ابن بيئة وكانت سياسته محاولة جريئة لا تخلو من اخطاء لانقاذ الخلافة العباسية من أزمتها ولا بأس هنا ان ننهي كلامنا عن المتوكل وعهده بإيراد وجهة نظر اليعقوبي (٩٥) في ذلك العهد :

« ثم كان جعفر المتوكل بن المعتصم فأبطل ما كان يقول به الواثق وظهر القول بالسنة والجماعة واطلق من كان في المجلس من حبس بسبب عدم القول بخلق القرآن ونهى عن الجدل ، وامر كل من اطلقه من المحدثين ان يتحدثوا فترك الناس تلك المقالة وانكرها من كان يقول بها وارتفع الجدل والمناظرة ... »

وكانت ايامه حسنة ناظرة كثيرة الخير ، على انه اول خليفة اظهر
العبث واطلق في مجلسه الهزل والمضاحك واشياء تركنا ذكرها ذاعت في
الناس واستعملوها وجروا فيها •

وكان الفتح بن خاقان اغلب الناس عليه واشدهم تقسدا عنده ولم
يكن ممن يرجى فضله ولا يخاف مكروهه • وكان عميد الله بن يحيى بن
خاقان وزيره وكان طالبا للسلامة • • وكان يعتدي عليه بقول لا حقيقة
له فكان احمد بن اسرائيل يقول تعلمنا منه الكذب » •



هو الشهي المقدمة

- ١ - اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٥٧ .
- ٢ - المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- ٣ - هارون الرشيد ، (دائرة المعارف الاسلامية) بقلم الدكتور فاروق عمر .
- ٤ - الطبري ، تاريخ ، ج ١٠ ، ص ٥٠ . كذلك الجهشيارى ، ص ١٧٧ .
- ٥ - الطبري ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ١٠٠ .
- ٦ - الجهشيارى ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٤ .
- ٧ - المقرئزي ، شذور ، ص ١٢ - ١٣ .
- ٨ - بارتولد ، دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى مترجم . بغداد ١٩٧٣ ص ٨١ .
- ٩ - الجهشيارى ، ص ١٧٧ . الطبري ، ج ١٠ ص ٥٠ .
- ١٠ - بارتولد (البرامكة) ، دائرة المعارف الاسلامية ، الطبعة القديمة .
- ١١ - الجهشيارى ، ص ٢٦٥ .
- ١٢ - ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٦٥ .
- ١٣ - الطبري ، ج ١٠ ص ٧٢ .
- ١٤ - الطبري ، ج ١٠ ص ١١٣ . الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ١٣٣ .

حوالي البحث

- ١ - F. Omar , Harun al - Rashid , E. I .
- ٢ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ١١٣ .
- ٣ - ابن الطقطقي ، الفخري ، ص ١٤٣ .
- ٤ - الجهشيارى ، ص ١٧٧ .
- ٥ - الجهشيارى ، ص ٢٠٨ ، الطبري ج ١٠ ، ص ٦٠ - ٦٦ .
- ٦ - اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٩٤ .
- ٧ - المصدر السابق ، طبعة القاهرة ، ج ٣ ، ص ١٤٣-١٤٤ . الخرجي ، الكفاية والاعلام ، مخطوطة المتحف البريطاني ورقة ١١٨ .
- ٨ - الجهشيارى ، ص ٢٢٨ . الطبري ، ج ١٠ ، ص ٩٥ .
- ٩ - نفس المصدر السابق .
- ١٠ - الطبري ج ١٠ ، ص ١٠١ فيما بعد .
- ١١ - ابن اكثم الكوفي ، مخطوطة الفتوح ، ورقة ٢٤٨ . راجع كذلك :
Movsés Kalan Kat Vats , The history of the Cau Casiaus ...
pp. 190 .
Vasmer , Chronologie .. , Leningrad 1931 , pp. 140 PF.
- ١٢ - ابن اكثم الكوفي ، الفتوح ، مخطوط ، ورقة ٢٤٩ . راجع ايضا :
Dunlop , The history of the Tewish Khazars , 1941 .

- ١٣ - راجع : الاكاديمية البولونية في روما ، شباط ١٩٥٨ :
Lewicki , Les Ibadites en Tunisie ...
- ١٤ - راجع مقالة (البرامكة) للدكتور فاروق عمر في دائرة المعارف
البريطانية ، الطبعة الجديدة ١٩٧٥ .
- ١٥ - الجهشياري ، ص ١٧٧ . ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .
- ١٦ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٥٠ .
- ١٧ - الجهشياري ، ص ١٨٩ .
- ١٨ - الاصفهاني ، الاغانى ، ج ٤ ص ٣٩ . ج ٥ ، ص ١١٨ .
- ١٩ - الفخري ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .
- ٢٠ - الجهشياري ، ص ٢٥٤ .
- ٢١ - ابن خلدون ، المقدمة ج ١ ، ص ١٥ .
- ٢٢ - البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ١٨٩ .
- ٢٣ - راجع جاسم الكلكاوي ، البرامكة والعلويون ، كربلاء ١٩٦٥ . عبدالله
الفياض : تاريخ البرامكة . بغداد ١٩٤٨ . تارتولد . E. I .
- ٢٤ - الصدوق ، عيون اخبار الرضا ، ص ٢٤٣ . العاملي ، المجالس
السنية ، ج ٥ ، ص ٣٤١ .
- ٢٥ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٨ . المعارف ، ص ١٦٧ . ابن النديم ، الفهرست
ص ٤٧٣ .
- ٢٦ - ابن خلكان ، وفيات ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .
- ٢٧ - الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ١٦٨ فما بعد . حسن ، تاريخ
الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٦٤ . الجومرد ، هارون الرشيد ، ج ٢ ص ٤٦٠ .
فما بعد . عبد المنعم ماجد ، اضواء على البرامكة ، الموسم
الثقافي ١٩٧٣ .
- ٢٨ - المقدمة ، ج ١ ، ص ١٥ .

- ٢٩ - الجهشيارى ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
- ٣٠ - المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .
- ٣١ - انظر الرفاعي ، عصر المأمون ، ج ١ ، ص ١٨٥ .
- ٣٢ - الجاحظ ، البيان ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، ١٩٥ .
- ٢٣ - ابن كثير ، البداية ، ج ١٠ ، ص ٢١٥ . المرتضى ، المنية والامل ، ص ٣١ .
- ٣٤ - الاغانى ، ج ١١ ، ص ٨ - ٩ . المسعودي ، مروج ، ج ٦ ، ص ٢٧٢
ابن النديم ، الفهرست ، ص ١٧٥ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٧
ويشير البيروني صراحة الى ان اعداد يحيى البرمكي تكلموا عليه حين
اراد ان يؤخر موعد جباية الحاصل بتأخير النوروز وقالوا بتعصب
للمجوسية فاضرب عن ذلك (الاثار الباقية ، ص ٣٢ فما بعد) .
- ٣٥ - المقدمة ، ص ١٦ .
- ٣٦ - اليعقوبى ، ج ٣ ، ص ١٤٠ . الطبري ، ج ١٠ ، ص ٥٣ . ويظهر ان
كتلة بني هاشم كانت في غالبيتها تؤيد الامين (الاربلى ، خلاصة
الذهب المسبوك ، ص ٨٧) .
- ٣٧ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٧٣ .
- ٣٨ - المصدر السابق ، ص ٥٣ .
- ٣٩ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ (طبعة القاهرة ١٩٦٤) .
- ٤٠ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٧٦ - ٧٧ .
- ٤١ - عن هذه الاجراءات راجع : صدقي حمدي ، النزاع بين الامين
والمأمون ، اطروحة ماجستير (لندن) .
- A. Chejne , Succession to the vule ... Lahore , 1960
- ٤٢ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ١٢٥ فما بعد . الدينوري ، ص ٢٩٠ - ٢٩١ .
- ٤٣ - ابن الاثير ، الكامل ج ٦ ص ٩٢ .
- ٤٤ - اليعقوبى ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .

- ٤٥ - المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٠٤ .
- ٤٦ - الجهشيارى ، ص ٣٠٤ .
- ٤٧ - المصدر السابق ، ص ٣١٦ .
- ٤٨ - راجع مقالتي عن نصر العقيلي (ثائر من أجل العرب) مجلة العرب
١٩٧١ ، ٧ .
- ٤٩ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٦٢ .
- ٥٠ - الدكتور عرفان عبد الحميد ، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية ،
بغداد ١٩٦٧ ، ص ٨٣ فما بعد .
- ٥١ - نلينو ، بحوث في المعتزلة ، ص ١٧٩ . دائرة المعارف الإسلامية
(المعتزلة) . أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٩٠ فما بعد . كذلك
J. Obermann , political theology ... , M. Watt , the political
attitudes of the Mùtazila ... , pp. 38 - 51 .
- ٥٢ - الأشعري ، مقالات الإسلاميين ، ص ٣١ .
- ٥٣ - عن الاعتزال ، راجع زهدي جار الله ، المعتزلة ، القاهرة ١٩٤٧
علي الفزالي ، تاريخ الفرق الإسلامية
البيروني ، فلسفة المعتزلة ، الإسكندرية ١٩٥٠ . نلينو ، بحوث في
المعتزلة ، مجلة الدراسات الشرقية ، م ٧ .
- ٥٤ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٢٤٣ .
- ٥٥ - اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٩٧ . العيون والحداثق ، ص ١ .
الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣٠٤ .
- ٥٦ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .
- ٥٧ - الدوري ، العصر العباسي الاول ، ص ٢٢٨ .
- ٥٨ - فاروق عمر ، نظرة جديدة الى علاقة الترك بالخلافة ، مجلة المكتبة
١٩٦٨ .
- ٥٩ - راجع الطبري ، القسم الثالث ، ص ٤١٤ (الطبعة الأوروبية) .
- ٦٠ - الجاحظ ، مناقب الترك ، ص ٤٣ .
- ٦١ - اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٣ .
- ٦٢ - الاربلي ، خلاصة الذهب ، ص ١٦٢ .

- ٦٣ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣١١ .
- ٦٤ - المسعودي مروج ، ج ٤ ، ص ٩ . اليعقوبي ، ص ٢٤ .
- ٦٥ - العيون والحدائق ، ص ٥ . الفخري ، ص ٢١٠ .
- ٦٦ - راجع الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٣١ .
- ٦٧ - الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٤٢ ، ٨٤٦ ، ٩٩٨ .
- ٦٨ - الجاحظ ، مناقب الترك ، ص ١٦ ، ١٣ - ١٥ .
- ٦٩ - الطبري ، القسم الثالث ، ص ٨٢٩ (الطبعة الاوروبية) .
- ٧٠ - الطبري ، ج ١٠ ، ص ٣١١ (المطبعة الحسينية) .
- ٧١ - اليعقوبي ، البلدان ، ص ٢٤ فما بعد .
- ٧٢ - نفس المصدر السابق .
- ٧٣ - المسعودي ، التنبيه ، ص ٣٠٧ .
- ٧٤ - البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٣ . ابن خلدون ، العبر .
- ٧٥ - المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٨ .
- ٧٦ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٤ ، ص ١٩ .
- ٧٧ - اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٣ ، ص ١٠٧ .
- ٧٨ - الطبري ، ج ١١ ، ص ١٨ .
- ٧٩ - ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٨ .

٨٠ . - Miah The Reign of al - Muttawakkil , ph. D. London , 1965 .

- ٨١ - اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٨٣ .
- ٨٢ - الجهشياري ص ٣١٦ .
- ٨٣ - الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٤٥٩ .
- ٨٤ - الطبري ، ج ١١ ، ص ٥٥ (المطبعة الحسينية) .
- ٨٥ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٧ ، ص ٢٥٨ .
- ٨٦ - الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٤٥٢ .
- ٨٧ - الطبري ، ج ١١ ، ص ٣٣ - ٣٥ .

- ٨٨ - المصدر السابق ، ص ٥٦ - ٥٧ .
- ٨٩ - ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٧ .
- ٩٠ - عن هذه الاضطرابات راجع : اليعقوبي ، ج ٣ ، ص ٢١٠ ، ص ٢٢٣ . الطبري ، ج ١١ ، ص ٥٢ .
- ٩١ - الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٣٩٥ - ١٤٠٢ .
- ٩٢ - A. Chejne , Succession ... , pp. 127 F .
- ٩٣ - الطبري ، القسم الثالث ، ص ١٣٦٨ . المسعودي ، مروج ، ج ٧ ، ص ١٨٩ . اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٩١ .
- ٩٤ - فاروق عمر ، نظرات في سياسة الخليفة المتوكل ، المجلة التاريخية العراقية ، العدد ٢ ، ١٩٧٣ .
- ٩٥ - اليعقوبي ، مشكلة الناس لزمانهم ، ص ٦٢ - ٦٣ .



بيئات وعلماء

اسفرايين

بقلم الدكتور : محمد بدرى عبد الجليل
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تطالعنا المصادر التي هي مظنة البحث بانفساط من صور وروده
متعددة فنحن واجدون :

اسفراين بكسر الهمزة (١) أو فتحها (٢) وسكون السين المهملة ،
وفتح الفاء والراء المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها وبعدها نون .
اسفرايين بكسر الهمزة (٣) أو فتحها (٤) بزيادة ياء ساكنة .

١ - الفيروز آبادي : القاموس : ج ٤ ص ٢٣٦ « مادة سفن » ، ابن
خلكان : وفيات الأعيان : الجزء الأول : ص ٥٦ ، ابن الأثير : الباب في
تهذيب الأنساب : الجزء الأول : ص ٤٣ ، القلقشندي : صبح الأعشى :
الجزء ٢ ص ٣٩١ ، محمود مصطفى : اعجام الاعلام ص ٥ .

٢ - المقدسي : أحسن التقاسيم : ص ٣٠٠ س ٨ ، ص ٣١٨ س ١٦ ،
ص ٣٢٣ س ٥ ، ص ٣٢٧ س ١

٣ - البستاني : دائرة المعارف : المجلد الثالث : ص ٥١٧

٤ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الأول : ص ٢٢٨ ، ابن
حوقل : صورة الأرض : ص ٤٢٨ س ٦ ، ص ٤٣٣ س ١٧ ، ص ٤٥٣ س
١٣ ، ص ٤٥٦ س ٦ ، البستاني : دائرة المعارف : المجلد الثالث : ص
٥١٧ ، القزويني : آثار البلاد : ص ٢٩٥ س ١ ، ص ٣٠٤ س ٤ ، ص ٣٤١
س ٩ .

اسفرائين بكسر الهمزة وهمز المثناة (١) .

اسفرائين بكسر الهمزة وهمز المثناة بزيادة ياء ساكنة ، وفتح الهمزة (٢) .

اسفراسي بكسر الهمزة (٣) .

اسبرايين (٤) .

اسبرائين (٥) .

واذا كان مما يعين على ضبط الصورة التعرف على معناه ، فالاسم في أصله ليس عربيا وانما هو فارسي الوضع ، مكون من كلمتين هما : « سبر » (٦) بالباء الفارسية ومعناها الترس و « آين » (٧) وهي العادة ، ومن ثم نعرف ان اهلها قد اشتهروا بحمل التراس ، ويروى انه مأخوذ من « اسفنديار » (٨) بانها ثم أصابه التغيير لقدم العهد (٩) .

-
- ١ - نصر الهوريني : القابوس الوسيط : « هامش للقاموش » : ج ٤ ص ٢٣٦ ، اسماعيل البغدادي هدية العارفين : عمود ٨ س ١
 - ٢ - الثعالبي : يتيمة الدهر : ج ٤ ص ٤٣٧ ، السيوطي : مراصد الاطلاع : ص ٦٠ س ٣ ، البعقوبي : البلدان : ص ٥٥ س ١١ - ورددها بمختلف الصور ياقوت : معجم الادباء : ج ٤ ص ٢١٠ ، ج ٦ ص ٢٤٢ ، ج ١٥ ص ٩٨ ، ٩٩ ، ج ١٨ ص ١٨٧
 - ٣ - ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة القرائب : ص ١٤٠
 - ٤ - البلاذري : فهرست فتوح البلدان : القسم الثالث : ص ٦٨٦
 - ٥ - البلاذري : فتوح البلدان : القسم الثالث ص ٥٠٠
 - ٦ - خطاب الدكتور محمد جواد مشكور .
 - ٧ - ياقوت : معجم البلدان : المجلد الأول : ص ٢٢٨ ينقلها « أسير »
 - ٨ - الفيروزآبادي ، القاموس : الجزء الاول ، ص ١٨٥ .
 - ٩ - ياقوت الحموي : معجم البلدان المجلد الاول ٢٢٨ .

ومهما يكن من امر تعدد هذي الصور فانها مخالفة لما جرى عليه العهد في البناء العربي ، ولذا فانه يراعي في الاختيار - وهو لنا حق - ما كان له الفهم اكثر ^(١) ، ومن ثم فاذا كان وضع الاسم « سبر » و « آين » والباء الفارسية اذا ما دخلت العربية قلبت فاء ^(٢) فتصبح الكلمة « سفر » + « آين » وبزيادة همزة الوصل تيسيرا للنطق يصير الاسم « اسفراين » بكسر الاول وسكون السين المهملة وفتح الثالث والرابع فساكنة ، فكسر المثناة تليها ياء ساكنة فنون .

ومما سميت به قديما «مهرجان» وذلك لخضرتها ونضرتها ^(٣) ويروى أن الذي أطلقه عليها «قباد» والد كسرى ^(٤) ، فالمهرجان أحد اعياد الفرس وهو اطيب اوقات الفصول ^(٥) ومعناه فرح النفس ^(٦) ، فكأن في هذه التسمية الدلالة على ما حبتها الطبيعة ، ويعقب الحموي ^(٧) بأن مهرجان قرية من اعمالها ، بينما يعدها الاصطخري ^(٨) من مدن نيسابور .

-
- ١ - السيوطي : المزهرة : الجزء الاول : ص ٢٩٢ س ١٣
 - ٢ - المصدر السابق : ص ٢٧٢ س ٦ ، ابن فارس : الصحابي : ص ٢٤ ، ٢٥
 - ٣ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨
 - ٤ - المصدر السابق : ص ٦٩٩ س ٢٢ ، القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٤ ص ٣٩١ ، ونسبها لكسرى نفسه ، الفيروزآبادي : القاموس : ج ١ ، ص ٣٧٠ س ١٥
 - ٥ - القلقشندي : صبح الاعشى : ج ٤ ص ٣٩١
 - ٦ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٦٩٩
 - ٧ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ ، ٦٩٨ س ٢٢
 - ٨ - الاصطخري : سالك الممالك : ص ٢٥٥

- وأيا ما كان الامر فانها مسا به عرفت .
- واذا كنا قد فرغنا من ضبط الاسم وكشفه ، فعلينا ضبط الموقع .

الجغرافية :

لقد تضافرت روايات ما بين يدي من مصدر محددة موقعها بانه في نواحي نيسابور من خراسان ، وتقع شمالي شرق خراسان ، وجنوبي أترك^(١) وهي آخر عمل نيسابور على مسيرة خمس مراحل منها^(٢) وبالتحقيق خمسة أيام^(٣) . .

وبينما يعدها البلاذري بايران نجد القاموس الاسلامي يعدها بافغانستان ومهما يكن من أمر تلك المغامرة التي يقتضيها تداول الايام فبالاتصال وضح انها اليوم بالقسم التاسع من اقسام ايران^(٤) .

وبالتحقيق فانها تقع على السفح الجنوبي من جبال « أداغ » وحدها الشمالي « حومة بجنورد » وقرية « شوفان » ، وحدها الجنوبي « جوين » وحدها الشرقي « صفي آباد » وحدها الغربي « قرية سنخات »^(٥)

ومما يعين في الدلالة أن هناك في شمالها تقع قلعة زر أي الذهب^(٦) وفي هذه التسمية الدلالة على ما كان بها من تمتع بما أهل البيئة لما سنعرض له .

-
- ١ - هيوار : مادة اسفرايين : دائرة المعارف الاسلامية : ج ٢ ص ١٢١
 - ٢ - ابن حوقل : صورة الارض : ص ٤٥٣ س ١٣ ، المقدسي : احسن التقاسيم : ص ٣٥٣ س ١٢ .
 - ٣ - مقارنة بين المصدرين السابقين .
 - ٤ - سفارة ايران بالقاهرة .
 - ٥ - الدكتور محمد جواد مشكور .
 - ٦ - المستوفي : زبدة التاريخ ص ١٨٦ ، هيوار : ج ٢ ص ١٢١ .

ولقد انماز جو هذي البيئة بما حمل اهلها على العمل، وبما عبر عنه
الفندروجي شعرا :

سقي الله في أرض اسفرايين عصبتي فما انتهت العليا الا اليهم
وجربت كل الناس بعد فراقهم فما زدت الا فرط ضن عليهم

وهو الذي عاش فيها فانعكست آثارها عليه ، فاذا ما ارتحل عنها
جرى بما فيها لسانه ، واذا كان هذا حال من أتى اليها ووفد عليها ،
فما يالك بمن نشأ بين احضانها ، فلقد سلفت الاشارة لما يدل عليه
اطلاق المهرجان عليها، وفي رواية المقدسي ^(١) بانها بلد الاعناب الجيدة،
ومزارع الارزاز الكثيرة ، وانها عامرة نفيسة ليس في مدائن الرساتيق
اجل منها ، ذات اسواق حسنة وخصائص عدة - ورواية اليعقوبي ^(٢)
بان خراجها يبلغ اربعة الف الف درهم ، لدلالة على ما به اتسازت وما لها
من سعة وبسطة .

ومما هو بسبب من هذا معيننا على ارسال هذا القول ما يذكر
الحموي ^(٣) من ان لها اربعمائة واحد وخمسين قرية من اعمالها ،
وبالرغم من ضخامة هذا العدد الا انه لم ينص على شيء من ذلك سوى
مهرجان ^(٤) اللهم الا ما هو ليس في موضعه الا ان الفيروزابادي -
وهو المعني بالبلدان - يسهم في تبيان شيء من ذا فيذكر لنا : التوث -
زرد - جوش - حوش - خوش - الجوسق - بزانه ^(٥) .

-
- ١ - المقدسي : احسن التقاسيم ص ٣١٨ س ١٦ .
 - ٢ - التعقيد ٢٠ : البلدان : ص ٥٥ س ١٤
 - ٣ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨
 - ٤ - الاصطخري : مسالك الممالك : ص ٢٥٥ ، السيوطي : مراصد
الاطلاع : ص ٦٠ س ٥
 - ٥ - الفيروز ابادي : القاموس المحيط : الجزء الاول : ص ١٦٨ س
٢٤ ، ص ١٦٩ س ١ ، ص ٣٠٨ س ١٣ ، الجزء الثاني : ص ٢٧٦ س ١٢ ،
ص ٢٨٠ س ٢٣ ، ص ٢٤ ، ص ٢٨٣ س ٢٤ ، الجزء الثالث : ص ٢٢٥ س
٦ ، الجزء الرابع : ص ٢٠٣ س ١٨ .

وهو شيء بالنسبة لما نص عليه عددا جد قليل نسجله بعميق
الاسف - اذ ليس في مكنتنا التوصل اليه - وهو المعول عليه في
ارسال القول باتساع الرقعة ، وكثرة الاعمال التي لها تبع والتي كانت
سببا في الوان من المناشط الخارجية لها اعتباراتها المتعددة .

التاريخ :

دخل الاسلام هذه البيئة ايام عثمان بن عفان على يد الفاتح العربي
عبد الله بن عامر (١) سنة احدى وثلاثين من الهجرة (٢) على ارجح رأي ،
ويردد ابن الاثير ذكرها في مواطن من كتابه متفرقة (٣) تشير الى انها
أضحت مسرحا لما تعاور الحياة الاسلامية في مهدها من صدام مذهبي
كانت له آثاره المحسنة ، وعلى عدم استقرار ظلت هذي البيئة تعاني منه
وتصيب غير مرة (٤) الى أن انتهى امرها بالتخريب على يد المغول عام
١٠٠٦ من الهجرة (٥) .

وتنص الروايات على ان اسفرايين قد احتوت مسجدا كبيرا به وعاء
من النحاس عظيم يبلغ محيطه اثنتي عشرة ذراعا (٦) كما انه توجد
بشمالها - كما أسلفنا - قلعة زر التي تعني قلعة الذهب .

١ - ابن حجر : تهذيب التهذيب : ج ٥ ص ٢٧٢ ، اليعقوبي :
البلدان : ص ٥٥ س ١٢ .

٢ - ابن الاثير : الكامل : الجزء الثالث : ص ٥١ ، زيني دحلان :
الفتوحات الاسلامية : ج ١ ص ١٥٥ س ٣ ، ابن خلدون : المقدمة : الجزء
الثاني من بقية الجزء الثاني : ص ١٣٢ ، اليعقوبي : البلدان : ص ٥٥ س
١٣ سنة ثلاثين .

٣ - ابن الاثير : الكامل : الجزء الحادي عشر : ص ٧٩ ، ٨٥ ، ٨٨ ،
٩٣ س ٢١ ، ١٠٢ ، ١١٤ .

٤ - الخوري : آثار الادهار : ص ٢٥ ، ٢٦ .

٥ - هيوار : دائرة المعارف الاسلامية : الجزء الثاني : ص ١٢١ .

٦ - نفسه .

ونخرج منها بان اعمالا فنية كانت توجد بها ولعلها كثيرة لم يصل الى علمنا بها الا ما ذكر ، بالاضافة الى مايعنيه وجود المسجد من تناول الالوان من المعرفة .

العلماء :

وذكر شيء من الحديث عن علمائها من الضرورة بمكان فهو يكشف عن طابع الدرس فيها الذي هو لون من الوان نتيجة ما اعتنقته من مذهب عقدي كانت تنعكس آثاره على مناح من الحياة معقدة ، ويوضح اسهامها - بما وهبها الله من امكانيات حبتها بنيتها - في ميادين من العلوم شتى لدرجة بلغت الى حد القول بانها « مخصوصة باخراج الافراد » فيما يعرض له صاحب اليتيمة (١) ، ونحن نعرض لعلمائها تبعا للترتيب الزمني ما وسعنا ذلك وبالقدر الذي يخدم ما اخذنا به انفسنا .

١ - ابو عوانة : يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم بن يزيد الاسفراييني ، صاحب الصحيح المسند (ط) المخرج على كتاب مسلم ، وهو حافظ جوال ، محدث مكثر ، طاف الشام ومصر والبصرة والكوفة ، والحجاز وواسطا والجزيرة واليمن وأصبهان وفارس والري .

ولقد سمع بمصر يونس بن عبد الاعلى وابا ابراهيم المزني ، والربيع بن سليمان ومحمدا وسعدا ابني عبد الحكيم .

وسمع بالشام يزيد بن محمد بن عبد الصمد وغيره . .

١ - الثعالبي : يتيمة الدهر : الجزء الرابع : ص ٤٣٧ .

وبالعراق الحسن الزعفراني وعمر بن شبثة ...
وبخراسان محمد بن يحيى الذهلي ، ومسلم بن
الحجاج ، وأحمد بن سعيد الدارمي ... وبالموصل
علي بن حرب الطائي .

وهذا السماع توثيق له دلالة على مكانة الرجل ، وما
يصدر عنه ، ويعد أول من ادخل المذهب الشافعي الى
هذي البيئة ^(١) وهو أمر له اهميته في الحديث عن
مذهب البيئة ، وروى عنه خلق كثير منهم سليمان
الطبراني ، وابو احمد بن عدي ، وحج خمس مرات ،
وكان من اهل الاجتهاد والطلب وكانت وفاته باسفرايين
عام ٣١٦ من الهجرة ^(٢)

٢ - ابو بكر : عبد الله بن محمد بن مسلم الاسفراييني ويروي
صاحب قلادة النحر انه كان حافظا له تصانيف . وكانت
وفاته عام ٣١٨ من الهجرة ^(٣) .

١ - ابن خلكان : وفيات الاعيان : الجزء الخامس : ص ٤٣٦ والذي
بعدها مع ملاحظة مصرية اثر ^(٤)

٢ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ وكرر
ذكره مرتين ، ابن الاثير : اللباب في تهذيب الانساب : الجزء الاول : ص
٤٣ ، اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٥٤٤ س
٢١ ، احمد عطية الله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ ،
الزركلي : الاعلام : الجزء التاسع : ص ٢٥٦ ، السبكي : طبقات الشافعية
الكبرى : الجزء الثاني : ص ٩٦ س ١ وترجم له عمر رضا كحالة : معجم
المؤلفين : الجزء الثالث عشر : ص ٢٤٢ .

٣ - اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : عمود ٤٤٤ س ٢٨ ،
عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ٦ ص ١٤١ .

٣ - ابو عمرو : احمد بن عبد العزيز بن احمد بن عبدك ، ورد بغداد حاجا عام ٣٢٢ وحدث بها عن عبد الله بن محمد العطار ، ومحمد بن علي بن ابراهيم المروزي * وروى عنه يوسف بن عمر القواس ، وابن الثلج ، ولقد حدث الحسن بن ابي طالب ، حدث يوسف بن عمر حدث ابو عمرو احمد بن عبد العزيز بن احمد بن عبدك الاسفراييني - املاء - حدث عبد الله بن محمد المروزي العطار اخبر بشر بن يحيى اخبر ابو عصمة عن يحيى بن عبيد الله عن ابيه عن ابي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تطع فينا تاجرنا ، ولا مسافرنا ، فان تاجرنا يحسب الغلاء ، ومسافرنا يكره المطر » (١) .

٤ - ابو بكر : محمد بن شريك بن محمد الاسفراييني ... سمع الحسين بن الفضل البجلي ، وطبقته بنيسابور ، وورد بغداد فكتب بها عن الحارث بن ابي اسامة ونحوه ، وخرج الى البصرة ، فسمع من ابراهيم بن فهد الساجي واقرائه ، وحج فكتب بمكة عن محمد بن علي بن زيد الصائغ ، وكان يكثر المقام بنيسابور ، وقدم بغداد بأخرة ، وحدث بها فروى عنه من اهلها ابو الحسين بن البواب المقرئ * ويروي صاحب تاريخ بغداد له حديثا : « من استخار واستشار فقد قضى ما عليه »

١ - البغدادي : تاريخ بغداد : المجلد الرابع : رقم ١٩٩٣ ص ٢٥٦

وكانت وفاته بنيسابور وحمل إلى اسفرايين ، فدفن بها
في المحرم من ٣٢٦ هـ (١) .

٥ - ابو علي : محمد بن علي بن الحسين الواعظ المعروف بابن
السقا ، حافظ جوال ، عرف بكثرة الحديث ، والتصنيف
للشيوخ والابواب ، وصحبة الصالحين من أئمة
الصوفية في اقطار الارض ، سمع بخراسان والعراق
والجزيرة والشام وبمصر وبواسط والكوفة والبصرة ،
وكتب بالري وقزوين وجرجان وطبرستان . وكانت
وفاته باسفرايين في ذي القعدة من عام ٣٧٢ من
الهجرة (٢) .

٦ - ابو حامد : احمد بن ابي طاهر محمد بن احمد - بلغ في الفقه الشافعي
درجة قال الناس عنها « لو رآه الشافعي لفرح به » وكان
يحضر الى درسه سبعمائة فقيه . وقدم بغداد ، وانتهت
اليه فيما يقال رئاسة الدنيا والدين بها ، ويروي صاحب
تاريخ بغداد عنه حديثا ينتهي سندا الى عمرو بن
العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم اذ يقول :
« لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » .
له تواليف منها :

١ - تعاليق على مختصر المزني في الفروع .

١ - البغدادي : تاريخ بغداد : المجلد الخامس : رقم ٢٨٧٧ ص
٣٥٥ س ٧ .

٢ - ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ .

٢ - التعليقة الكبرى كذا نحو حسين مجلدا .
ذكر فيها مذاهب العلماء ، وبسط أدلتها والجواب
عنها .

٣ - كتاب البستان في النواذر .

٤ - اصول الفقه .

٥ - الرونق في الفقه .

وكانت هذه الصفات مما دفع صاحب اليتيمة للقول بانه
بلغ من الفقه والتدريس مبلغا تشني به الخناصر ، وتشني
عليه الافاضل (١) وتوفي عام ٤٠٦ هـ (٢) .

٧ - ابو العباس : احمد بن الحسن الاسفراييني :

وهو مفسر ضرير له كتاب : « المصاييح في ذكر ما نزل
من القرآن في أهل البيت عليهم السلام » وهو كتاب
كبير . وكانت وفاته عام ٤١٣ هـ من الهجرة (٣) .

١ - الثعالبي : يتيمة الدهر : ج ٤ ص ٤٣٨ .
٢ - ابن خلكان : وفيات الاعيان : ج ١ ص ٥٦ ، السبكي : طبقات
الشافعية الكبرى : ج ٢ : ص ١٧ ، ص ١٠٤ ، ص ١٠٧ ، ص ١٠٨ ،
ص ١٣١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان : المجلد الاول : ص ٢٢٨ ،
اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : عمود ٧١ س ٢٠ ، عمر رضا
كحالة : معجم المؤلفين : ج ٢ ص ٦٥ ، احمد عطية الله : القاموس
الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ ، البغدادي : تاريخ بغداد : المجلد
الرابع : رقم ٢٢٣٩ ص ٣٦٨ وخالف في تاريخ وفاته اذ ذكر انها عام
٤١٠ من الهجرة .

٣ - عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ١ ص ١٩٠ .

٨ - ابو اسحاق : ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران ركن الدين:

فقيه شافعي ، متكلم أصولي ، يصفه السبكي بانه من اساطين أهل السنة والجماعة ، وهو وصف له مكاتبه ودلالته فيما سنقرر من نتائج ... بنيت له المدرسة المشهورة بنيسابور ، له تواليف منها :

١ - ادب الجدل .

٢ - الجامع الحلي والخفي في أصول الدين والرد على الملحدين في خمس مجلدات .

٣ - العقيدة شرح فروع ابن الحداد .

٤ - معالم الاسلام .

٥ - نور العين في مشهد الحسين .

٦ - رسالة تنسب اليه .

وكانت وفاته بنيسابور يوم عاشوراء من عام ٤١٨ هـ من الهجرة (١) .

٩ - ابو الحسن علي بن احمد السهيلي الاسفراييني ،

فقيه متكلم ، جدلي محدث ، حدث بالجامع الاموي في دمشق عام ٤٣١ هـ من الهجرة ، ومن آثاره أدب الجدل ،

١ - القلقشندي : صبح الاعشي : ج ٢ ص ٣٩١ ، السبكي : طبقات الشافعية الكبرى : ج ٢ ص ١٣٣ ، ٢٨٩ ، ٣١٥ . اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الاول : ١٠٨ . وردد بعضا من آرائه السيوطي : الزهر : ج ١ ص ٢٠ س ٧ ، ص ٢١ س ٣ ، ص ٦٣ س ١٥ .

وكتاب في الرد على المعتزلة وبيان عجزهم (١) .

١٠ - أبو القاسم عبد الجبار بن علي الاسكاف المعروف بالاسفراييني ،
فقيه شافعي ، له مصنفات في الاصلين والجدل . وكانت
وفاته عام ٤٥٢ من الهجرة (٢) .

١١ - أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد الاسفراييني ،

ترجم له الكثير وهو امام أصولي ، فقيه شافعي مفسر ،
وصنف في الاصول وسافر في طلب العلم ، وحصل
الكثير ، له من المصنفات :

١ - التبصير في الدين (ط)

٢ - تمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين .

٣ - تاج التراجم في تفسير القرآن للاعاجم .

وكافت وفاته عام ٤٧١ من الهجرة (٣) .

١٢ - أبو يوسف يعقوب بن سليمان خازن كتب المدرسة النظامية .
له تأليف :

١ - عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : الجزء السابع : ص ١٧ .

٢ - اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : عمود ٤٩١ س ٧ .

٣ - ترجم له في ذيل تاريخ نيسابور لعبد القافر الفارسي ، ابن
عساكر في « تبين كذب المفترى في ما نسب الى الامام الاشعري » ، وابن
السبكي في الشافعية الكبرى ، وصاحب طبقات المفسرين الداودي ص ٦
من كتاب التبصير : ترجمة محمد زاهد الكوثري . عمر رضا كحالة :
معجم المؤلفين : الجزء الرابع : ص ٣١٠ « شهفور » ، الجزء الخامس :
ص ٣٨ « شاهفور » .

- ١ - بدائع الاخبار وروائع الاشعار •
- ٢ - سير الخلافة •
- ٣ - شرائط الخلافة •
- ٤ - قلائد الحكم وفرائد الكلم من كلام علي بن ابي طالب كرم الله وجهه •
- ٥ - محاسن الاداب •
- ٦ - المستظهري في الامامة شرائط الخلافة •
وكانت وفاته عام ٤٨٨ من الهجرة (١) •
- ١٣ - ابو الطيب احمد بن محمد بن حمدان •
وصفه القفطي بانه شيخ العربية في زمانه ، وامام اهل اللغة والنحو في أوانه •
كان بخراسان ، وربما روى الحديث • وكانت وفاته بعد عام ٤٠٠ من الهجرة (٢) •
- ١٤ - ابو الفتوح محمد بن الفضل بن محمد بن المعتد المعروف بالمعتد الواعظ •
شافعي صوفي ، صنف :
١ - بث الاسرار •

١ - اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٥٤٥ س ٢١ ، الزركلي : الاعلام : الجزء التاسع : ص ٤٨٨ •
٢ - القفطي : انباه الرواة ، الجزء الاول : ص ٥٥٤ •

٢ - كشف الاسرار في التصوف •

٣ - نثار القلوب كذا •

وكانت وفاته عام ٥٣٨ من الهجرة (١) •

١٥ - سعد الدين بن محمد بن عمر بن محمد بن علي :

له تأليف :

١ - زبدة الاعمال وخلاصة الافعال في التاريخ •

٢ - مختصر تاريخ ابي الوليد الازرقى •

وكانت وفاته عام ٥٨١ من الهجرة (٢) •

١٦ - علاء الدين محمد بن احمد البهنسي وله تصانيف :

١ - شرح القصيدة الطنطراية •

٢ - المآرب في شرح الاداب للسمرقندي •

وكانت وفاته عام ٧٤٩ من الهجرة (٣) •

١٧ - فخر الدين محمد بن علي النيسابوري لا يعرف عنه سوى أنه صنف

شرح الفصول الايلاقية في الطب • وكانت وفاته عام ٧٦٠ من الهجرة (٤)

١ - اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٨٨
س ٢٨ ، ترجم له ابن السبكي طبقات الشافعية الكبرى ، القزويني : آثار
البلاد : ص ٢٩٥ •

٢ - اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ١٠١
س ١١ •

٣ - اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الثاني : عمود ٥٦
س ٨ •

٤ - المصدر السابق : عمود ١٦١ س ٢٣ •

١٨ - العصام ابراهيم بن محمد بن عرب شاه (١) الحنفي .

ولد باسفرايين ، واشتغل بعلوم اللغة ، وله من المؤلفات
كثيرها ، وقد امكن البحث من تحقيق مجموعة منها :

١ - اطول: كتاب في علم البلاغة، وهو شرح للتلخيص
وقد طبع في مجلد (٢) .

٢ - شرح الرسالة الوضعية العضدية للايجي (٣) .

٣ - شرح السمرقندية لأبي الليث السمرقندي (٤) .

٤ - شرح فرائد الفوائد المعروفة برسالة الاستعارات

لابي الليث السمرقندي (٥) .

٥ - حاشية على شرح قطب الدين الرازي على الرسالة

الشمسية في المنطق لنجم الدين القزويني (٦) .

١ - هناك شارعان بمنطقة سيدى جابر بالاسكندرية أحدهما يحمل
عنوان ابن عرب شاه ، والآخر ابن وصيا شاه ، والنظر في هذا يطرح
افتراضين أما أن صاحبي هذين الاسمين قد ورد الاسكندرية وهذا ليدل
على أن تأثيرا وتأثرا قد تم على نحو ما ، وأما أن ذكرهما قد وصل الى
الاسكندرية بسبب وفاة كلتا الحالتين دلالة على بعد صيتهما ومدى تأثيرهما
الذي ربما تسنح له الفرصة بتحقيق شيء منه .

٢ - طبعة السيد أحمد كمال - ط تحت رقم ٣ ، ٤ بلاغة ، خ تحت
رقم ٥٧٤٥ هـ بدار الكتب المصرية .

٣ - خ تحت رقم ٣٤٣٣ ج بدار الكتب المصرية .

٤ - خ تحت رقم ٤٨٥٨ بدار الكتب المصرية .

٥ - خ تحت رقم ٤٢٩٢ بدار الكتب المصرية .

٦ - خ تحت رقم ٤٠٧٠ و بدار الكتب المصرية .

- ٦ - حاشية على تفسير البيضاوي المسمى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » (١) .
- ٧ - حاشية على الفوائد الضيائية للجامي على الكافية لابن الحاجب (٢) .
- ٨ - حواش على تهذيب المنطق لسعد الدين التفتازاني المتوفي عام ٧٩٢ من الهجرة (٣) .
- ٩ - رسالة على مبحث التلخيص : « وقد يقدم ليفيد تحضيض (٤) بالخبر الفعلي ، نحو « ما انا قلت هذا » (٥) .
- ١٠ - رسالة في المنطق (٦) .
- ١١ - شرح الشبائل في حقوق افضل الورى وأقوى الدلائل .
- ١٢ - حاشية على جزء النبأ .
- ١٣ - حاشية على شرح المواقف .
- ١٤ - حاشية على شرح عقائد النسفية .

-
- ١ - تحت رقم ٢٣٥١٩ ب + ٢١٢٠٠ ب بدار الكتب المصرية .
- ٢ - خ تحت رقم ٥٩٨١ ه بدار الكتب المصرية .
- ٣ - خ تحت رقم ٤١٢٢ و بدار الكتب المصرية .
- ٤ - هكذا وردت ولعلها « تخصيصا » .
- ٥ - خ تحت رقم ٥٦٧٠ ه بدار الكتب المصرية .
- ٦ - خ تحت رقم ٢١٨٤٤ ب بدار الكتب المصرية .

- ١٥ - حاشية على كليات المطالع •
- ١٦ - شرح تهذيب المنطق •
- ١٧ - شرح الشافية في الصرف •
- ١٨ - شرح الطوالع •
- ١٩ - شرح العوامل للجرجاني •
- ٢٠ - شرح القصارى •
- ٢١ - شرح الكافية عارض به الرضي •
- ٢٢ - مختصر في النحو •
- ٢٣ - شرح المختصر المذكور (١) •
- وكانت وفاة هذا العالم الجليل في ٩٤٤ من الهجرة (٢) •
- ١٩ - ابو الحسن محمد بن الحسين بن محمد •
- شاعر عربي له ديوان شعر (٣) •

-
- ١ - هو وما قبله انفرد بذكرها اسماعيل البغدادي : هدية العارفين : المجلد الاول : عمود ٢٦ س ٢٥ ، ومع كثرة هذي الكتب التي آثرنا ايرادها لما فيها من دلالة واسهام ، الا ان هذا الرجل لم يحظ بمن يقف عليه او يفرد له بحثا وهو - كما هو باد من هذي المصنفات - موسوعة اقل ما يقال فيها أنها حرية بالنظر ، بالاضافة الى ما يعنيه البحث من كشف عن بيان قدر ما من الاتصال بين بيئتي اسفرايين والاسكندرية .
 - ٢ - انظر عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ٢ ص ١٠١ ، أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ ، ولم يتفق واحد منهم على تاريخ •
 - ٣ - أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي : المجلد الاول : ص ٩٨ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين : ج ٩ ص ٢٥٦ •

٢٠ - تاج الدين محمد بن احمد الاسفراييني ،

ت ٦٨٤ هـ اخرناه واعدين بافراد حديث عنه وهو نحوي
كاد يضيع في ظلمات التاريخ .

اذن فهذه البيئة بيئة علم خرجت افذاذ العلماء ، اشتهروا على مر
التاريخ بما لهم من ذبوع ذكر ، وتداول مصنف ، وحرى بيئة العلم الا
تخرج سواهم ، بالاضافة الى أن منهم من تنقل ففاد وفاد ، والى ماتخلصنا
اليه اشارات ابن الاثير من ان عناصر توافدت عليها ، وربما استقرت في
ربوعها الامر الذي يؤكد طرفا منه صاحب البلدان (١) اذ يروي ان
اهلها اخلاط من العرب والعجم ، فكان لذلك كله آثاره البعيدة في
ثقافة البيئة العامة ، ولم يكن ذلك الامتياز قصرا على العلم بل كان هناك
من بلغ في الحياة السياسية أسبابا اشار الى طرف منهم صاحب
اليتيمة (٢) .

وتصطبغ طبائع الدرس العامة عندهم بما برع في سائر العجم من
ميل الى ما هو من الجدل والتعقيد والرواية بسبب ، وهو اكثر تفشيا
مما هو متعلق بسائر الدرس الذي يحتاج الى اعمال العقل ، والحس
المتطلب لعربي الفطرة .

وانحصر تفننهم في هذه الفنون ، فاهتداء الايرانيين الى استنباط
المقاييس التي سموها بعلوم الحديث ، وفرغوا لها تدريسا وتدوينا ، وبها
انتقل من دور الرواية الى دور الدراية لون من الوان التعقيد ، وما قام

١ - اليعقوبي : البلدان : ص ٥٥ .

٢ - الشعالي : اليتيمة ج ٤ ص ٤٣٧ .

به الامام ابو حنيفة من ادخال الرأي والقياس في علم الفقه انما هي محاولة تقنين (١) .

وبالنظر في هذي المؤلفات التي خلفها علماء بيئة اسفرايين ، نجدها مزاجا من طبائع الدرس الشيعي والدرس السني ،، اذ ان دراسة المنطق وعلم الكلام الى جانب دراسة الفقه وعلم الاصول هي الدراسة الشيعية التقليدية التي تنمي ملكة الجدل ، وقوة الاستدلال ، والدراسة السنية تتبع طريقا آخر يقوم على دراسة الفقه والاصول والحديث والتفسير واللغة والادب (٢) وان كان طابع الدرس السني - بهذا المفهوم - عليها اغلب ، وفيها اكثر شيوعا .

المقيدة :

وبالاختكام الى المصادر تبدو امامنا روايتان :
الاولى : يرويها المقدسني اذ يذكر ان اسفرايين شفعوية . (٣)
الاخري : ينقلها هيوار اذ يذكر ان سكانها من الشيعة . (٤)

وبما نوهنا من خصائص الدرسين وما بينهما من تغاير ، وما افادت الروايات من ان المذهب الشافعي لم يدخل هذه البيئة قبل القرن الرابع من الهجرة ، نجد ان اسفرايين كانت اول امرها شيعية ، او انها اتخذت الشيعة - وجل العجم من الشيعة - موقفا سياسيا ، وكانت لها الشافعية

١ - يراجع محاضرات عن الشعر الفارسي والحضارة الاسلامية في ايران ص ٩٥ - ٩٦ .

٢ - الدكتور محمد محمد حسين : محاضرة الاسلام والحضارة الغربية : المحاضرة الثانية ص ٢٤ .

٣ - المقدسني : احسن التقاسيم : ص ٣٢٣ س ٨ - ٩ .

٤ - دائرة المعارف الاسلامية : ج ٢ ص ١٢١ .

أصولا وفروعا — موقفا تعبديا ، واخذت تردد اصداء ذلك كله فيما وصل
لنا من درس مزاجا يحظى فيه جانب الدرس السني ممثلا في المذهب
الشافعي بكبير نصيب •

ومؤلفاتهم دليل على ذلك ، فما كان منها — تظهر فيه الميول
الشيعة — ليس فيها من شيء الا هذه الروح العامة ، فهي من حديث عن
فضائل اهل البيت الى جمع لمأثورات الامام علي ، بل ان مؤلف « نور
العين في مشهد الحسين » من وصف بانه من اساطين اهل السنة
والجماعة ، ومن ثم لا يروعا احاديث عما يمت للخلافة بسبب من سير
وشرائط •

ويؤكد هذا القول — الى جانب ما اختلفنا وهو في القضية أصيل
أمران :

الامر الاول : ما يرويه المقدسي — وهو الجواب — من انه سأل
يوما اهل ابورد (١) انتم قوم على مذهب الشافعي رحمه الله — والامر
لكم في بلادكم فلم لا تسلمون الميت سلا ؟ — وكانوا يأخذونه من قبل
القبلة عند الدفن •

قالوا : « ما كنا لتابع الشيعة ، ونخالف المسلمين » •

فكأنهم يرون اتباع الشيعة — تعبديا — مخالفة للمسلمين ، فاذا كان
هذا حالهم في الفروع ، فان رفض الاصول اخرى في هذا المناط من
الحكم •

١ — هي واسفرايين من اعمال نيسابور •

الامر الثاني : ما تنقله المصادر لنا من ان نيسابور - وهي التي تتبعها اسفرايين - هي التي شيدت اول مدرسة في العالم الاسلامي ، والتي بنيت للعالم ابي اسحاق الاسفراييني ٤١٨ هـ. وان هذه الحركة نشأت في كنف الشافعية في القسم الشرقي من العالم الاسلامي (١) ويعد هذا بمثابة رد فعل لمنهج الشيعة الذين اختطوا التعليم سبيلا لبث دعاواهم (٢) .

من هذا كله نخلص الى ان اسفرايين سادتها الشيعة روحا عامة للعجم جميعا وكان لها من الشافعية المذهب التعبدي - اصولا وفروعا.

الدكتور محمد بدري عبد الجليل

قسم اللغة العربية - كلية الاداب -
جامعة الاسكندرية



١ و ٢ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : الجزء الاول ص ٤ س ٣ ،
حسين امين : المدرسة المستنصرية : ص ٢١ - ٢٢ - ٢٧ .

الاسفرايينى

نعمى كاد يضيع في ظلمات التاريخ

بقلم الدكتور محمد بدري عبد الجليل

كلية الاداب - جامعة الاسكندرية

من علماء بيئة اسفرايين محمد بن محمد بن احمد تاج الدين الذي توفي عام ٦٨٤ من الهجرة الموافقة ١٢٨٥ من الميلاد ، ولم تنص المصادر التي بين ايدينا على شيء من الحديث عنه بل نص صاحب البغية صراحة على انه لم يقف له على ترجمة (١) ولا يعرف عنه سوى انه صاحب اللباب (٢) .

واذا كان للبيئة العامة - التي لها عرضنا في الحديث السابق - شيء من أثر في صاحبنا فان هناك البيئة الخاصة التي هي اعمق اثرا

١ - السيوطي : بغية الوعاة : ص ٩٤ .

٢ - حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : عمود ١٥٤٣ ، طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٤٩ ، جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية : الجزء الثالث : ص ١٤٧ ، اليسوعي : معجم المنجد : ص ٤٥٨ وذكر كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الجزء الاول ص ٩٦ ثم ص ٤٣٨ .

وانجع تشكيلا ، فاسهت في تكوينه ، وشكلت شخصيته ، وحددت نون
دراسته فنحا هذا المنحى من العمل ، يعيننا على هذا ما ينقله عن جده
فيما اشار له في الدرس النحوي اذ يقول في غير كتاب « وذكر جدي
رحمه الله في تعليل اعراب هذه «الاسماء» الاسماء الخمسة -
بالحروف وجها حقا » (١) .

ومع ضالة المادة في هذا الصدد الا انها كافية للامحاح عن بيئته
الخاصة ، ومن ثم فلقد توافر لهذا الرجل خصوبة البيئة العامة والبيئة
الخاصة التي أهلتها لان ينفرد بما صدر عنه من عمل .

اعماله :

ومما اخذ القلم به نفسه - في عرض ما وصل لنا منه - ما يربط
بين هذي المصنفات سببا من اسباب التأليف ، وبعد كثير من العمل كان :

١ - المفتاح : ويبدو انه اول ما ألف الاسفراييني . ولا نعرف من
أمر هذا الكتاب شيئا أو نكاد يبد أنه اشار هو نفسه الى هذا المؤلف
في رسالته « فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة » (٢) .

اذ يقول : « وقد استقصينا هذه المسائل في كتابنا المترجم بالمفتاح
في شرح المصباح » ، والمصباح كتاب في النحو للمطرزي (٣) .

١ - الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : ص ١٠٥
س ١٩ ، الاسفراييني : الضوء على المصباح : نسخة الازهر : ورقة ٢٤
ص (٢) س ٩ .

٢ - الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : ص ٦ س ١٢ .
٣ - هو ناصر بن عبد السيد بن علي بن المطرز بالفتح ابو الفتح
النحوي ، انظر : حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني من المجلد
الثاني : عمود ١٧٠٨ . طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة : الجزء الاول :
ص ١٠٨ ، ووصف الكتاب بانه مشهور في ايدي الناس .

٢ - الضوء : وهو مختصر للمفتاح ^(١) وأشار اليه المؤلف في كتابه حواشي الباب ^(٢) اذ يقول : « وقد لخصته في ضوء المصباح » .

اذن فالكتابان شرح للمصباح، ولعبارتي «استقصينا» عن المفتاح، و«لخصته» عن الضوء دلالة على سعة الاول واختصار الثاني ^(٣) ..

وهذا المختصر شائع النسخ كثيرها ^(٤) وقد عرف بأنه شرح بالقول على المصباح . واول ما يلاحظ على الكتاب هذي التسمية ، وهي ليست بدعا في هذا العصر الذي صدر فيه فلقد شهد القرن السابع من الهجرة

١ - طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٠٨ - ص ١٥٦ .

٢ - الاسفراييني : حواشي الباب : ص ١٧ س ٩ .

٣ - يذكر كارل بروكلمان انه اتم تأليفه في ٦٨٤ من الهجرة ونقول: انها السنة التي توفي فيها صاحبنا واذا كان ذلك صحيحا فان الرجل قد نشط للتأليف في اخريات حياته اذ ان حواشي الباب الفت بعد الضوء لانه اشار فيها الى الضوء .

٤ - هذه النسخ كثيرة ففي مكتبة الازهر بمصر : الفهرست : الجزء الرابع ص ٢٧٤-٢٧٥ .

١ - نسخة (خ) في مجلد بقلم فارسي ، بأولها نقص وبها آثار رطوبة وبهامشها وبين سطورها في ١١٤ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطرا - ١٧ سم تحت رقم (١١٢) ١١١٧ .

٢ - نسخة (خ) ضمن مجموعة في مجلد بقلم معتاد قديم بخط محمد ابن عيسى بن يوسف سنة ٩٤٢ هـ ، مجدولة بالمداد الاحمر ، بهامشها وبين سطورها حواش ، وبها خروم ، مسطرتها ١٢ سطرا (من ورقة ١-١٣٨) سم تحت رقم (١٨٢) ١١٨٧ .

٣ - نسخة (خ) في مجلد بقلم معتاد قديم ، بخط عبد الله عبد اللطيف سنة ٧٦٠ هـ ، بها خرم واثار رطوبة وترميم في ١٠٨ ورقة ومسطرتها ١٧ سطرا - ١٦ سم تحت رقم (٢١٥) ١٣٤٨ .



كثيرا من الكتب التي تحمل هذا الاسم عنوانا لها ودليلا عليها (١) .
 اما نسخ الكتاب فهي كثيرة تسمح بالتحقيق :
 اولها (٢) نسخة بقلم معتاد بهامشها وبين سطورها تعليقات
 وتفسيرات كثيرة ، وبأولها تمليكات وتقع في ١٧٤ ورقة ومسطرتها ٩
 اسطر ، وبين اوراقها خلط ، وترقيمها حديث ، وأظنه من بعض مفرسي
 دار الكتب المصرية ، فقد وضع ورقة مكان اخرى ولا يدرك ذلك الا
 بالمقارنة .

وهذه النسخة ان لم تكن الاصل فهي اقدم ما وصل اليها - الامر
 الذي دفع بروكلمان الى النص على انها بمعرفة نفس المؤلف . (٣)



- ٤ - نسخة في مجلد بقلم معتاد ، بها اكل أرضة في ١٣٠ ورقة
 ومسطرتها ١٧ سطرا - ٢ سم تحت رقم (٩١٥) اباظة ٦٤٦٥ .
- ٥ - نسخة اخرى في مجلد بقلم معتاد في ١٢٢ ورقة ، ومسطرتها
 ٢١ سطرا - ٢٣ سم تحت رقم (١٠٥٢) ٨٥٢٧ .
- ٦ - نسخة في مجلد بقلم معتاد سنة ١١١١ هـ بآخرها وقفة كاتب هـ
 وبهامش بعض اوراقها حواش ، في ١٤٧ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطرا -
 ٢١ سم - تحت رقم (٢٢٨٠) رافعي ٢٧١٨٥ .
- ٧ - نسخة ضمن مجموعة بقلم فارسي بهامش بعض اوراقها حواش
 مسطرتها ١٣ سطرا (من ورقة ١ - ١٠٩) ٢ سم تحت رقم ٢٣٥٥ السقا
 ٢٨٦٨٣ .

١ - من هذا :

- ١ - كتاب لب الالباب في شرح ابيات الكتاب للشيخ سليمان بن بنين
 ٦١٩ - ٦٩٤ .
- ٢ - كتاب اللباب في علل البناء والاعراب للعكبري البغدادي المتوفي
 ٦١٦ هـ .
- ٣ - لباب الاشارات للفخر الرازي هذب فيسه اشارات ابن سينا
 ٦٠٦ من الهجرة .
- ٢ - تحت رقم ٥٤١ (٥٧٤١ هـ) من دار الكتب المصرية - وهي ليست
 في موضعها الان .

٣ - بروكلمان : الملحق : ج ١ ص ٥٢٠ .

ثانيها : نسخة كتبها مصطفى عبد الواحد في شهر شعبان عام ٧٨٠ من الهجرة ، وهي التي عليها عولت وعنها اخذت * (١)

ثالثها : نسخة بقلم عادي كتبت عام ٨٨٥ من الهجرة * (٢)

رابعها : نسخة اخرى كتبت عام ٧٧٥ من الهجرة * (٣)

خامسها : نسخة اخرى تحوي كتاين : أحدهما «اللباب» والاخر «لب الالباب» (٤) *

٤ - حواشي اللباب : واسمه يعلن عن الرابطة بينه وبين سابقه ، ويذكر صاحبي في مقدمته الدافع الذي من اجله كان هذا الصنيع فيقول : « لما فرغت من انشاء لباب الاعراب ، وضبط معاقده وقضيت لبائتي من ربط أوابده ، لم أرد أن يكون مسائله غفلا عن تنمة الايضاح ، عطلا من حلية الافصاح .. فأخذت في تعليق حواشي تجري مجرى الشرح لبعض مشكلاته » (٥) *

١ - تحت رقم ٢٥٦ نحو - دار الكتب المصرية .

٢ - تحت رقم (ن ٢٢٣٧١) مكتبة محافظة الاسكندرية .

٣ - تحت رقم (٣٩٨ نحو) وهي بالمكتبة التيمورية وقد قامت كلية الاداب بجامعة الاسكندرية بطلبها من معهد المخطوطات العربية تصويرا وجاءت ولاخطاء عادت .

٤ - تحت رقم ٣٦٩ نحو - دار الكتب المصرية .

يعد بروكلمان مع خلط في التسمية بين اللباب ولب الالباب - ج ١ ص ٩٦ - جوتة (٢٨٤) - ليدن (١٩٨) - فينا (١٨٣) انجلترا (١٨٤)، وقد قامت مكتبة لندن - قسم الدراسات الشرقية باهدائنا هذه النسخة تصويرا وهي لدينا ولعل الزمن يسمح بتحقيقها ، وهي ليست كاملة ولكن تمثل ما يعدل ثلثي الاصل - أمبروزو (١٥٠) - الجزائر (١٣٤ - ١٣٥) - اياصوفيا (٤٥٧٦ - ٤٥٧٧) .

٥ - نسخة تحت رقم (١٣ نحوم) بدار الكتب المصرية ، مسطرتها


(١٧) سطرًا .

فالكتاب اذن بسط لبعض مما ارتآه مجملا في لبابه ، من نسبة رأي لصاحبه او قول لقائله الى عرض اسباب شاهد وما الى ذلك .. ولم يرد ذكر هذا الكتاب ضمن كتب الاسفراييني التي نص عليها المعنيون بالترجمة .

٥ - لب الالباب : وكان هذا الكتاب مثار خلط وشك لدى كثير ممن اخذ عن هذا او ترجم لصاحبه ، والباعث على ذلك - فيما نرى - سببان :

١ - وجود كتب تشارك هذا الكتاب في عنوانه وميدانه (١) .

٢ - الخلط بينه وبين الباب (٢) .

والتحقيق ان الكتاب كتاب وحده مغاير لما عداه مما اشترك معه في العنوان او الميدان ، ويعقد الاسفراييني في مقدمة الكتاب حديثا عن السبب في تأليفه ، والباعث على عقده اذ انه اراد اتحاف الوزير شمس الدين صاحب الديوان  .

١ - لب الالباب : البيضاوي : وهي رسالة في علم الاعراب - وانتبه لهذا البغدادي : خزانة الادب : في استشهاده اذ انه حرص على التمييز بينهما . فحينما يعرض لما نحن فيه يقول « صاحب الباب » اما عند تعرضه لرسالة البيضاوي فيذكر وفي لب البيضاوي - وان كان اظهارا للبيضاوي .. كذلك هناك من شرح الكتابين (السيد عبد الله ..) فينشأ الخلط في قول المستشهد « شارحه » فلا يدري ايهما عني .

٢ - بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ج ١ ص ٢٩٢ - الملحق : ٥٢٠ يكتبه بهذه الصور : لب - لباب - الباب - تقديم طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : ذكر اللب على الباب دليل على الخلط .

٣ - حاجي خليفة : كشف الظنون : ج ٢ ص ١٥٤٣ ، ترجم له : ابن العماد : شذرات الذهب : ج ٥ ص ٢٨١ - عباس الفزاوي : تاريخ

ولهذا الاهداء دلالاته اذ يمكننا القول بان الرجل كان على قدر ما من الاتصال بسياسة عصره تمثل في هذا الرجل الذي حفلت حياته بما هو مدون بكتب التاريخ بيد ان نهايته لم تكن كما كان متوقعا لمثله فقد انتهت حياته بقتله ، ولعل في هذه النهاية شيئا من الارتباط بمصير الاسفراييني الذي لم يعرف عن اجتماعياته شيء غير ان الرواية تفيد ان كليهما قد انتهى امره في ٦٨٤ هـ .

لم يكن بد من هذي اللقطة التي تلقي لونا من الضوء يفسر شيئا من غموض اخبار هذا الرجل ، ثم يقرر الاسفراييني « فاخترت له من العلوم علم النحو » ^(١) وكأني به اختار له من كتبه كتابه اللباب فاختصره له ويعينني على هذا الامر ظاهرتان :

الاولى : استقراء ما في اللب يؤكد انه صدى لنهجه في اللباب .

الثانية : وجود مجلد يحوي الكتابين .

اما نسخ الكتاب التي اطلعنا عليها فهي :

الاولى : نسخة تحوي كتاب اللباب ولب الالباب ، وقد سلفست الاشارة اليها (٢) .

الثانية : نسخة كتبت عام ٧٧٤ من الهجرة (٣) .



العراق بين احتلالين : حكومة المفلح : ص ٣٢٥ ، ونقل هذا الاخير عن خواندمير : دستور الوزراء ، وحكى وفاته ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ص ٢٩٨ .

١ - الاسفراييني : لب الالباب : مقدمة الكتاب .

٢ - نسخة (خ) تحت رقم (٢٦٩ نحو) دار الكتب المصرية .

٣ - نسخة (خ) تحت رقم (ن - ٢٤٧٢ د) مكتبة محافظة الاسكندرية .

الثالثة : نسخة كتبت بقلم نسخ عام ٧٥٩ من الهجرة وعليها هوامش كثيرة (١) .

٦ - فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : وهذا العنوان مطابق لما عنوان به اذ ان الرجل اراد الى اعراب الفاتحة ، ومن خلال هذا الاعراب كان الحديث كتابا كاملا في النحو (٢) . ونلاحظ في هذا الكتاب نقطتين هامتين :

الاولى : وتتمثل في يقظة الرجل التي بدت من خلال قوله « واما ما لم اتعرض لذكره في هذا الكتاب من الابواب التي جرت العادة بايرادها في كتب الاعراب كالتكسير والتصغير والنسب والامالة والادغام والاعلال والوقف وغيرها فهو في الحقيقة كالدخيل في هذا العلم » (٣) .

وان كان قد ذكر شيئا من ذلك في كتابه «اللباب» اذ يشير صدد حديثه عن غير العاملة في الحروف - الى ان ذكرها استطراد (٤) الا انه امتاز هنا - فيما نحن بصددده - بالنص عليه صراحة وفي مقدمة الكتاب .

الاخري : وتبدو في اسناده رأيا الى جده (٥) - الامر الذي قرر

-
- ١ - نسخة (خ) تحت رقم (ن - ٣٧٤٢ ج) مكتبة محافظة الاسكندرية
 - ٢ - الاسفراييني فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : نسخة (خ) كتبها محمد بن محمود بن رجب بن عمر بن محمود الحافظ الشيرازي عام ٨٢٥هـ - تحت رقم (٦١) م بدار الكتب المصرية .
 - ٣ - الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : المقدمة .
 - ٤ - الاسفراييني : اللباب : ورقة (١٣٥) - ص ٢ - س ٥ .
 - ٥ - الاسفراييني : فاتحة الاعراب باعراب الفاتحة : ص ١٠٥ س ١٩

لنا بيئة خاصة اخذت من العلم قدرا ونوعا بنصيب فيما اسلفنا القول فيه .

٧ - رسالة في الجملة الخبرية : وهي امال له تقسع في اربع صفحات ، ومسطرتها اربعة عشر سطرا ^(١) ، وهي عبارة عن حديث عن الجمل التي لها محل من الاعراب ، والجمل التي ليس لها محل ، ولايعنينا شيء بقدر مايعنينا انها من اماليه وللعبارة دلالتها يزيد من قوتها ما يختم به رسالته اذ يقول : « فهذه عجالة الوقت مما سئلت ، واقترحست من الكلام » .

فهو رجل مقصد للطلاب ، يؤتى اليه ، ويؤخذ عنه .

٨ - شرح القصيدة الطنطراية ^(٢) وهذا الشرح لم تتمكن من الاطلاع عليه اذ ان الكتاب ليس في مكانه من مكتبة الازهر ، الا انه وصف بفهرسها بانه ضمن - مع بيان المعني - اللطائف البيانية، والنكت البلاغة ، والملح الغزلية ، والمدائح النبوية ^(٣) .

١ - نسخة تحت رقم (٦٣٧) مجاميع بدار الكتب المصرية ، وذكرها كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الملحق من الجزء الاول : ص ٥٢٠ .

٢ - الزركلي : الاعلام : الجزء العاشر : «المستدرك» ص ٢٢٥ نقلا عن فهرست الازهر ، فهرست المكتبة الازهرية : الجزء الخامس : ص ١٥١ - وصفها الفهرست بانها نسخة ضمن مجموعة بخط نعمة الله بن احمد الغساني عام ٩٤٠ من الهجرة ، مسطرتها (٢٧) سطرا في (٤) ورقات تحت رقم (٤١٧) مجاميع .

٣ - القصيدة نظمها معين الدين ابو نصر احمد بن عبد الرزاق الطنطراي المراغي المتوفى عام ٤٨٥ هـ في مدح الوزير نظام الملك .

هذا ما امكن من البحث من مصنفات الاسفراييني ، ومكان وجودها بمكتباتنا في مصر يقينا اما غيرها فان ما ورد من ارقام غير موثوق به تماما ، وذلك يتضح من مضاهاة ما ورد بها من رقم بما هو موجود لدينا ، وهو أمر واضح لدى بروكلمان .

آثره في التأليف النحوي :

كانت لهذه الاعمال التي أثرت عن هذا الرجل آثارها سواء أكانت هذي الآثار آراء اخذت عنه ورددها النحاة في غير موضع أم كانت خدمات قام بها اناس وقفوا عليه ، وأفردوا له .

وبالتبع رد صاحب الخزانة آراء للأسفراييني عن «اللباب» استشهدا بها في احد عشر موضعاً^(١) ، وعن «اللب» في ستة مواضع^(٢) ، وصاحب الهمع يذكر صاحب اللباب في موضعين^(٣) ، واللب في موضع^(٤) ، وصاحب الضرائر يذكر كلا منهما في موضعين^(٥) ، بالإضافة الى متفرقات بحاشية الامير^(٦) وبشرح المغني وشواهد^(٧) .

١ - البغدادي : خزانة الادب : الجزء الاول : ص ٢١٨ - ٢٨٦ -
الجزء الثاني : ص ١٩١ - ص ٣٤٠ - الجزء الثالث : ص ١٠٢ - ص ٢٣١ -
الجزء الرابع : ص ٧ - ص ١٥٠ - ص ١٥٨ .

٢ - البغدادي : خزانة الادب : الجزء الاول : ص ٣٦٨ - الجزء الثالث : ص ١٠٣ س ١٤ - الجزء الرابع : ص ٩٦ س ١٨ - ص ١٢٧ - ص ١٣٠ - ص ٢٤١ .

٣ - السيوطي : همع الهوامع : الجزء الاول : ص ٣ - ص ٢٤٧ .

٤ - السيوطي : همع الهوامع : الجزء الاول : ص ٣ .

٥ - اللوسي : الضرائر : (اللباب) ص ٢١٩ س ١٠ - ص ٢٣٩ س ١٧ (اللب) ص ٣٤ - ص ١٩٨ س ٢

٦ - الامير : حاشية على المغني لابن هشام .

٧ - اسماعيل الصاوي : شرح المغني وشواهد .

وهو ذكر له اهميته في اثر الرجل في الدرس النحوي ...
اما الخدمات فلقد لقي منها ما يدل على فائق العناية به فمما وجدنا
لللباب :

١ - شرح لم يعلم مؤلفه بقلم نسخ قديم (١) .

٢ - شرح لمحمد بن عثمان بن محمد بن ابي علي العرض الزوزني
كتبه في عام ٨٤٢ من الهجرة (٢) .

٣ - شرح بعنوان العباب في شرح اللباب لجمال الدين عبد الله بن
محمد الحسيني المعروف بنقرة كار (٣) من علماء القرن الثامن الهجري ،
أتم تأليفه في شهر جمادي الاولى من عام ٧٣٥ من الهجرة ، أوله :
« الحمد لله الذي له الكلمة العليا والاسماء الحسنى .. » وخطه محمد
ابن ابي بكر بن علي الحسن السيوطي . فرغ من كتابته في شهر جمادي
الاولى عام ٨١٧ من الهجرة (٤) .

- نسخة اخرى من الشرح السابق محذوفة الخطبة بقلم معتاد تمت
كتابتها عام ١١١٠ من الهجرة (٥) .

١ - نسخة في مجلد تحت رقم (١٢٩٣ب) مكتبة محافظة الاسكندرية .
٢ - نسخة مصورة من مكتبة سوهاج - لدى معهد المخطوطات
العربية .

٣ - طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٤٩ -
اليسوعي : معجم المنجد : ص ٤٥٨ - حاجي خليفة : كشف الظنون -
بروكلمان : تاريخ الادب العربي : اتفقا في تاريخ وفاته وهو عام ٧٧٦ من
الهجرة .

٤ - نسخة (خ) تحت رقم ١٩٢ بدار الكتب المصرية ، ذكر هذا الشرح
طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٥٠ :
٥ - نسخة (خ) تحت رقم (٤٥م) بدار الكتب المصرية .. وهناك نسخ
منه عدها كارل بروكلمان .

٤ - شرح لقطب الدين محمد بن مسعود بن محمود السيرافي
الغالي^(١) قرر فيه انه استفاد من الاسفراييني ايما افادة^(٢) .

٥ - شرح لم يذكر مؤلفه للشيخ جمال الدين محمد بن محمد
التبريزي الاقصري ، فرغ منه سنة ٧٤٠ من الهجرة ، وهو ابن ست
وعشرين ، اوله : « الحمد لله الذي انزل كتابا اشرقت به القلوب »
وأسماء « كشف الاعراب »^(٣) .

٦ - شرح لم يذكر مؤلفه وألف حوالى عام ٧٢٨ من الهجرة^(٤) .
ولم تكن هذه الخدمات ، وما قد يكون هناك غيرها الا الادلة على
ما أحدثه من تأثير في الدرس النحوي ، ولم يكن ذلك أيضا قصرا على
اللباب بل كان هناك ما افرد لللباب الالباب ... من ذلك :

١ - شرح اللب لجمال الدين عبد الله بن محمد الحسيني المعروف
بنقرة كار وهو الذي اسلفنا القول بانه شرح اللباب ، اوله « الحمد لله
قاشع غمام الغموم ويقرر صاحبه فيه ان هذا الكتاب (لب الالباب) لم يشرحه
احد من فضلاء وعلماء العصر . وعلى هذا فهو اول شرح لهذا الكتاب ،
واذا كان كتاب لب الالباب الفه الاسفراييني اتحافا للوزير شمس الدين
صاحب الديوان اذ ذاك ، فان شرح هذا الكتاب قام صاحبه النقرة كار

-
- ١ - طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٥٠ -
بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ملحق الجزء الاول : ص ٥٢٠ - اليسوعي
- معجم المنجد : ص ٤٥٨ .
 - ٢ - حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : ١٥٤٣ .
 - ٣ - المصدر السابق .
 - ٤ - المصدر السابق - بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الاسكوريال
رقم ١٦٩ - بترسبورج ٩٠٨ .

باهدائه للوزير فخر الدين ابي طالب العلوي (١) - نسخة بمكتبة محافظة الاسكندرية (٢) + - نسخة بدار الكتب المصرية كتبت عام ٨٤٩ هـ (٣) + - نسخة اخرى بالدار بخط محمد بن ابي بكر وبهامشها تقييدات كثيرة (٤) .

- نسخة في أولها فوائد من النحو والحديث سنة ٨٢٢ من الهجرة (٥) .

٢ - شرح تأليف العلامة محمد بن مسعود بن مخلود بن ابي الفتح السيرافي القالي، وقد سلف انه شرح الباب أيضا، وأتم تأليف هذا الشرح في يوم الخميس الرابع عشر من شهر ربيع الأول عام ٧١٢ من الهجرة بشيراز (٦) - نسخة بقلم معتاد لمت في آخر رجب ٧٣٢ من الهجرة (٧) .

١ - حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : من المجلد الثاني عمود ١٥٤٣ .

٢ - طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : الجزء الاول : ص ١٤٩ .
- نسخة (خ) تحت رقم ١٠٣٨ ب وهي بدون تاريخ . ولها حاشية علقها السيد احمد بن عبد الله القريبي - ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون ، وهناك نسخة اخرى بمكتبة المحافظة مؤرخة عام ٨٣٠ من الهجرة مكتوبة بقلم عادي تحت رقم (١٢٧٥ ب) .

٣ - نسخة (خ) تحت رقم (٥٠٠٧ هـ) بدار الكتب المصرية وعنها اخذنا فيما نعرض .

٤ - نسخة (خ) تحت رقم ١٦٨ بدار الكتب المصرية .

٥ - نسخة (خ) تحت رقم (١١٠٥) بالدار .

٦ - بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ملحق الجزء الاول : ص ٥٢٠ - الجزء الاول يذكر لهذا الشرح نسخا متعددة - اليسوعي - المنجد : ص ٤٥٨ .

٧ - نسخة (خ) تحت رقم ١٥٠ بالدار .

- ١ - نسخة اخرى منه كتبت عام ٧٣٢ من الهجرة ايضا (١) .
 - ٢ - نسخة اخرى بخط احمد بن تقي الدين فرغ من كتابتها في شهر رمضان عام ٩٤٩ من الهجرة (٢) .
 - ٣ - شرح لمجهول عمل في ٧٢٨ من الهجرة (٣) .
 - ٤ - شرح لعبد الله بن احمد المتوفى عام ٧٧٦ من الهجرة (٤) .
 - ٥ - شرح لمؤلف مجهول موضوع تحت عنوان تاريخ الادب
 - ٦ - شرح مشابه لسابقه (٥) .
 - ٧ - شرح بعنوان « خلاصة الافكار في بيان زبدة الاسرار من شرح مشكل لب الالباب ، اوله « الحمد لله الذي رفع قدر العلماء لاستثمار الاحكام من محكم تنزيله » (٦) .
 - ٨ - شرح لقوبل بابا ثلوع عام ٧٦٨ (٧) .
- وامكن البحث ايضا من الحديث عن آثار كتابه الشائع النسخ (الضوء) فلقد عثرنا على :

-
- ١ - نسخة (خ) تحت رقم (١٥١) بالدار .
 - ٢ - نسخة (خ) تحت رقم (١٥٢) بالدار .
 - ٣ - بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الاسكوريال ط (٢) تحت رقم ١٦٩ .
 - ٤ - المصدر السابق : تحت رقم ١٦٨ .
 - ٥ - المصدر السابق : تحت رقم ٢٨٥ جوته - برلين : ٦٦٦٥ - انجلترا : ٨٩٨ - شروح اخر في الدار ٦٦٨٨ .
 - ٦ - حاجي خليفة : كشف الظنون : الجزء الثاني : ١٥٤٦ .
 - ٧ - المصدر السابق .

١ - حاشية «قاضيحق» وهي على الضوء ألفها عبد اللطيف بن جلال الدين محمد القزويني المعروف بقاضي بلاط ، وصل فيها الى آخر الباب الثاني، وانتقل الى رحمة الله تعالى ، ثم قام العلامة كلتجق باتمامها على النسق . نسخة مكتوبة في الثاني عشر من ربيع الاول من عام ١١١٢ من الهجرة بخط ابي بكر بن سليمان (١) .

- نسخة اخرى كتبت على صفحتها الاولى « شرح الضوء لقاضيحق وكلتجق » (٢) .

٢ - شرح ابيات الضوء على المصباح لتاج الدين محمد بن محمد ابن احمد الاسفراييني وهذا الشرح لم يعلم مؤلفه . اوله : « الحمد لله الذي بسط الارض ورفع السماء » . وهو ضمن مجموعة مخطوطة (٣)

٣ - شرح على خطبة الضوء ألفها رضي الدين الخوارزمي وهي ضمن مجموعة ، ولعلها هي المقدمة التي اشار اليها بروكلمان مع نسخة الضوء المطبوع (٤) .

ولقد كان لكل هاتيك الخدمات التي لقيها الاسفراييني آثارها هي الاخرى في مجالات الدرس فلقد استشهد صاحب الخزائن بشراحه في

١ - نسخة (خ) تحت رقم (٥٧٧٧هـ) بدار الكتب المصرية .

٢ - نسخة (خ) تحت رقم ١٥٢٤ بدار الكتب .

٣ - نسخة (خ) تحت رقم ٤٣٦ بدار الكتب - ذكرها الفهرست - سبتمبر ١٩٢٦ ، هامش ص ٢١ س ٢٦ - ٢٧ مما سبق .

٤ - بروكلمان : تاريخ الادب العربي : الجزء الاول : ص ٢٩٣ - هامش ص ٢١ .

خمسة عشر موضعا (١) وصاحب الهمع مرة (٢) وصاحب الضرائر مرتين (٣) وصاحب حاشية المغني الامير ، وشرح شواهد المغني في مظان متفرقة (٤) .

ووجدنا ايضا أن هذي الشروح عليها حواش ، ولها افرادات من الدرس (٥) .



وضح من هذا كله أن الاسفراييني له آثار محسنة في ميادين من الدرس متشعبة ، ومما هو جدير بالذكر أن ذلك لم يكن قصرا على رأي منفرد له ، قال به ، فأخذ عنه ، أو رد لسابق رأي اقترحه فتناقله النحاة ، وما الى ذلك من تلامذة يلتمسون لديه بغيتهم ويرون غلتهم ، وانما وجدنا صدى منهجه في كتاب اللباب لدى شخصية مصرية ونعني بها ابن هشام المصري في كتابه ثليذور الذهب .

١ - البغدادي : الخزانة الادبية : الجزء الاول : ص ١٤٦ - ص ٣٠٦ - ص ٢٦٣ - ص ٣٦٨ - الجزء الثاني : ص ١٩٩ - ص ٣٤٩ - الجزء الثالث : ص ١٠٣ س ١٢ - ص ٣٩٠ س ٣ - ص ٤٠٨ س ١١ - ص ٤٠٩ س ٣ الجزء الرابع : ص ٧ س ١ - ص ١٢٦ س ٢٣ - ص ١٣٢ س ٩ .
٢ - السيوطي : همع الهوامع : الجزء الثاني : ص ٢٠ س ٩ من اسفل الصفحة .

٣ - الالوسي : الضرائر : ص ١٩٨ س ١٣ - ص ٢٦٦ س ٢ .
٤ - الامير : حاشية على المغني : الجزء الاول على هامش المغني : ص ٩٥ مثالا ، اسماعيل الصاوي ، شرح المغني وشواهد : ص ١١٩ - ص ٤٩٤ - ص ٤٩٥ - ص ٤٩٦ - ص ٤٩٨ - ص ٥٠١ - ص ٤٨٩ .
٥ - حاجي خليفة : كشف الظنون : هامش ص ٢٨ س ٣ - ٤ ، وما أوردناه بالنسبة للخزانة والهمع والضرائر استقراء مستقصي ، أما بالنسبة للامير والصاوي أمثلة وكلها معين على ما اخذنا به انفسنا .

وإذا كنا قد خرجنا من الفصل السابق الذي اشرنا فيه لطرف من الحديث عن علماء البيئة - وقد تقرر بأنهم هم الذين عشقوا التجوال في مختلف الاقطار فأثروا وتأثروا ، أخذوا واعطوا ، ومنهم من قدم مصر... واعتناق بيئة اسفرايين المذهب الشافعي وما لذلك من مصرية اثر ، لذلك كله دلالاته التي تمكن من القول بان هناك اثرا ما - ان لم يكن مباشرا على التفكير النحوي بمصر الذي يمثل لونا منه ابن هشام .

وان لم يكن هذا فبالقطع - امكن الحديث من القول بسبق هذي البيئة ممثلة في صاحب الباب للبيئة المصرية ممثلة في صاحب الشذور المولود بعد وفاة الاسفراييني - صنيعة في شذور الذهب، النهج الذي يجعل نصب عينيه - في النظرة الى الدرس النحوي - تتبع آخر الكلمة في حالاتها المتعددة التي تغورها بتغاير المعاني - وما اقتضته هذه النظرة من لون من الصنيع كانت هذه الاعمال تتيجه .

ولم يجد الاسفراييني من ينتصر له انصافا ، بينما وجد الاخر من يدعو له دون وجه ، فما يثير الدهش ان صاحب الخزانة يذكر صدد حديثه عن اختيار الكوفيين لشرطية ان المدغمة في ما نحو «أما انت منطلقا انطلقت» وأن الرضي فضل هذا الرأي الكوفي المنحى الذي نجاه ابن هشام فيقول: (وهذا من توافق الخواطر كما يقال « وقع الحافر موضع الحافر » ، وينقل ذلك صاحب نشأة النحو وتاريخ اشهر النحاة موردا النص الذي اسلفنا صدد ترجمته للرضي قائلا : « مستدلا في هذا الاختيار بعين ما استبدل به ابن هشام » ثم يعقب - وما يعني ذاك - مع ان ابن هشام ولد بعد وفاة الرضي بنحو عشرين عاما (١) .

ومن ثم فلا يأخذنا ما ارسله السيوطي من انه لم يقف له على ترجمة (١) او عرض طاش كبرى زاده لاعماله ضمن المختصرات في هذا العلم (٢) ، لكن للدلالات السياسية - التي ينبغي وضعها في الاعتبار - من عدم استقرار البيئة بعامة (٣) وارتباطه هو بسبب ما بصاحب الديوان الذي كانت نهايته النهاية التي اسلفنا ، وما تفيده الرواية من تحديد تاريخ وفاة الاسفراييني - فان لتلك الامور اعتباراتها فيما هنالك من استغلاق امر هذا الرجل الا ان الذي يجزم به - ان البيئة الخاصة التي وجد فيها هذا الرجل وما كان يكتنفها من جو البيئة العامة - والاعمال التي خلفها نتائج لذلك كله - وما أحدثت من اثر دلييل على مكانته ، وعلان عن اصالته .



-
- ١ - السيوطي : بنية الوعاة : ج ١ ص ٩٤ .
 - ٢ - طاش كبرى زادة : مفتاح السعادة : ج ١ ص ١٤٩ وما بعدها .
 - ٣ - سبق التعرض لها .
- انظر الى هذه المقارنة :

الباب	الشذور
الاسفراييني	ابن هشام
١ - مقدمة	١ - مقدمة
٢ - حديث عن الاعراب	٢ - حديث عن الاعراب
٣ - حديث عن المعربات	٣ - حديث عن المعربات
٤ - المرفوعات	٤ - المرفوعات
٥ - المنصوبات	٥ - المنصوبات
٦ - المجرورات	٦ - المجرورات
٧ - المجزومات	٧ - المجزومات (التوابع)
٨ - غير المستبد	

شہیرات نساء العصر الأموي

الدكتور منيرة الأطرفي
معلمة الآداب - قسم التاريخ
جامعة بغداد

ان الاخبار عن النساء متناثرة في بطون السير ، والكتب التاريخية والمخلفات الادبية ، وقصائد الشعراء ، ولقد طوت هذه المؤلفات على كثير من فضليات النساء اشتهر عنهن سلامة الرأي ، وحسن التدبير ، وتصريف الشؤون على اساس متين ، فالعصر الاموي مليء بفضليات النساء ذوات الاثر الخالد ، اللاتي اشتهرن واتصفن بميزات ومواهب فذة . ولم يقتصر ظهور شهيرات النساء على طبقة دون اخرى ، فمن زوجات الخلفاء ، كأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك ، التي اشتهرت بالفصاحة ، والبلاغة ، وقوة الحجة ، وبعد النظر ، التي تلك الطبقة من جمهور الاماء ، اللاتي يعنى بتعليمهن الاداب من شعر ، ورواية ، وموسيقى ، كسلامة وحبابه وجميلة ، وغيرهن كثيرات .

وكان هناك خلفاء يشجعون الغناء والموسيقى ، ويقضون ساعات من اللهو والمجون ، كيزيد بن معاوية ، ويزيد بن عبد الملك ، وابنه الوليد بن يزيد ، وخلفاء يقضون ايامهم في الجد وادارة الملك كمعاوية

ابن ابي سفيان ^(١) ، وعبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، وكان من ورائهم الشعب تارة تظهر عليه مظاهر التمتع بحياة الترف ، واخرى تظهر عليهن مظاهر الورع والتقوى والزهد بالدنيا ^(٢) ، واشتهر منهن بالمواهب اللسانية متمثلة هذه الطبقة ، برابعة العدوية .

ومنهن نساء في العهد الاموي لم يفتنن مشاهدة الندوات ، والاخذ باطراف الحديث ، والمناظرات ، مما كان له اكبر الاثر في تشجيع الاداب والمعارف وتتمثل هذه الطبقة بالسيدة سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة زوجتا مصعب بن الزبير ، وهما من النساء الشهيرات المتعلمات في العصر الاموي كان يدخل اليهما الشعراء ويجالسا الاجلة من قريش .

وساهمت المرأة في العصر الاموي مساهمة اديبة ، فكانت الجرأة الادبية في هذا العصر استمرارا للجرأة الادبية التي كانت في عصر الخلفاء الراشدين ، وشملت الخلفاء الاوائل من الامويين ، فالخليفة معاوية بن ابي سفيان ، كان مشجعا لهذه الجرأة الادبية واستمرت حتى زمن عبد الملك بن مروان ، ثم اخذت تخفت شيئا فشيئا ، ومن اشهر هؤلاء النساء الزرقاء بنت عدي ، في عهد معاوية بن ابي سفيان ويليها الاخيلية في عهد عبد الملك بن مروان ، وسيأتي الكلام عنهما .

١ - كان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الفناء ولاسيما اهل الوجاهة والشرف وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على ما عابه عليه من استماع الفناء (جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي) ج ٥ ص ٣٥ .

٢ - خاصة العراق ، فقد غلب عليه روح التصوف والزهد ، واصبح مركزا للحياة الفكرية والعقلية في عهد الدولة الاموية .

وهناك أمثلة رفيعة عن شجاعة النساء وعلى رأسهن أسماء بنت أبي بكر - أم عبد الله بن الزبير - ، أما غزالة الحرورية فهي من نساء الخوارج التي خرجت وقاتلت ضد الحجاج .

وبعد هذه المقدمة القصيرة أقول قول الشاعر المتنبي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وسأبدأ بالكلام عن شهيرات النساء في العصر الأموي بسيدة قریش الاولى - سكينه بنت الحسين -

هي سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب ، وأمها الشاعرة رباب بنت امرئ القيس بن عدي بن أوس^(٣) .

كان من أبرز نساء العرب اللاتي خرجن بسهم وافر في العلم والمعرفة ، وحزن قصب السبق في ميدان الأدب والشعر ، وكان لهن القدح الممل في كل هذه الميادين مجتمعة^(٤) ، فكانت تسيطر على المجتمع الأدبي دون أن تتخلى عن اعتزازها بشرفها العالي^(٥) .

فشاركتها في الحياة الأدبية والاجتماعية في عصرها^(٦) ، حيث

٢ - الطبري : تاريخ الطبري ج ٥ ص ٤٦٨ الطبعة الثانية .
قيل ان اسمها آمنه ، أمينة ، أميمة ، وسكينه لقب لقبها به امها
(ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٩٧) .

٤ - علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب
ص ٦٦ .

٥ - عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطيء - : سكينه بنت الحسين
ص ١٢٦ .

٦ - الزجاجي : امالي الزجاجي ص ١٦٨ .

كان يجتمع اليها الشعراء والادباء والمغنون فيحتسون اليها مما انتجته قرائحهم فتبين لهم الغث من الجيد ، وتناقش المخطيء مناقشة علمية فيقتنع بخطأه ، ويقر لها بالفضل وسعة الاطلاع (٧) .

بالاضافة الى هذا فقد اتصفت بالجود والكرم ، وخفة الروح وملاحة الدعابة ، كما عرفت بالاغداق على الشعراء والادباء الذين يجيدون القول شعرا ونثرا (٨) ، فقد احضرت سكينه يوما ابن سريج . وعزة الميلاء في مجلسها ، وبعد ان غنيا قدمت لكل منها دملج كان في عضدها يزن كل دملج اربعون مثقالا ذهب (٩) وقصدها الفرزدق من مكة فقدمت له جاريته كان معجبا بها وآثرته على نفسها وأوصته بحسن صحبتها (١٠) .

وكان امراء الشعر [في عصرها] ، يجتمعون في دارها في المدينة فتأذن لهم ، وتجلس حيث تراهم ولا يرونها ، وقد اتخذت لها وصيفة تنقل الى كل منهم رأيها في شعره ، وكلما فرغت من شاعر دخلت على مولاتها وعادت برسالة منها لشاعر اخر ، واذا اشتجر الخلاف بين رواة الشعر كان الاحتكام عندها ، فقد كانت واعية للشعر حافظه له (١١)

وكانت سكينه سيده الناقدین فهي حكم الشعراء الذي لا يرد حكمه . اجتمع اليها ذات مرة جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ،

٧ - عمر كحالة : اعلام النساء ج ٢ ص ٢٠٢ .

٨ - علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب

ص ٦٦ .

٩ - الاصفهاني : الاغاني ج ٧ ص ٤٥ - ٤٦ .

١٠ - المصدر السابق ج ١٦ ص ١١٦ .

١١ - المصدر السابق ج ١٦ ص ١٠٨ .

ونصيب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مأخذه ، ثم اثابت كلا منهم بألف دينار ، فخرجوا بخمسة الاف دينار (١٢) .

ولها نواذر وحكايات ظريفة مع الشعراء وغيرهم (١٣) ، كما كانت شديدة المزاج والتبسط في الحديث وحبها للنكتة . كانت دمنة الخلق ذات ايمان قوي بالله ، وشجاعة فادرة تحدث فيها اهل زمانها ، وصارت مضرب الامثال في الوفاء والمرونة والشهامة وعفة اللسان (١٤) ، فهي سيدة سيدات عصرها ، اسماهن صفاتا واخلاقا ، اجملهن واظرفهن ، كانت تعتز بجمالها وتعدده من نعمة الله عليها وتحرص على اظهاره في ابداع مظهر ، وقد كانت شديدة التألق ذات هبة ووقار ، وما اناقتها المشهورة : وطرفها السكينة الا آية اعزاز بجمالها . وجمال شعرها كان امرا معروفا ، وكانت لها طريقة خاصة في تصفيفه والطرة السكينة منسوبة اليها (١٥) ، فكانت تصفف جمتها تصفيفا لم يسر احسن منه ، وسميت تلك الجبة بالسكينة ، واخذ الرجال يقلدونها في ذلك ، وكان عمر بن عبد العزيز ، اذا وجد رجلا يصفف جمته السكينة جلسده وحلقه (١٦)

١٢ - المصدر السابق ج ٨ ص ٣٧ ، وعبد الله عفيفي ، المرأة في جاهليتها واسلامها ج ٢ ص ١٤٨ ، ومحمد جميل بيهم ، المرأة في التاريخ والشرائع ص ٢١٨ .

١٣ - الاصفهاني : الاغاني ص ١٩٥ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٩٤ ، وعمر كحالة : اعلام النساء ص ٢٢١ .

١٤ - علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٦٦ .

١٥ - دائرة المعارف : ج ١٢ ص ٢٠ - ٢١ مادة سكينة .

١٦ - ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ٣٩٤ .

١٧ - الاصفهاني : الاغاني ج ٤ ص ١٥٩ ، وعمر كحالة ، اعلام

النساء ج ٢ ص ٢٢٢ .

تزوج مصعب بن الزبير سكينه بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة (١٨) وجمع بينهما في عقد نكاحه (١٩) ، ودفع مصعب لسكينه صداقا خمسة الف درهم واهدى لها مثلها (٢٠) . وقيل ان عبد الله ابن الزبير اخو مصعب غضب لزواج اخيه مصعب من سكينه لما دفعه مصعب من اموال طائلة (٢١) ، وبعد مقتل مصعب خطبها عبد الملك ، فقالت : « والله لايتزوجني بعده قاتله ابدا فردته » (٢٢) .

قالت سكينه لعائشة يوما : « انا اجمل منك وقالت عائشة : « بل انا اجمل » فاختصمتا الى عمر بن ابي ربيعة فقال : لأقضين بينكما ، اما انت .. ياسكينه فاملح منها ، واما انت يا عائشة فاجمل منها . فقالت سكينه : « قضيت لي والله » . وكانت سكينه تسمي عائشة - ذات الاذنين - لانها كانت عظيمة الاذنين . (٢٣)

وقد اثر وفاة زوجها مصعب في نفسها اعظم التأثير حتى بدت حزينة كئيبة ورثته باشعارها (٢٤) ، وكان مصعب يقدرها اعظم التقدير

-
- ١٨ - توفي مصعب بن الزبير بن العوام عام ٧١ هـ في قتال مع عبد الملك بن مروان . ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٣٢٣ .
- ١٩ - ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ١٩٦ . ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٢ .
- ٢٠ - الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٥٣ .
- ٢١ - الخربوطلي : تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ص ٣٣٥ ، ولكن الحقيقة غير ذلك وان الدوافع الى غضبه عدم رغبته في مصاهرة اخيه لبني هاشم في الوقت الذي كان يقوم هو فيه باضطهاد وجودهم .
- ٢٢ - الاصفهاني : الاغاني ج ١٩ ص ٦١ .
- ٢٣ - المصدر السابق ج ١٦ ص ١٠٠ .
- ٢٤ - القيرواني : زهر الاداب وثمر الالباب ج ١ ص ١٠٢ .

وكانت علاقتهما كزوجين موضع حسد الناس ، وعلى الرغم من انه كان زوجا للسيدة عائشة بنت طلحة ، الا ان عائشة كانت صعبة المراس ، ولذا كانت سكيئة اكثر قربا الى قلبه لانها كانت لينة العريكة ، تتصف بنبل الفعال ، وجميل الخصال ، وكان زوجها يطرب لسماع جزل شعرها ورصين بيانها ، وان صحبتها لمصعب جعلها غير موفقة في الزواج بعد مصرعه ، وان زواجها من زيد بن عثمان لم يكن موفقا ، وسرعان ما انفصلت عنه بعد ان اتضح لها بخله ، وهي المعروفة بالجود والكرم ، فقد سكنت في قصر منيف ، وعاشت عيشة هنيئة ، يحوطها الترف والنعيم .

ماتت سكيئة في يوم صائف شديد الحر بالمدينة سنة ١١٧هـ في خلافة هشام بن عبد الملك ، وكان على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم فقال : « لا تصلوا عليها حتى اشهدا ، ولم يأت حتى تغيرت فاشترى محمد بن عبد الله المطرف - ابن اخت سكيئة - بثلاثين دينارا عودا وامر بالمجاير فوضعت حول النعش ، خوفا من ان تتغير ويشم من نعشها رائحة مكروهة ، فلما صلى الناس العشاء اتى خالد بن عبد الملك وأمر بالصلاة عليها ثم دفنت (٢٥) » .

اما سيدة قريش الثانية وعقيلتها وجميلتها فهي عائشة بنت طلحة ، وكانت تجمع الى جمالها عزة النسب فأبوها طلحة بن عبد الله التيمي صاحب الجليل لرسول الله (ص) وامها ، ام كلثوم بنت ابي بكر ، وكانت اشبه بخالتها ام المؤمنين ، عائشة ، واحبهم اليها واطبعهم على

٢٥ - البلاذري : انساب الاشراف ص ١٩٧ . الاصفهاني : الاغاني ج ١٦ ص ١١٧ .

علمها وادبها ، ومن اجل ذلك زوجها من ابن اخيه عبد الله بن عبد الرحمن ابن ابي بكر الصديق (٢٦) ، وقيل لقي عبد الله الامريين من دلالها ومصارفها (٢٧) ولما مات عنها عبد الله تزوجها مصعب بن الزبير ، وساق اليها الف الف درهم (٢٨) . وذكر الاصفهاني ، ان مصعب اهداها اضافة الى المهر ثمان لؤلؤات قيمتها عشرون الف دينار (٢٩) ، وقبل الزواج منها احب ان يستطلع حالها بعد ان اثقلتها الايام ، فبعثت عزة الميلاء ، المغنية المشهورة لتأتيه بوصفها ، وكانت (عزة) خبيرة بشؤون النساء ، فمضت عزة حتى دخلت على عائشة فابتدرتها قائلة : فديتك كنت في مأدبة لقريش . فتذكروا جمال النساء وخلقهن ، فذكروك فلم ادر كيف اصفك ، فألقى ثيابك ، ففعلت عائشة . وتأملت عزة مليا ثم قالت : خذي ثوبك فديتك ! وهمت بالانصراف لكن عائشة امسكتها وقالت : وانا ايضا لي حاجة عندك ، فسألته عزة : وماهي ، بنفسني انت ، اجابت تغنين صوتا ، فاندفعت عزة تغني ، وبعد سماع عائشة للشعر قبلت عزة ودعت لها بعشرة اثواب وبطرائف من الفضة ، وعادت عزة توصف لمصعب جمال عائشة وفتنتها (٣٠) ، فخطبها وتزوجها .

وكانت نساء العراق يقصدونها طالبات وساطتها عند مصعب لبعض ازواجهن من بعض ما عليهم من ضرائب (٣١) لما كان لها من كلمة مسموعة ومكانة عند زوجها مصعب .

-
- ٢٦ - صلاح الدين المنجد : جمال المرأة عند العرب ص ٨ .
 وعبد الله عفيفي المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ج ٢ ص ١٤٤ .
 ٢٧ - عائشة عبد الرحمن : سكينه بنت الحسين ص ٦٩ .
 ٢٨ - عبد الله عفيفي : المرأة في جاهليتها واسلامها ج ٢ ص ١٤٤ .
 ٢٩ - الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٥٣ .
 ٣٠ - عائشة عبد الرحمن : سكينه بنت الحسين ص ٧١ .
 ٣١ - الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٥١ - ٥٤ .

اما علمها وادبها واجزال مشورتها للشعراء والمغنين فمما لا شبهه لها فيه الا سكينه بنت الحسين ، فكانت عائشة من النساء اللاتي نبغن في الادب وايام العرب والنجوم (٣٢) ، واخبارها مع الشعراء كثيرة .

وفدت يوما على هشام بن عبد الملك فقال لها ما اوفدك ؟ قالت : «جست السماء المطر ، ومنع السلطان الحق» ، قال اني سأعرفك حقا ، فبعث الى مشايخ بني أمية فقال : ان عائشة عندي فاسهسروا عندي الليلة ، فخرجوا فما تذكروا في شيء من اخبار العرب واشعارها ، وايامها ، الا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم الا سمته فقال لها هشام ، اما الاول فلا انكره ، واما النجوم فمن اين لك ؟ قالت : اخذتها عن خالتي عائشة ، فامر لها بمائة الف درهم ، ووردها الى المدينة .

كانت عائشة من اللواتي اوتين حظا عظيما من الجمال ، فهي عادة قريش الجميلة التي خلد اسما شعراء الحجاز ، عمر بن ابي ربيعة والحاتر بن خالد المخزومي ، وابن قيس الرقيات في قصائد رجعتها معازف المغنين ، واصوات المغنيات ، كما تعلق بها امال عدد من امجد الفتيان القرشيين ، فما يحض عنها زوج الا سارع الخطاب متلهفين الى تلك التي شاعت فيها قوله « ابي هريرة » حين رآها لأول مرة : سبحان الله ، كأنها من الحور العين . (٣٤)

٣٢ - علي ابراهيم حسن : نساء اهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٧٥ - ٧٦ .

ومحمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ١١٧٥ .

٣٣ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١٠ ص ٥٧ ، وعبد الله عفيفي : المرأة في جاهليتها واسلامها ج ٢ ص ١٤٤ .

٣٤ - عائشة عبد الرحمن : سكينه بنت الحسين ص ٦٩ .

وكانت لاتستر وجهها فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير ، فقالت :
ان الله وسمني بميسم جمال ، فاحببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله
عليهم (٣٥) ، والله ما بي وصمة استتر لها . .

ورآها عمر بن ابي ربيعة ايام الحج وكان يطوف حولها وهي تكره
أن يرى وجهها حتى رآها وهي ترمي الحجار ساخرة ، وقال فيها الشعر،
ولما منعه من قول الشعر فيها ، قال: « لا اذكرها في شعر ابدا ، ولكنه
كني عن اسمها . (٣٦)

من حيث العلم ، كانت صبغة العصر الاموي دينية عربية ، فازاء
ما نشأ فيه من الرجال في العلوم الدينية واللغوية ، فقد قام فيه من
النساء طبقة من الزاهدات ، عرفن غالبا بالعلوم مع التقوى ، وساعد على
وجودهن قرب العهد من صدر الاسلام واشهر هؤلاء الزاهدات ، رابعة
العدوية بنت اسماعيل بن الحسن ، مولاة آل عتيق (٣٨) ، وكانت تكنى
— بأم الخير —

اما بداية حياتها ، فقد ولدت بالبصرة حوالي عام ٩٥ هـ وقيل
٩٩ هـ (٣٩) ، وتاريخ وفاتها مختلف عليه فقيل عام ١٣٥ هـ ، ١٨٠ هـ ،

٣٥ — صلاح الدين المنجد : جمال المرأة عند العرب ص ٨ .

٣٦ — القيرواني : زهر الاداب وثمر الالباب ج ١ ص ٣٠١ .

٣٧ — الاصفهاني : ج ١ ص ١٩١ — ١٩٢ .

٣٨ — آل عتيق : وهم قبيلة من قيس بن عدي : دائرة المعارف

الاسلامية ج ٩ ص ٤٣٨ مادة رابعة العدوية، وعلي ابراهيم حسن: نساء

لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٢ .

٣٩ — المصدران السابقان : ص ٤٣٨ ، ص ١٢ .

١٨٥هـ (٤٠)، مات أبوها اسماعيل وهي لا تزال شابة وكان الغلاء قاسيا فلم تستطع ان تواجه الحياة ، وتتحمل تكاليفها الباهظة ، وأصبحت من الموالى ، ووقعت في أسر رجل ظالم ابقاها عنده مدة اذاقها خلالها انواع العسف ثم باعها الى رجل آخر كانت في بيته اسوأ حالا مما كانت في بيت سلفه ، ثم منحها حريتها وترك لها الخيار في أن ترحل عن بيته، او تبقى فيه ، ولكنها آثرت ان تترك الدار لتعيش من عرق جبينها (٤١) .

فأم الخير ، ولىة متصوفة ، وعابدة شهيرة (٤٢) ، تمكنت من معرفة دقائق التصوف مكانا عاليا ، واستنفذتها في دقائق التصوف كبار المتصوفة في عصرها ، وغرست في زمنها بذور التصوف وان ظهورها أثر في كثير من المسائل الاساسية للصوفية . (٤٣)

كانت رابعة من أهل المذهب البصري ، وقد قيل عنها ، ان تحمسها لحياة الزهد مؤديا الى معالجة احوال صوفية مختلفة الى البحث في فروض دقيقة في العمليات والعقائد ، وتعتبر رابعة عند الباحثين في أمور الولاية والاولياء اعظم ولىة ، فهي السابقة الى وضع قواعد الحب والحزن ، في هيكل التصوف الاسلامي ، وهي التي تركت في الآثار الباقية نقشات صادقة في التعبير عن حبها وعن حزنها وان الذي

٤. - ابن خلكان : وفيات ج ٢ ص ٤٨ .

ومحمد جميل بيهم : المرأة في التاريخ والشرائع ص ٢١٨ . قدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٦٣ .

٤١ - علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب

ص ١٢ .

وقدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٥٦ .

٤٢ - دائرة المعارف الاسلامية ج ٩ ص ٤٣٨ ، مادة رابعة العدوية .

٤٣ - قاسم غني : تاريخ التصوف في الاسلام ص ٥١ .

فاض به بعد ذلك الادب الصوفي من شعر ونثر في هذين البابين ، لهو
نقحة من نقحات رابعة العدوية امام العاشقين والمحزونين في السلام (٤٤)

كانت حياة رابعة العدوية ، بعد ان اصبحت حرة طليقة ، دروسا
نافعة ، وعظات بالغة ، فقد نشرت بين ابناء وبنات عصرها القول الحكيم ،
والحديث الشريف ، وكانت تردد القول المأثور : « اغسل لدنياك كأنك
تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » (٤٥) ، ويكافىء المؤمن
والمحسن ويجازي المسيء . (٤٦)

لقد خلد اسمها على صفحات التاريخ عنوانا لانكار الذات وحميد
الصفات ، فقد جمعت مزايا كثيرة اكسبتها لقبا جديرا بالاحترام اذ كانت
تدعى — تاج الرجال — تعظيما لقدرها ، واشادة بمواهبها . (٤٧)

كانت لا تقبل عطاء من احد ، فقد احضر لها احد تجار عصرها كيسا
به بعض المال حين علم بمرضها لتنفق مما فيه ، فرفضت اخذه ، وحين
تكلم معها في ذلك الحسن البصري ، ردت عليه قائلة : « كيف احصل
على هذا المال ، وانا لا اعلم ، هل اكتسبه صاحبه من حرام او
حلال » (٤٨) .

-
- ٤٤ — عمر كحالة : اعلام النساء ج ١ ص ٤٣٠ — ٤٣١ .
٤٥ — انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٦٨٦ ، وعلي
ابراهيم حسن ، نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٣ .
٤٦ — المصدران السابقان ص ٦٨٦ وص ١٣ .
٤٧ — قدرية حسين : شهيرات النساء ص ١٥٩ .
٤٨ — علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب
ص ١٣ .

كان يزورها كثيرون من الناس ، ويشركون بمجالسها ، رجال من
افاضل العلم ، ويجدون في محاضراتها انسا عميقا .

رآها يوما بعض اهل الفضل وسألوها لماذا تعيش منزوية
ولا تتزوج ، فأجابت ، انما يشغل خاطري ثلاثة امور « اولها ، هل
اموت وانا على ايمان كامل ، والثاني ، هل انال صحيفتي بيدي اليمنى
يوم الحساب ، والامر الثالث ، لا ادري مع أي فريق اكون يوم الحشر ،
أمع الذاهبين الى الجنة ام مع الهالكين في جهنم ، فاذا كنت مشغولة
اللب بامثال هذه الامور فكيف ابحت عن الزواج ؟ » (٤٩)

وعندما ماتت زوجة حسن البصري طلبها للزواج فلم تقبل ،
وارسلت اليه قصيدة ضمننتها كثيرا من التغزل الالهي ، وقد سألها عقب
ذلك في محادثة دارت بينهما : « أليس لك رغبة في الزواج قط ؟ »
اجابت : « انما يتزوج من يملك ارادته بنفسه ، اما انا فليس لي ارادة ،
ان انا الا عبدة المولى عز وجل ، وضعت نفسي تحت ارادته
وتصرفه » . (٥٠)

لم يكن حبها لله خوفا من النار او طمعا في الجنة كزهد الحسن
البصري وغيرها من زهاد عصرها ، بل تشوقا اليه ، وانسا به ، كانت
بمذهبها هذا مؤسسة للحب الالهي المنزه عن الفرض ، ولها في تصويره
اقوال ماثورة منظمة ومنشورة ، والحب الالهي عندها حبان ، حب تشغل
فيه بذكرها لله وتسميه حب الهوى ، وحب تنكشف فيه الحجب ويتجلى
جمال المحبوب الحقيقي . (٥١)

٤٩ - قدرية حسين : شهرات النساء ص ١٦٣ .

٥٠ - المصدر السابق : ص ١٦٣ .

٥١ - محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ٨٤٩ .

كانت كثيرة البكاء ، قرأ رجل عندها آية من القرآن فيها ذكر النار ، فصاحت ثم سقطت وبالإضافة الى ما كانت عليه من زهد وعبادة فقد كانت شاعرة وكان مدار شعرها الحب الإلهي (٥٢) . وهي لا ترضى عن حببها بديلا مهما حل في تقدير الناس ، ويذكر المستشرق ارنولد : ان للصالحة ، رابعة العدوية في الكتب العربية اخبارا واشعار ولكن يشك في نسبة الاشعار اليها . (٥٣)

توفيت رابعة العدوية وهي في الثمانين من عمرها ، وكان كنفها عبادة من الصوف كانت تصلحها اينما ذهبت ، وأوصت احدي صديقاتها بان يكفنوها بتلك العباءة (٥٤) ، ولا يزال قبرها الى اليوم في رأس جبل الطور في شرق القدس (٥٥) يزوره الناس للتبرك . (٥٦)

كانت رحمها الله شخصية غريبة ذات مزايا انفردت بها من بين ربات الخدور في العصر الاموي ، وبداية العصر العباسي ، كما كانت مثالا نادرا للتصوف والزهد والخشوع ، ضحت دنياها لقاء آخرتها ، اذ كانت تستطيع ان تعيش مرفهة منعمة كعاصريها . ولكنها لازمت الفقر . وانواع العذاب والمشقة ، لمحو كل عاطفة دنيوية من نفسها .

٥٢ - عمر كحالة : اعلام النساء ج ١ ص ٤٣٠-٤٣١ .

٥٣ - توماس ارنولد : تراث الاسلام ج ١ ص ١٣٣ .

٥٤ - عصام العبد الله : رسالة المرأة المؤمنة ص ١٦٨ .

٥٥ - علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ١٤ .

٥٦ - وقول الله سبحانه وتعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات والله بما تعلمون خبير » (سورة المجادلة ، آية ١١) .

ومن النساء المتقدمات من شعراء الامويين ، وشاع ذكرها ايضا بالحسن والفصاحة وحفظ انساب العرب وايامها واشعارها هي ليلى الاخيلية ، عاصرت الخلفاء الراشدين وواكبت بعض احداث عصرهم ، وهي ليلى بنت حذيفة بن شداد بن كعب بن الرحال بن معاوية * (٥٧) وقيل في نسبها هي ليلى بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية بن عبادة بن عقيل ... بن عامر بن صعصعة (٥٨) .

وعلى الرغم من انها عاشت شطرا من حياتها في عصر الخلفاء الراشدين الا اننا لا نجد لها في هذا العصر الا قطعة رثاء في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، ويظهر ان ما قالته لم يصلنا ، وان اكثر شعرها الذي بين ايدينا يرجع الى العصر الاموي ، ففيه ذكر لخلفاء هذا العصر وبعض امرائه ، جاءتهم مادحة او شاكية او عاتبة ، وجاء في اكثر المصادر انها شاعرة اموية ظهرت فيه شاعريتها ، ومدحت خلفاء وامراء العصر وحضرت بعض مجالسهم * (٥٩)

كان توبة بن حسير يهواها وهي ايضا كانت تهواه ، ولم يكن بينهما نسب الا انها كانا جميعا من بني عقيل بن كعب ، واقاما على حب عفيف

٥٧ - ابن حزم : جمهرة انساب العرب ٢٩١ ، والقلقشندي : نهاية الارب ص ٤٠٦ .

٥٨ - عمر كحالة : اعلام النساء ج ٤ ص ٣٢٦ .

نسبت الى جدها معاوية بن عبادة المعروف بالاخيل ، وكان قد ادرك الاسلام فاسلم (ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص ٢٩١ ، وديوان ليلى الاخيلية ص ١٨ ، وقيل ايضا قيل لها الاخيلية لقول جدها كعب :

نحن الاخيل ما يزال غلامنا حتى يدب على العصا مذكورا

٥٩ - ديوان ليلى الاخيلية ، جمع وتحقيق خليل ابراهيم العطية ،

وجليل العطية ص ٢٠ .

دهرا الى ان قتل توبة . (٦٠) وكان ابوها قد رفض ان يزوجهما توبة ،
وقد اكدت عفة توبة معها للحجاج حين سألها قائلاً . . . ان شبابك قد
ذهب واضمحل امرك وامر توبة ، فاقسم عليك الا صدقتني ، هل كانت
بينكما رية قط ، أو خاطبك في ذلك قط ؟ قالت : « لا والله ايها
الامير » . (٦١)

نالت ليلي الاخيلية مكانة لائقة في عصرها ، واحتكم بعض شعراء
عصرها فتحكم بينهم ، وهي اشعر نساء العرب عند كثير من الرواة ،
وقيل انها اغزر بحرا واكثر تصرفا واقوى لفظا ، من الخنساء ، اما
الخنساء فاشعر منها في الرثاء ، (٦٢) اما ابن قتيبة في كتابه الشعر
والشعراء وكثير غيره من المؤرخين فلا يقدمون عليها بالشعر غير
الخنساء (٦٣) .

ان ليلي الاخيلية ، مثال المرأة العربية التي جمعت الى جانب
شاعريتها وسرعة بديحتها ، فصاحة وعقلا راجحا ، (٦٤) وقد وفدت على
معاوية بن ابي سفيان يوما وانشدت بين يديه فسألها حاجتها قالت : « ليس
مثلي يطلب الى مثلك حاجة فتخير انت ، فاعطاها خمسين من الابل » . (٦٥)

-
- ٦٠ - الزجاجي : امالي الزجاجي ص ٧٧ .
٦١ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٧٠ .
٦٢ - القيرواني : زهر الاداب ج ٤ ص ٩٩٨ ، وكحالة : اعلام
النساء ج ٤ ص ٣٢٦ .
٦٣ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ج ٢ ص ٤١٦ ، وابن خلكان
ج ٢ ص ٢٨٩ ، وابن تفرى بردى النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر
والقاهرة ج ١ ص ١٩٣ .
٦٤ - القيرواني : زهرة الاداب ج ٤ ص ٩٣٢ .
٦٥ - المصدر السابق ص ١٠٠٣ .

ووفدت على مروان بن الحكم فوصلها وسألها حاجتها ودخلت على
عبد الملك بن مروان وقد أسنت فقال لها : مارأى فيك توبة حين هويك ؟
قالت : ما رآه الناس فيك حين ولوك • فضحك حتى بدت له سن
سوداء كان يخفيها • (٦٦)

ويروى ان ليلي الاخيلية ، قدمت على الحجاج فانشدته (٦٧)

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء السقام الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها

فأعجب الحاضرون بكمالها وجمالها وطلاقة لسانها (٦٨) وأمر لها
الحجاج بخمسمائة درهم ، واكساها خمسة اثواب احدهما كساء خز ،
ووصلها محمد بن الحجاج بوصفين • (٦٩)

وكان للحجاج اربع نسوة كلهن شاعرات وعالمات وفقهيات (٧٠) ، ثم
قال الحجاج ليلي ، أي نسائي أحب اليك ان انزلك عندها الليلة ، قالت
ومن نساؤك ايها الامير ؟ فذكرهن لها فقالت القيسية ، فلما كان الغد
دخلت عليها وأكرمتها ، فصبت حلبيها عليها حتى اثقلتها لاختيارها ايها

٦٦ - ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، المجلد ٤ ص ٤١٨ ، والقيرواني
زهر الاداب ج ٤ ص ١٠٠٤ .

٦٧ - المبرد : الكامل ج ١ ص ٣٦ .

٦٨ - المرزباني : اشعار النساء ص ٥٥ .

ابن القيم : اخبار النساء ص ٣٣ .

٦٩ - عمر كحالة : اعلام النساء ج ٤ ص ٣٣٠ .

٧٠ - عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ج ٤

ص ١٤٤ .

ودخولها عليها دون من سواها من نساء الحجاج . (٧١)

اما عن وفاتها فقليل ان ليلى الاخيلية ، قبلت من سفر ، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها (٧٢) وهي في هودج لها فقالت ، والله لا ابرح حتى أسلم على توبة فجعل زوجها يمنعها من ذلك ، وتأبى الا ان تلم به فلما كثر ذلك منها تركها فوصلت الى قبر توبة ، وسامت عليه ، وكانت الى جانب القبر بومة كامنة فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطار في وجه الجمل فنفر ، فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها ودفنت الى جنبه . (٧٣)

ومن الشعر والادب تنتقل الى الشجاعة والوفاء ، فلقد تألفت في تاريخ المرأة اسماء نساء بقيت ذكريات كفاحهن ونضالهن وجراتهن منهن من عاصر خلفاء الامويين الاوائل ، وهن نورا يضيء الطريق لكل امرأة تريد ان تجمع لنفسها بين عزة الدنيا ونعيم الآخرة ، وكان حكم معاوية وسعة صدره وحلمه الذي تعدى الحدود حتى وسع اللواتي حملن السيوف في صفوف علي رضي الله عنه ضده ، كالزرقاء بنت عدي ، وأم الخير بنت حريش فلما استتب له الامر استقدمهما اليه وحاورهما ، فكاتتا متلاقيتان على الوفاء ، بالاضافة الى الافة والصرافة، والاعتماد على النفس .

٧١ - زوجات الحجاج ثلاثة ام الجلاس بنت سعيد بن العاص الاموية ، وهند بنت اسماء بن خارجة ، وهند بنت المهلب بن ابي صفرة ، نزلت ليلى عند القيسية وتقصد بها (هند بنت اسماء) : العقد الفريد ج ٦ ص ٣٢٢ .

٧٢ - قيل انها تزوجت مرة وقيل مرتين : ديوان ليلى الاخيلية ، جمع وتحقيق خليل العتية وجيل العتية ص ٣٢ .
٧٣ - الاصفهاني : الاغانى ج ١١ ص ٢٣٠ .

فقد استقدم معاوية الزرقاء بنت عدي ، معززة مكرمة ، ورحب بها ، وقال لها : « كيف حالك ياخاله ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ » .
 قالت : « خير مسير كاني كنت ربيبة بيت ، أو طفلا مهمدا ، » قال :
 « بذلك أمرتهم ، فهل تعلمين لم بعثت اليك ؟ » قالت : « وهل يعلم ما في القلوب الا الله » قال : « بعثت اليك لأسألك ، ألسنت راكبة الجمل بصفين بين الصفين توقدين الحرب ، وتحثين على القتال ؟ * فما حملك على ذلك ؟ » * قالت : « يا امير المؤمنين انه قد مات الرأس ، وبتر الذنب » * قال : « صدقت ، فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ »
 قالت : « ما أحفظه » قال : ولكنني والله احفظه * لله ابوك لقد سمعتك تقولين - وذكر مقالتها التي اسلفتها - ثم قال لها : « والله يازرقاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه » فقالت : « احسن الله بشارتك ، يا امير المؤمنين وأدام سلامتك ، مثلك من بشر بالخير ، وسر جليسه » * قال :
 « وقد سرك ذلك ؟ » * قالت : « نعم لقد سرنى قولك ، فاني بتصديق الفعل ؟ » قال : « والله لوفأؤكم له بعد موته احب الي من حاكم له في حياته !! » (اذكرى حاجتك) * قالت : « يا امير المؤمنين اني قد آلت على نفسي الا أسأل اميرا اعنت عليه سيئا ابدا : ومثلك اعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلب » * قال : « صدقت فاقطعها ضيعة أغلتها في أول سنة عشرة الاف درهم واعادها ومن معها مكرمين (٧٤)

ومن ذوات الحنكة والدراية ، ومن شهيرات نساء العصر الاموي عاتكة ام يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وهي بنت يزيد بن معاوية (٧٥)

٧٤ - محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ص ٣٥ ، وأحمد

خيرت : مركز المرأة في الاسلام ص ١١٥ .

٧٥ - المبرد الكامل والاصفهانى : الاغانى ج ٢ ص ٣٤١ ، واليعقوبى :

تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٣٧١ .

وزوجة عبد الملك بن مروان ، فقد كان لها منزلة كبيرة عنده ، وكانت احب الناس اليه ، كما يظهر من قصة تروى عنهما ، قيل غضبت يوما لأمر كان بينهما فطلب رضاها بكل شيء فأبت ، واختلت الى نفسها واقفلت بابها فلم تفتح لأحد حتى احتال عليها الخليفة بأن أجلس أحد الخاصة ببابها يطلب توسطها كذبا عليها مدعيا ان احد ابنه عدا على الآخر فقتله ، وان الخليفة عبد الملك ابى الا أن يقتل المعتدي ، فكان هذا سببا في صلاحها مع الخليفة . (٧٦)

كانت محسنة للفقراء تسعى لعمل الخير تصل الرحم ، فحين سألها عبد الملك ان تجعل مالها لابنيها يزيد ومروان الا صغر قالت : « علي بشهود عدول فلما دخلوا عليها قالت : « اشهدوا اني تصدقت بمالي على فقراء آل ابي سفيان » . وقالت ايضا : « اني لا اخاف على ولدي من الفقر فهما ابنا امير المؤمنين » . (٧٧)

ولما قتل مصعب ونصب رأسه بدمشق وأرادوا أن يطوفوا به في نواحي الشام (٧٨) ، اخذته عاتكة بنت يزيد فغسلته وطيبته ودفنته وقالت : « اما رضيتم ما صنعتم حتى تطوفوا به وتنصبوه في المدن ، والله هذا بغي » . (٧٩) وكانت قد نهت زوجها عبد الملك عن قتال مصعب وبكت وبكى جواريتها لبكائها ... وعبثا حاولت صده عن محاربته . (٨٠)

-
- ٧٦ - فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ج ٢ ص ٢٩٧ .
 - ٧٧ - البلاذري : انساب الاشراف ج ١ ص ٢٥٢ .
 - ٧٨ - ابن القيم : الفتوح ج ٦ ص ٦٧ .
 - ٧٩ - البلاذري : انساب الاشراف ج ١١ ص ٢٦ .
 - ٨٠ - ابن طباطبا : الفخري في الاداب ص ١٢٣ .

اما ام البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك وابنة عبد العزيز بن مروان ، فقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجسة في مهام الدولة . (٨١) كانت تقول لزوجها الوليد ، لا احب ان يخلو بك الحجاج وقد قتل الخلق ، وسمعت عن الحجاج يوما قوله للوليد ، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فان المرأة ريحانة وليست قهرمانة . (٨٢)

فأرسلت في طلبه وعاتبته على كلامه للوليد ، وعلى اشياء كثيرة اخرى ، ولم تأذن له بالجلوس واختتمت قولها معه بقول الشاعر عمران ابن حطان فيه : (٨٣)

اسد علي وفي الحروب نعامة فثخاء تنفر من صغير الصافر

ثم امرت جارية لها فاخرجته .

ولأم البنين اخبار كثيرة في الجود والكرم وغيرها من فضائل الاخلاق . (٨٤)

ذكرت سابقا ان احدى زوجات الحجاج هي هند بنت اسماء بن خارجة الفزاري وأعود هنا لأذكر شيئا عنها فهي من ربات الخبرة والحكمة والادب والكمال ، تزوجها جماعة من امراء العراق في الدولة الاموية فتزوجها عبيد الله بن زياد ، وكانت تحبه حبا عظيما ، فلما قتل

٨١ - علي ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب ص ٧٦ .

٨٢ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٢ ص ١٧٠ .

٨٣ - المسعودي : مروج ج ٣ ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ .

٨٤ - المصدر السابق : ص ١٦٠ .

وكانت معه لبست قباء وتقلدت سيفاً ، وركبت فرساً ليعيّد الله ،
 ودخلت الكوفة ليس معها دليل ، وراءها بشر بن مروان ، فخطبها
 وتزوجها ثم مات عنها بشر فلم تجزع عليه ، ثم تزوجها الحجاج (٨٥) .
 ولم يطل زواجها من الحجاج ، فارسل اليها يطلقها بكلمتين ويمتعتها
 بعشرة الاف درهم فأتاها الرسول وقال لها : « يقول الحجاج : كنت
 فبنت ، وهذه عشرة الاف درهم متعة لك » . فقالت له : « كنا فما
 حمدنا ، وبنا فما ندمنا ، واعطت العشرة الاف بشرى لمن بشرها
 بالطلاق (٨٦) ، وقيل كان قد بعث لها هدية زواجه منها مائة الف درهم
 وثيابا كثيرة . (٨٧)

وبعد ان طلقها الحجاج خطبها عبد الملك بن مروان ، فاشترطت
 عليه ان يقود الحجاج الجمل الذي يحمل هودجها من العراق الى
 الشام . (٨٨)

وكانت هند تستنشد جرير من وراء الحجاب وتجيّب على
 اشعاره . (٨٩) وما دمت في الحديث عن الادب والحكمة والشجاعة
 فلا بد من التحدث عن اسماء بنت ابي بكر الصديق (رض) (٩٠) تزوجت في
 صدر الاسلام ، الزبير بن العوام ، وعندما وجد الزبير نفسه في ضيق
 اضطرت اسماء الى أن تكسب قوتها بالاعمال الشاقة ، وقسا زوجها في

-
- ٨٥ - الاصفهاني : الاغاني : ج ١٧ ص ١٥٩ .
 - ٨٦ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٥ ص ٢٠٩ .
 - ٨٧ - الاصفهاني : الاغاني ج ١٨ ص ١٣٠ .
 - ٨٨ - ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ١٣٩ .
 - ٨٩ - كحالة : اعلام النساء ج ٥ ص ٢١٧ .
 - ٩٠ - وتكنى بذات النطاقين : طيفور بلاغات النساء ص ٢٧٣ .

معاملتها ، ثم طلقها فقاست مع ابنها ، (٩١) وشاركته في حياته العاصفة ،
فهي المرأة التي اشتهرت بالحكمة ، والفصاحة ، والشجاعة ، وثبات
الجنان . (٩٢)

ولما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير ، ندب للخروج
الى عبد الله بن الزبير ، فقام اليه الحجاج بن يوسف ، ولما رأى ابن
الزبير من اصحابه تشاقلا وانه لا طاقة له بالحرب دخل على امه اسماء ،
فقال : « كيف أصبحت يا اماه ! » قالت : « اني لشاكية يا بني ، ان في الموت
لراحة ، وما احب ان اموت الا بعد خلتين ، اما ان قتلت فاحتسبك او
ظفرت ففرت عيني بك ، قال : « يا اماه ان هؤلاء قد اعطوني الامان » (٩٣)
فقلت له : « أي بني لا تقبل خطه تخاف على نفسك منها مخافة القتل ،
مت كريسا ، واياك ان تؤسر ، او تعطى بيدك » . (٩٤)

مما ذكر يتبين ان ابن الزبير حاول ان يستسلم لما انقضت من حوله
ذووه وولده ولكن امه صاحت به : لا تمكن عبيد بني امية منك (٩٥)

-
- ٩١ - دائرة المعارف الاسلامية : ص ١٧٠ مادة اسماء ، واسماء
بنت ابو بكر هي الاخت الكبرى لعائشة زوجة الرسول (ص) . وعبد الله
ابن الزبير هو اول مولود للمهاجرين بالمدينة وهو عريق النسب من جهة
ابيه وامه ، ونشأته عالية رفيعة فوالده الزبير احد السابقين الاولين
للاسلام وجدته لابيها صفية بنت عبد المطلب ، عمه الرسول (ص) وخالته
عائشة ، زوجة الرسول (ص) (احمد شلبي : التاريخ الاسلامي ص ٢١٦)
٩٢ - احمد شلبي التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ص ٢١٧ .
٩٣ - اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٩ .
٩٤ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٣ .
٩٥ - طيفور : بلاغات النساء ص ١٣٠ - ١٣٢ .
احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ص ٢٢٦ .

ولضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في ذل ، ولما قال لها : « يا اماه اني اخاف ان ... قتلني هؤلاء القوم ان يمشوا في » . قالت : « يا بني ان الشاه لا تألم السليخ اذا ذبحت » . (٩٦) وقالت له ايضا : « أرى ان تموت كريما ، ولا تتبع فاسقا لئسا » . ولما دنا ليعانقها حسنت على جسمه الدرع فقالت له : « ما هذا صنيع من يريد ما تريد ، فخلع درعه وخرج يقاتل حتى قتل ، وارسل الحجاج رأسه الى عبد الملك ، وبعد بضعة أيام خرجت امه على الحجاج ، وهي عجوز وعمياء ، وبكت ابنها وقالت : اللهم اني راضية عنه فارضى عنه (٩٧) ، ثم قالت للحجاج : يا حجاج اما آن لهذا الراكب ان ينزل ؟ » فقال الحجاج ، « أما روحه فالى مالك ، واما جسمانه ففي طريق البلاء » . فقالت : كذبت يا حجاج ! ان الله تبارك وتعالى من ذلك اعدل من ان يجمع على النبي سيف القاسطين ، وثأر الظالمين ، وقد قال النبي (ص) « يكون في امتي رجلان افاك ومبير ، فاما الافاك فصاحبك عبد الملك بن مروان ، واما المبير فانت يا حجاج ، فقال : صدقت يا اسماء ، انا مبير المنافقين ، فقالت : عليك شاهد عليك ، ثم ولت وهي باكية ، فرق لها الحجاج ، وامر بابن الزبير فانزل عن خشبته وحمل اليها ، فامرت به وصب عليه الماء ، وحنط وكفن ، وصلي عليه ودفن (٩٨) ، وجاء في الكامل لابن الاثير : ان اسماء ارسلت الى عبد الملك بن مروان تستأذنه في تكفينه ودفنه ، فأبى الحجاج ، وكتب الى عبد الملك يخبره بصلبه فكتب اليه يلومه ويقول : الا خليت بينه وبين امه ، فأذن لها الحجاج فدفنته . (٩٩)

-
- ٩٦ - اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٩٩ .
 ٩٧ - فيليب حتي : تاريخ العرب المطول ج ١ ص ٢٥٦ .
 ٩٨ - ابن اعثم : الفتوح ج ٦ ص ٢٨٠ .
 ٩٩ - ابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٣٥٧ .

كانت اسما قد بلغت من العمر مائة سنة لم تقع لها سن ، ولا بيض لها شعر ولم ينكر لها عقل ، واوصى ابنها عبد الله نساءه اذا سمعن بموته عليهن ان يضمنن امه اليهن . (١٠٠)

لقد سجلت رحمها الله بنصحها لابنها شرفا لم يدركه سواها ففضلت موت ولدها على الحياة الذليلة . (١٠١)

وقبل ان اختتم قولي عن النساء اللاتي اشتهرن بالشجاعة والحكمة والدراية ، لا بد من الاشارة الى بعض نساء الخوارج ، فهناك امثلة رفيعة بين نساء الخوارج في العهد الاموي عرفن في الشجاعة ، فقد خرج شبيب بن يزيد الشيباني قائد الخوارج على عبد الملك بن مروان وكانت ام شبيب وزوجته غزالة الحورية ، تتعاقب وزوجها على قيادة الجيش بشجاعة وبسالة ، تذكران على مر الايام ، وقد خرج الحجاج في جيش كثيف وخرجت غزالة في اربعين من جندها ، فواجه الحجاج جلدا لا مثيل له به وولى الادبار (١٠٢) .

وقد رمى الحجاج غزالة بخمسة جيوش وهي تلتهمهم التهاما فقد

١٠٠ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١١٤ .

١٠١ - الاصفهاني : الاغانى ج ١٨ ص ٥٥ ، وابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٦٤ .

١٠٢ - عمران بن حطان ، من شعراء الخوارج (الشراة) طلبه الحجاج فخرج هاربا وظل يتنقل في احياء العرب حتى مات في روذ ميسان الى جانب الكوفة (الاصفهاني - الاغانى ج ١٦ ص ٥٥) .

ملئت القلوب اثرا والافواه خبرا ، وسخر اهل العراق منه وقد عبر بذلك
عمران بن حطان (١٠٣) بعد ان الح في طلبه كتب اليه :

اسد علي وفي الحروب نعامة فنخاء تنفر من حفير الصافر (١٠٤)
هلا برزت الى غزالة في الضحى بل كان قلبك في جناحي طائر

وقتل في موقعة بين شبيب والحجاج غافلتها فرقة من جنده من
ورائها ، ومن بعدها فاض جند شبيب وعفا اثره (١٠٤) ، وقبل ان تموت
اقسمت لتصلي في مسجد الكوفة معقل الحجاج ، ودار امارته ، ولما اتت
جامع الكوفة كان معها سبعين رجلا فصلوا به الغداة وخرجت غزالة
مما كانت أوجبته على نفسها فقال الناس بالكوفة في تلك السنة :

وفت الغزالة نذرهما يا رب لا تغفر لهما

ان النساء اللاتي ذكرتهن سابقا اشتهرن بالعلوم الشرعية واللسانية
والعقلية ، وذوات رأي وظرف وجزل ، واشتهر منهن بالشجاعة والجرأة ،
ونستطيع ان نقول كلهن عربيات في نسبتهم وثقافتهم ، ويندر ان نجد
بينهن من ينتمي الى غير الجنس العربي عدا القيان والمغنيات ، ومع ذلك
فقد تشققت ايضا بالثقافة العربية ، وتأدبن بالادب العربي ، لانهن جلبن
الى البلاد العربية قبل ان يفقهن شيئا من معارف بلادهن .

وقد حفلت كتب الادب والتاريخ بذكر اخبار المغنين والمغنيات
وكلهن من طبقة الجواري . وكان لهن تجار يعدونهن اعدادا فنيا ولاسيما

١٠٣ - الاصفهاني : الاغاني ج ١١ ص ٥٥ وابن خلكان ، وفيات
الاعيان ج ٢ ص ١٦٤ .

١٠٤ - احمد خيرت : مركز المرأة في الاسلام ص ١١٣ .

في الشعر والادب والرقص والموسيقى ، فنشأت طبقة رفيعة من الجوّاري المهبّذات المثقّفات ، كانت حافزا لغيرها من الطبقات الأخرى للاقبال على العلوم والفنون بغية الحظوى عند الرجال (١٠٥) .

وعزة الميلاء أقدم من غنى من النساء بالحجاز الغناء المتقن الموقع وكانت عزة مولاة للانصار بالمدينة وهي أصل من أصول الغناء العربي (١٠٦) وكانت جميلة الوجه والجسم فاضلة عفيفة النفس ، مطبوعة على الغناء ، حاذقة تضرب بالعود ، أخذت الغناء من قدامى المغنيات (١٠٧) ، ماتت قبل جميلة المغنية ، فأخذ عنها معبد ، وابن محرز ، ومالك بن ابي السمع وغيرهم من المكين والمدنيين .

سميت الميلاء لتمايلها في مشيتها ، وقيل بل كانت تلبس المساء وتشبه بالرجال ، فسميت بذلك ، أو لأنها كانت مغرمة بالشراب ، وكانت تقول : خذ ملأ واردر فارغا ، ولكن الصحيح انها سميت الميلاء ، لميلها في مشيتها . (١٠٨)

وقد حجت مع مجموعة من الشعراء والمغنين فتلقاهم في مكة أمثال ابن سريح والعريض وابن محرز ، وخرج أبناء أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون الى حسن هيئتهم (١٠٩) .

١٠٥ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٩ .

١٠٦ - الاصفهاني ج ١٧ ص ١٠١ ، محمد شفيق غربال :

الموسوعة العربية ص ١٢١٠ .

١٠٧ - الاصفهاني : الاغانى ج ١٧ ص ١٦٢ .

١٠٨ - المصدر السابق .

١٠٩ - احمد امين : فجر الاسلام ص ١٣٧ .

قيل كانت عزة مطبوعة على الغناء لا يعيها اداؤه ولا صنعتها ولا تأليفه ، كانت تغني اغاني القيان ، ولما قدم نشيط ، وسائب خائسر المدينة (١١٠) غنيا اغاني بالفارسية ، فلقت عزة عنهما نفعا وألفت عليها الحانا عجيبة ، فهي اول من فتن اهل المدينة بالغناء وحرص نساءهم ورجالهم عليه •

وكان ابن سريج في حداثة سنه يأتي المدينة ، فيسمع من عزة ويتعلم غناءها ، ويأخذ عنها ، وكان بها معجبا واذا سئل من احسن الناس غناء قال : مولاة الانصار المفضلة ، على كل من غنى وضرب بالمعازف والعيدان من الرجال والنساء •

وكان منزلها مأوى القراء ، منهم طويس ، ومعبد ، وكان طويس اذا ذكرها يقول هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع ، وخلق فاضل واسلام لا يشوبه دنس ، تأمر بالخير وهي من اهله وتنتهي عن السوء وهي مجانية له • (١١١)

أما معبد فيقول : « أثبت عزة يوما وهي عند جميلة ، وقد أسنت وهي تغني على معزفة » ، وغنت يوما عمر بن ابي ربيعة لحنا لها في شيء من شعره ، فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صمق معها ، فلما افاق

١١٠ - سائب خائسر : من فحول المغنين الاوائل في الدولة الاموية كان منقطعا الى عبد الله بن جعفر بن ابي طالب لا يفني لاحد سواه ، وقتل سائب في يوم الحرة في خلافة يزيد بن معاوية (الاصفهاني ج ١٧ ص ١٠١ وص ١٠٣) •

١١١ - المصدر السابق ج ١٧ ص ١٠١ ، ص ١٠٣ وص ١٦٤ •

قال له القوم « أغيرك الجهل يا أبا الخطاب » قال : اني سمعت والله ما لم املك معه نفسي وعقلي . (١١٢)

وذكرت سابقا انها كانت قد هبت الى عائشة خاتبة لها ، كلفها مصعب بن الزبير بذلك كما حضرت مجلسا لسكينة بنت الحسين مع ابن سريج وبعد ان غنيا قدمت لهما هدية ثمينة . (١١٣)

ومن المغنيات الشهيرات ايضا جميلة الخزرجية وهي من مغنيات المدينة ، وهي مولاة بني سليم ، وكان دارها قبلة الموسيقيين والمغنين من المكين والمدنين ، وكان عمر بن ابي ربيعة يحضر حفلاتها الموسيقية ، ومن تلامذتها حبابة وسلامة المشهورتان في بلاط يزيد . (١١٤)

وكانت تجمع الى جمالها ورزائتها وبرخامة صوتها ارفع طبقات الغناء ، ويروى انها حجت على رأس موكب من المغنين والمغنيات والشعراء والموسيقيين والاصدقاء ، واندفع الناس بالحجاز وراء الغناء والموسيقى ، ولكنها كانت لا تخلط الجذ بهزل ، فانها لما قضت حجها سألتها المكيون ان تجلس لهم مجلسا ، فقالت : للغناء ام للحديث ؟ قالوا : لهما جميعا فقالت ، ما كنت لأخلط جدا بهزل وأبت ان تجلس للغناء . (١١٥)

وكان الناس يجتمعون عند جميلة ، فتضرب ستارة ، وتجلس

١١٢ - المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٤ .

١١٣ - المصدر السابق : ج ٧ ص ٤٥-٤٦ .

١١٤ - محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ص ١٤٦ .

١١٥ - عمر كحالة : اعلام النساء ج ١ ص ٢٢٩ .

الجواري كلهن فيضربن وتضرب ، وقيل ضربت على خمسين وترا
فتزلزلت الدار ثم غنت على عودها ، والجواري يضربن على
ضربها • (١١٦)

وقد اجمع مجيدو عصرها في الموسيقى ، على انها امام هذا الفن ،
وكانوا يحكمونها فيما كانوا فيه يختلفون ، وكانت جميلة في شبابها
تجتمع بعزة الميلاء في شيخوختها ، وتستفيد منها ، فلذلك يمكن القول
انها عوضت الفن عنها ، واشغلت مكاتنها بعد وفاتها (١١٧) وقد اتخذت
كلتاها المدينة مقاما لاقامة حفلاتها الغنائية ، لان الحجاز وبالاخص
المدينة كانت ابان العصر الاموي موطن الغناء ومنها انتشر الى الشام
والعراق ، فقد استحضر خلفاء الامويين المتأخرين منهم المغنيين من
الحجاز لاقامة حفلات الغناء في دمشق ، وقد اثر هذا الغناء في نفوس
فتيان العرب من اهل هذا العصر ، ودفع بعضهم الى اللهو والعبث •

اما حبابة ورفيقتها سلامة ، فهما اشهر المغنيات في العصر الاموي
قاطبة ، وكان لهما شأن كبير عند الخليفة يزيد بن عبد الملك •

فسلامة كانت مولده من مولدات المدينة وبها نشأت (١١٨) ، وسميت
سلامة القس ، لان رجلا يعرف بعبد الرحمن بن ابي عمار الجشمي من
قراء اهل مكة ، زاهدا ومتعبدا ، وكان يلقب بالقس لعبادته شغف بها

١١٦ - احمد امين : فجر الاسلام ص ١٧٧ •

١١٧ - محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب ص ١٤٦ •

١١٨ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٤ ص ٨٩ •

فغلب عليها لقبه (١١٩) ، واشتراها يزيد بن عبد الملك في خلافة سليمان وعاشت بعده (١٢٠) .

وكانت سلامة وحبابة من فتيات اهل المدينة وكاتتا حاذقتين ظريفتين ضاربتين ، وكانت سلامة احبهما غناء ، وحبابة احسنهما وجها ، كانت سلامة تقول الشعر ، وكانت حبابة تتعاطاه وتحسنه .

وكانت سلامة واختها لسهيل بن عبد الرحمن - امير من قريش - (١٢١) وبالإضافة الى ان سلامة مغنية حاذقة ، وجميلة وظريفة ، وتقول الشعر وترويه ، كانت تقرأ القرآن وتحسن الحديث ، وكانت احسن الناس وجها واسماهن عقلا . (١٢٢)

كان يزيد بن عبد الملك خليف بني امية ، يبالغ في المجون يحضره الندماء في مجلسه ، وحذا حذوه في ذلك ابنه الوليد ، فكان اذا جلس يزيد للشرب (١٢٣) اقعد حبابة في يمينه وسلامة عن يساره ، ويقول يا حبابة غنيني ، ويا سلامة اسقيني .

-
- ١١٩ - ابن قتيبة : عيون الاخبار ج ٤ ص ١٣٤ وابن قيم الجوزية ، اخبار النساء العربيات ص ٢٩ .
- ١٢٠ - الاصفهاني : الاغاني ج ٨ ص ٣٣٦ ، ومحمد شفيق غربال ، الموسوعة العربية ص ٩٩٥ .
- ١٢١ - الاصفهاني : الاغاني ج ٨ ص ٣٣٧ ، وعمر كحالة : اعلام النساء ج ١ ص ٢٣٢ .
- ١٢٢ - الاصفهاني : الاغاني ج ٩ ص ١٣٠ ، والقيرواني : زهرة الاداب ، وغرة الالباب ج ١ ص ٢٣٢ .
- ١٢٣ - ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١٤٦-١٤٧ .

ولما توفي يزيد رثته ، سلامة بمرثية ، فما سمع السامعون بشيء
احسن من ذلك ولا اشجى ، وقد سألها الوليد بن يزيد يوما ان تغنيه
شعرها في يزيد ، فادمت عينها ، فاقسم عليها فغنته ، قال لها الوليد :
« رحم الله ابي ، واطال عمري وامتنعني بحسن غناك يا سلامة ، ولكن
ابم كان ابي يقدم عليك حباة ؟ قالت : لا ادري والله . قال لها :
ولكنني والله ادري ، ذلك بما قسم الله لها ، قالت : يا سيدي أجل (١٢٤) .

اما حباة فهي الاخرى من مولدات المدينة ومن فتياتها ، كانت
لرجل يدعى عثمان بن سهل بن حنيف ، واسمها العالية ، فلما صارت الى
يزيد سماها حباة . (١٢٥)

قال سليمان بن عيان : « هميت ان احجز على يزيد ، فرد يزيد
حباة فاشتراها رجل من اهل مصر » فلما ولي يزيد الخلافة قالت له
زوجته - وهي من آل عثمان بن عفان - يا امير المؤمنين هل بقي من
الدنيا شيء تتمناه بعده ؟ قال نعم حباة . فارسلت سعدة رجلا فاشتراها
باربعة الاف دينار وزينتها حتى ذهب عنها كلال السفر ، فأنت بها يزيد ،
فحظيت سعدة عند يزيد واکرمها وحيها . (١٢٦)

اما المسعودي فيقول : « ان مسلمة بن عبد الملك عدل يزيد وقال
له ينبغي ان تظهر للناس العدل ، وترفض هذا اللهو ، فارتدع عما كان
عليه ، واطهر الاقلاع والندم ، ولكن حباة توسطت باحد المقربين الى

١٢٤ - الاصفهاني : الاغاني ج ٨ ص ٣٤٨-٣٤٩ .
١٢٥ - عمر كحالة : اعلام النساء ، ج ١ ص ٢٣٢ ، ومحمد شفيق
غربال الموسوعة العربية ص ٦٨٨ .
١٢٦ - الطبري : تاريخ الطبري ج ٧ ص ٢٣-٢٤ .

يزيد ورجت ان تسمع يزيد صوتا واحدا من شعر الأحوص ، ثم يفعل ما بدا له ، فقبل ، فلما فرغت جعل يردد قولها ثم عاد بعد ذلك الى اللهو ، وجاء في النجوم الزاهرة ، ان يزيد تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز واقام يسير سيرته ، اربعين يوما ، وترك اللهو والشراب ، فقالت حباة الى احد المقربين ليزيد قربني منه حيث يسمع كلامي ، ولك عشرة الاف درهم ، ففعل فلما سمع انشادها دخل عليها وعاد الى انهماكه ولذاته . (١٢٨)

كانت سلامة عند يزيد بن عبد الملك قبل حباة ، فباتت حباة تنظر الى سلامة بتلك العين الجلية المتقدمة ، وتعترف بفضلها عليها . (١٢٩)

وقد اخذت حباة الغناء عن ام عوف — جارية يزيد بن عبد الملك — وذلك انها كانت تختلف الى يزيد قبل ان تفضي اليه الخلافة وهي طاعنة (١٣٠) في السن ، وكذلك اخذت الغناء عن جميلة ، وعزة الميلاء ، ومعبد وقيل انها دخلت على يزيد في ازار له ذبان ويدها دفترمي به وتتلقاه ، وهي تغني (١٣١) ، وغنت يوما ليزيد فاهوى ليطير ، فقالت : يا امير المؤمنين ان لنا فيك حاجة ، فقال والله لأطيرن ، فقالت : على من تخلف الامة والمالك قال عليك والله : وقبل يدها (١٣٢) .

-
- ١٢٧ — المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٧ .
١٢٨ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٥ .
١٢٩ — الاصفهاني : الاغانى ج ٨ ص ٣٣٧ .
١٣٠ — عمر كحالة : اعلام النساء ج ٣ ص ٣٧٩ .
١٣١ — محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٨٨ .
١٣٢ — المبرد : الكامل ج ٥ ص ١٢١ .

وخرجت معه الى ناحية الاردن ، يتنزهان ، فرماها بحبة غيب ،
فدخلت حلقها وهي تضحك فشرقت وصرخت وماتت ، فتركها ثلاثة ايام
لم يدفنها (١٣٣) حتى انتت وهو يشمها ويقبلها ويكي .

وقيل ايضا انه دعا بحبابة فقال : اسقيني وغنيني ، فتناولت حبابة
حبة رمان فوضعتها في فيها ففصت بها وماتت ، فجزع يزيد جزعا
اذله ، وامتنع من دفنها حتى قال له مشايخ بني امية ان هذا عيب فأذن
في دفنها (١٣٤) ، وبعد خمسة ايام لم يطق ذلك فنبشها ثم مرض مرضا
شديدا حتى قتله (١٣٥) بعد سبعة عشر يوما ، وفي رواية اخرى لم يلبث
بعدها الاربعين يوما (١٣٦) حتى مات ودفن الى جوارها ، وقبل وفاته
ضم اليه جويرية لها كانت تحدثها ، فكانت تخدمه ويتذكر بها حبابة حتى
مات . (١٣٧)

وعلى ضوء هذا العرض التاريخي المركز لدور المرأة في مختلف
مجالات الحياة الاجتماعية والادبية ، والثقافية ، والفنية نستطيع ان
ندرك اهمية ما يمكن ان تلعبه من دور كبير في تقدم المجتمع ونهضته
في مختلف ميادين الحياة ، فالمرأة هي روح الفن ، ومبعث الاصلاح ،
تستطيع ان تكون سعادة المجتمعات ، واداة فعالة في بناء نهضتها وكانت
المرأة ذات شأن في السلم والحرب ، والعلم ، والعمل والادب والفن
جميعا ، والمثل الصالح ، والنموذج القويم .

-
- ١٣٣ - المصدر السابق ج ٥ ص ١٢١ .
١٣٤ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٨ ، والمبرد الكامل ،
ج ٢ ص ٢٥٤ .
١٣٥ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٨ ، وتغري بردي ،
النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٥٦ .
١٣٦ - محمد شفيق غربال : الموسوعة العربية الميسرة ص ٦٨٨ .
١٣٧ - المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٩ .

المراجع

- ابن اعتم : ابو محمد بن اعتم الكوفي « ت ٣١٤ هـ - ٩٢٦ م » .
 (الفتوح ج ٦ الطبعة الاولى : الدكن ، الهند) .
- ابن تفري بردى : ابو المحاسن يوسف بن تفري بردى (ت ٨١٣ هـ -
 ٨٧٤ هـ)
 (النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة -
 القاهرة) .
- ابن حزم : محمد عالى بن سعيد بن حزم الاندلسي (٤٥٦ هـ) .
 (جمهرة انساب العرب) نشر وتحقيق ا . ليفي بروفنسال ،
 ١٩٤٨ - دار المعارف - مصر .
- ابن خلكان : محمد بن شاکر بن احمد الكتبي (ت - ٧٦٤ هـ) .
 (وفيات الاعيان) ج ٢ تحقيق الدكتور احسان عباس
 - بيروت .
- ابن طباطبا : محمد بن علي طباطبا (٧٠٩ هـ) .
 (الفخري في الاداب السلطانية والادول الاسلامية)
 (بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م) .
- ابن عبد ربه : ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (٢٤٦ هـ -
 ٣٢٨ هـ) (العقد الفريد) شرح وضبط ، احمد
 امين ، وابراهيم الايباري وعبد السلام هارون ،
 القاهرة ، ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م) .

ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
(٢١٣ - ٢٧٦ هـ) (١ - عيون الاخبار) مجلد ٤ كتاب
النساء القاهرة ١٩٦٩ م .

(٢ - الشعر والشعراء) ج ٢ المحقق احمد محمد
شاكر القاهرة ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م .

ابن قيم الجوزية : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن بكر الزرعي
الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ -
٧٥١ هـ) .
(اخبار النساء) بيروت .

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن
عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الاثير .
(الكامل في التاريخ) بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م) .

ابو الفداء : عماد الدين ابن عماد بن علي بن شاهنشاه (٦٧٢ هـ -
٧٣٢ هـ) (المختصر في اخبار البشر) الطبعة الاولى ،
المطبعة الحسينية - القاهرة ١٣٢٥ هـ .

ارنولد : توماس ارنولد .

(تراث الاسلام) جمهرة من المستشرقين باشراف
ارنولد ، تعليق جرجيس فتح الله - الموصل ١٩٥٤ م .

الاصفهاني : ابو الفتح علي بن الحسن المرواني (٢٨٤ - ٣٥٦ هـ) .
(الاغانى) دار الثقافة - بيروت .

امين : احمد امين .
(فجر الاسلام) الطبعة التاسعة ١٩٦٤ م القاهرة .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر البلاذري ٢٧٩ هـ .
١ - (انساب الاشراف) ج ٢ تحقيق باقر المحمودي
الطبعة الاولى بيروت ١٩٧٤ م .

٢ - (انساب الاشراف) ج ١١ مطبعة بولس ايل فسي
مدينة غرينزولد المسيحية ١٨٨٣ م .

- بهم : محمد جميل بيهم .
- ١ - (المرأة في التاريخ والشرائع) بيروت ١٣٣٩ هـ - ١٩٢١ م .
- ٢ - (المرأة في حضارة العرب) الطبعة الاولى - دار النشر للجامعيين ، ١٩٦٢ م .
- حتي : فيليب حتي - (ت ١٩٧٨ م) ، وادوار جرجس ، وجبرائيل جبور (تاريخ العرب المطول) الطبعة الرابعة - مطابع الفندور - بيروت ، ١٩٦٥ م .
- حسن : حسن ابراهيم حسن : (تاريخ الاسلام السياسي ، والديني ، والثقافي ، والاجتماعي) القاهرة ، ١٩٥٣ م .
- حسن : علي ابراهيم حسن : (نساء لهن في التاريخ الاسلامي نصيب) الطبعة الثانية ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٣ م .
- حسين : قدرية حسين . (شهيرات النساء في العالم الاسلامي) دار الكتاب العربي - بيروت .
- الخربوطلي : علي حسين الخربوطلي : (تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي) دار المعارف بمصر - ١٩٥٩ م .
- خيرت : احمد خيرت (مركز المرأة في الاسلام) مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧٥ .
- دائرة المعارف الاسلامية : مادة رابعة العدوية ومادة اسماء .
- الرفاعي : انور الرفاعي : (الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م) .

- الزجاجي : ابو القاسم : عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠ هـ) .
- (امالي الزجاجي) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٣٨٢ هـ .
- زيدان : جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي - القاهرة ١٩٣١ .
- شلبي : احمد شلبي : (التاريخ الاسلامي ، والحضارة الاسلامية) الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م .
- الطبري : ابو جعفر محمد بن جرجيس الطبري (٢٢٤ هـ - ٣١٠ هـ) . (تاريخ الطبري ، تاريخ الرسل والملوك) دار المعارف - بمصر ١٩٦٦ م .
- طيفور : ابو الفضل احمد بن طيفور (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ) . (بلاغات النساء) دار النهضة الحديثة - بيروت ، ١٩٧٢ م .
- العبد الله : عصام العبد الله . (رسالة المرأة المؤمنة) .
- عبد الرحمن : عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) . سكينه بنت الحسين ، مطبعة دار الهلال .
- العطية : خليل ابراهيم العطية ، وجيل العطية جمعا وحققا . (ديوان ليلي الاخيلية) دار الجمهورية بغداد ، ١٩٦٧ م .
- عفيفي : عبد الله عفيفي . (المرأة العربية في جاهليتها واسلامها) مطبعة الاستقامة - القاهرة .
- غني : قاسم غني . (تاريخ التصوف في الاسلام) ترجمة صادق نشاء ، واحمد القيسي ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

- غريبال : محمد شفيق غريبال :
(الموسوعة العربية الميسرة) مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - ١٩٥٩ م .
- القبرواني : أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت - ٤٥٣ هـ) (زهرة الاداب ، وثمره الالباب) حققه محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٢ م .
- القلقشندي : أبو العباس احمد (٧٥٦ هـ - ٨٢١ هـ) .
(نهاية الارب في مسرعة انساب العرب) تحقيق ، ابراهيم الابياري - القاهرة ، ١٩٥٩ م .
- كحالة : عمر كحالة .
(اعلام النساء) الطبعة الثانية ، مطبعة الهاشمية ، ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م .
- المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ) .
(الكامل في اللغة العربية والنحو والتصريف) ج ٢ عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل ابراهيم - السيد شحاتة ، مطبعة النهضة - مصر .
- المرزباني : أبو عبيد الله بن عمران المرزباني (ت ٣٨٤ هـ) .
(اشعار النساء) تحقيق سامي مكى العاني ، وهلال ناجي ، دار الرسالة للطباعة بغداد ١٩٧٦ م .
- المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ) .
(مروج الذهب ، معادن الجواهر) طبعة منقحة - بيروت .
- المنجد : صلاح الدين المنجد .
(جمال المرأة عند العرب) بيروت مطبعة دار الكتب ١٩٥٧ م .
- اليقوي : احمد بن ابي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي (٢٩٢ هـ) (تاريخ اليعقوبي) لندن بريل ، ١٨٨٣ م .

الفكر العربي بين الجبر والاختيار

الدكتور صالح الحمارنة
الجامعة الأردنية

صدر في الكويت مؤخراً كتاب جديد بعنوان : « الفكر العربي - جذوره وثماره » ، عن مكتبة الفلاح ، من تأليف الدكتور محمد الهاشمي ، استاذ الفكر العربي في جامعة بغداد لعدة سنين... فالدكتور الهاشمي منذ تخرجه من بريطانيا في مطلع النصف الثاني من هذا القرن قام بتدريس مادة الفكر العربي الاسلامي في العراق ، وقد تخرج على يديه العديد من الطلبة ، كما اشرف على كثير من رسائلهم الجامعية ، وكان دائماً يحثهم على التفكير العلمي السليم وعلى الجد في العمل وعدم التسليم للغيبيات والكسل .

والدكتور الهاشمي في كتابه « الفكر العربي » يحاول القاء الضوء على العوامل الرئيسية التي دفعت بحركة الفكر في العصر الوسيط، يوم نهض العرب بقوة الاسلام ، وأنشأوا دولة كبرى وحضارة زاهية (١) .

* تعليق على كتاب

في هذا الكتاب يجد القارئ دراسة دقيقة مركزة في موضوع الفكر العربي من حيث نشأته الاولى تتناول البذور الأصلية التي نشأت في العصر القديم ، وتأثير هذه البذور في العصر الوسيط ، وما لحق ذلك من تطور على يد المفكرين العرب .

لقد حرص مؤلف الكتاب على إبراز الرابطة ما بين الفكر الاسلامي وبين البيئة الفكرية والعلمية التي نشأ فيها وترعرع حيث يقول : « فاختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة ... فأثروا فيهم وتأثروا بهم ... » (٢) ، فالبصرة والكوفة ، هذان المركزان الكبيران للحضارة العربية الاسلامية ، قد قامتا في السهل الذي كان « ميدان تفاعل حضاري ، ومركز نشاط اقتصادي ... ومنذ القدم كانت تلتقي فيه أمم مختلفة وعناصر متباينة ... تتنافس في كسب المعرفة وتتسابق في الحصول على وسائل القوة » (٣).

وحين يتحدث عن الجزيرة العربية ، يشير المؤلف الى التأثير الحضاري في نفوس العرب هناك، قد جاء بعوامل اخرى فيقول : « ان العزلة قد جعلت من بلاد العرب حمى يتعذر على الغزاة اقتحامه ، فكانت بهذا ملجأ للمضطهدين من جيرانهم ومن غيرهم ، فلجأ اليها اليهود والنساطرة واليعاقبة في اعقاب الاضطهادات المختلفة التي واجهتهم ... » (٤) فهذه الجماعات الوافدة على العرب عاشت بينهم واختلطت بهم ، وكانت واسطة تعريفهم بالافكار الغريبة عنهم ، وبهذا ارتفع مستواهم الفكري وتهدبت جوانب من حياتهم الفطرية الساذجة (٥) ، ومعلوم أيضا أن العرب بدورهم كانوا يرحلون الى الاقطار المجاورة لهم ، وهذا الاحتكاك له

أثره الحضاري أيضا ، يذكر المقدسي : « كان فيهم من كل ملة ودين ، وكانت الزندقة والتعطيل ، فيما قریش والمزدكية والمجوسية في تميم واليهودية والنصرانية في غسان ، والشرك وعبادة الاوثان في سائرهم ^(٦) » ، فكان العرب كما يقول المؤلف « يسرون الى التحول بوعي وبدون وعي ، فجاءت اليقظة الفكرية فزادت في الميل الى هذا التحول وذلك انها كشفت مواطن ضعف الحياة القديمة ... ففي الشعر الجاهلي شواهد ، وفي حركة الاحناف شواهد اخرى ، هذه الدعوات وغيرها اسهمت اسهاما فعالا في الاعداد لما حققه الاسلام فيما بعد . ^(٧)

ان ابرز قضية يركز عليها مؤلف الكتاب هي حرية الرأي والأخذ بالعقلانية في الحياة الفكرية ، ويؤكد المؤلف ان الدين الاسلامي الحنيف يحث المؤمنين على ذلك ويدعوهم اليه ، « ومع ان الاسلام دين يقوم على الوحي والمعجزة وما اليهما مما يتصل بالفكر الماورائي - الذين يؤمنون بالغيب - الا انه كثيرا ما لجأ الى العقل يحرك به الوعي الذاتي للفرد ، ويدفع به الى الاستقلال في الرأي » ^(٨) . وان الدعوة الى النظر العقلي كثيرا ما ترد في القرآن الكريم تملأ صفحاته وتندافع في سوره سواء المكي منها او المدني .

ويفرد الدكتور الهاشمي مكانا بارزا في كتابه لقضية الجبر والاختيار في الاسلام فهو يرى ان في الجبر « الانحراف امر مفروض من الله على الناس » في حين في الاختيار « يرى ان الانحراف من صنع الانسان ، وأن واجب الانسان تعديل هذا الانحراف » ^(٩) . ويعلل الدكتور الهاشمي ظهور هذين التيارين الفكريين بانه « في تاريخ كل أمة واجهت حكاما منحرفين يريدون التستر على انحرافهم ، ومحكومين واعين يريدون تعديل الانحراف » ^(١٠) ، ويشرح حقيقة

الانسان في ظل هذين التيارين فيقول : « ان الفرد في مجتمع « الجبر » آلة طوعية ، معزول عن الاسهام في العملية الاجتماعية ... والحياة الاجتماعية في ظل « الجبر » تدور في اطار خاص لاتتعداه ، اما في مجتمع « الاختيار » فان الفرد حر في تصرفه ، وهو مدعو الى الاسهام في العملية الاجتماعية اسهاما ايجابيا نافعا بل ان ذلك مفروض عليه لان الحياة الاجتماعية في نظر اهل الاختيار ، اوسع من ان تحد باطار خاص او نظام راكم ، وهي تستوحي نظمها وتقاليدها من الممارسة والتجربة لا من مجرد الفروض والتخمينات ، وذلك انه بدون التجربة تهبط الحياة ويتدنى مستواها » . (١١)

ويخلص المؤلف الى القول : « هذا وكأن منطق « الجبر » منطق من يريد ابقاء ما كان على ما كان » ومنطق « الاختيار » منطق من يريد التغيير والتطوير والتسامي ، والذين بنوا قواعد الاسلام كانوا من اهل الاختيار ، وكان خصومهم من اهل الجبر .

اننا نلمس بوضوح ان موقف المؤلف مع حرية الاختيار ، فهو من اكثر المتحمسين لحرية الفكر في العالم الاكاديمي العربي ، ويرى ان الاسلام هو مع حرية الفكر ، وواجب كل مسلم وعربي ان ينهج المنهج السليم في حرية التفكير والعمل بمثابة على تغيير عالمنا الراكد الى عالم متغير ينشد الخير والتقدم والانطلاق .. ويورد المؤلف أمثلة واضحة من الآيات الكريمة تدعم موقفه وتؤيد ما يذهب اليه : « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه شيء » (٣٥/١٦) ، « واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، ان اتمم الا في ضلال مبين » (٤٧/٣٦) . وجاء في سبب نزول هذه الآية الاخيرة ان مشركي قريش احتجوا في منع

الحقوق ، من اطعام الغني للفقير ، بان قالوا — كيف نطعم من يقدر
الله على اطعامه ولو شاء لأطعمه • (١٢)

ويعلل الدكتور الهاشمي ظهور مبدأ الجبر عند المسلمين ، بأن
معاوية لما رأى الناس لا يأترون بأمره جعل من الجبر حجة عليهم (١٣) ،
واستمر هذا التيار بقوة مدة خلافة بني امية ، لكن المؤلف يستدرك
فيقول : « بيد ان الجبر الذي تسلحت به دولة بني امية في مواجهة
خصومها في ميدان الجدل والحوار لم يحقق — على ما يبدو — الغاية
المقصودة منه كاملة ، ذلك انه مناقض لروح الاسلام ، هذه الروح التي
فرضت على المؤمن الا يستسلم للواقع الفاسد وان يعمل لهدمه ، وقد
اكنت هذه الروح سيرة النبي الكريم والصحابة » (١٤) ، فبين كيف
فشل اتباع مذهب الجبر في الدفاع عن مذهبهم حين أخذ بعض الخلفاء
ومن يعملون في خدمتهم ، يجاهرون بالفسق ويمعنون في البطش
بخصومهم الى الحد الذي صار من المتعذر معه تبرير سيرتهم هذه
بالجبر ، وانها مفروضة على الناس بقضاء من الله (١٥) ، يضاف الى ذلك
كله انه اذا كان فساد الحكام امرا واقعا يجب الاستسلام له ، لانه بقضاء
الله فالثورة عليهم ، وهي واقع آخر ، لا بد ان تكون بقضاء الله ايضا ،
وهكذا فان منطق الجبر كان في المدى البعيد هادما نفسه بنفسه (١٦) .

اما تيار الجماعة النقية الوادعة المؤمنة ، فلكي يجد تمثيلا له في
ظل الجبر برز مذهب الارزاء كبديل له (وفي اللغة ، الارزاء معناه
التأجيل) ، واول ما ظهر مذهب الارزاء في دمشق ، والمقصود به هنا
هو تأجيل الحكم على مرتكب الكبيرة بالكفر او بالفسق ، وترك البت
في هذا الامر الى الله تعالى • ويقرر المؤلف ان مذهب الارزاء لا يختلف

مضمونا وغاية عن الجبر ، وانما تميز بطابع التقوى (١٧) ، اذن فالارجاء
تأكيد للاسلام الظاهري لا ثورة عليه .

وطبيعي ان نرى المؤلف يتحمس لمبدأ المعتزلة ، وان يرى في مواقف
واصل بن عطاء وجماعته، بداية نصف دولة العقل على دولة النقل ، ذلك
الزحف الذي اعطى للايمان صورا جديدة (١٨) ، « ان قدرة الانسان
على افعاله واختياره لها وحرية في هذا الاختيار ، كان المنطق الاول
للفكر العربي الاسلامي » (١٩) .

ومذهب الاعتزال ، بجانب الترجمة والنقل الى العربية ، كان من
اهم الاسباب الكامنة وراء التقدم الكبير في الفكر العربي الاسلامي
وفي مختلف العلوم في القرنين الرابع والخامس الهجريين .

ويخلص المؤلف الى القول ان « الفكر العربي الوسيط كان
مرهونا بقضية الحرية في الرأي والقول ، فالحرية في الرأي تزود الفكر
بالمادة الضرورية لبقائه ، والحرية في القول تفسح المجال للتنافس
واختيار اقوم الآراء وأصوبها ... وفي هذا تكمن فرص الابداع
والاختراع » (٢٠) ، ويتضح هذا بمقارنة العصر العباسي الاول بالثاني،
ففي الاول كان الفكر نشيطا يوم كانت الحرية مكفولة ، وفي
الثاني مال الى الركود بعد ان اشتدت السلفية على اهل العلم ، ومنعوا
من الاشتغال بالعلوم العقلية والفلسفية (٢١) . وهنا يعلل الاستاذ
المؤلف لماذا توفرت الحرية في العصر العباسي الاول ولم تتوفر في العصر
الثاني منه ، يعلل ذلك بان المجتمع العربي انذاك كان يعتمل في داخله
تياران رئيسيان متباينان ، او كما سماها المؤلف فريقين : « فريق انحدر
من بيئة صحراوية قاسية تميزت بشح الموارد وصعوبة العيش الى حد

يعجز فيه الفرد مهما بذل من جهد عن تأمين حاجاته الضرورية ، وبذلك استولى عليه اليأس وفقد ثقته بنفسه واستسلم للقضاء والقدر ، وعاش عيشة راكدة ، «محافظة» يأبى التطور والتحرر ، ويرى فيهما « بدعة » و « ضلالة » ، وفريق آخر له جذور عريقة في الحضارة ، عاش في بيئة غنية بالموارد فعمل وانتج وافاد من عمله ونتاجه... وبذلك نشأ نشأة مستقلة يعتمد على ذاته ويثق بقدرته وعقله الخلاق ويرى فيهما مادة الحياة والوسيلة المؤدية الى التغيير والتطوير .. « هذان الفريقان اللذان كانا القوة الدافعة في ذلك العصر كانا في صراع دائم » (٢٢) .

وبعد ان يستعرض المؤلف النهوض الفكري والعلمي والفلسفي لدى العرب المسلمين في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، يشير الى الضعف والركود الذي اعقب ذلك ويعلل اسبابه بان « الفكر مال الى الركود نتيجة ضغط السلفية المتشددة على المشتغلين بالعلوم العقلية والفلسفية وانعدام حرية الرأي (٢٣) ، وان هذا الاتجاه المعادي للعلوم العقلية والفلسفية اخذ يتصاعد بمرور الزمن الى ان استقر على قاعدتين :

أ - احدهما حظر الاشتغال بهذه العلوم ومنع استخدامها في موضوعات الدين بحجة انها قاصرة عن درك الحقائق ولان الاشتغال بها يؤدي الى الالحاد .

ب - والاخرى اعتماد ما وراء العقل والوجدان طريقا للكشف عن الحقيقة الدينية ... والعكوف على العبادة والرياضة الصوفية .

وهنا يتطرق المؤلف الى الصوفية واثرها في الحياة الفكرية لدى العرب المسلمين فيشير الى ان الصوفية التي اعتمدها كثير من الناس ، هي الطريقة الهندية ، هذه الطريقة التي تدعو الى اعتزال الناس والدنيا

وقتل الجسد والشهوة ، وبظهور التصوف ، يقول المؤلف ، « تكتمل المذاهب الاربعة التي انتهى اليها الفكر العربي في العصر الوسيط وهي: السلفي والعقلاني والكلامي والتصوف » (٢٤) .

ويشرح المؤلف بجمال ان الاسلام ضد التصوف الذي يدعو الى قهر الحياة والجسد في المخلوق ، فيقول : « اجل لقد دعا الاسلام الى الزهد في حطام الدنيا وحث الناس على البساطة في العيش والقصد في المأكل والملبس وذلك لمواساة الفقراء والمحرومين ومساعدتهم ، وقد ضرب الرسول الكريم والصحابة الاجلاء مثلاً اعلى في هذا الباب ، فكانوا قدوة لغيرهم في التضحية ونكران الذات . يسد ان الرسول الكريم والصحابة ، كانوا مع هذا يعملون من اجل الدنيا ، ويسعون في طلب الحياة ، وعملوا من اجل الحصول على وسائل القوة فيها ، وتنافسوا في ذلك اشد التنافس ، فابن هذا من بغض الحياة واماتة الاحساس وتعذيب الجسد والتمارين المولدة للذهول الصوفي ؟ هذا يدفع بحركة الفكر وذاك يعيقها ... » (٢٥) .

ويؤكد المؤلف في النهاية حقيقة هامة جدا وهي « ان الخلط بين التصوف الذي هو اصيل في دين الاسلام ، والتصوف الذي هو غريب عنه طارئ عليه ، هو الذي حمل بعض « الباحثين » على ان يعزو ركود الفكر العربي في العصر الوسيط الى دين الاسلام ، في حين ان هذا الدين بريء من ذلك » (٢٦) .

وبعد ، ففي هذا الوقت العصيب الذي يواجه الشعوب العربية ومثقفها ، والذي يكثر فيه الدس والتضليل بل والتحريف في تراثنا الثمين ، ويكثر من جهة اخرى التزمّت والتشدد ، وتزداد صيحات

اللاعقلانية وصرخات الطائفية الضيقة ، وترتفع كذلك دعوات التعصب المقيت بحيث يخلق جو للفساد ثم للمزايدات الفارغة وتروج بضاعة المتاجرين بالمبادئ والقيم ، هؤلاء الناس الذين نرى في رد الكندي (ت ٢٦٠ هـ) ، فيلسوف العرب ، على السلفيين الذين يتظاهرون بالدفاع عن الدين ، نرى فيه - كما اورده المؤلف - جوابا شافيا لهم « .. ذبا عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين وهم عدماء الدين ، لان من تجر بشيء باعه ، ومن باع شيئا لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين ، ويحق ان يتعري من الدين من عاند قنية علم الاثيياء بحقائقها وسماها كفرا » (٢٧) .. أقول ، في هذا الوقت صدر كتاب الدكتور الهاشمي القيم ، هذا الكتاب الذي يدعونا الى التفكير العلمي الحر السليم ، والى الاحتكام الى منطق العقل ، هذا العقل الذي يقول عنه الفارابي ، الفيلسوف ، « ان أخص الخيرات بالانسان هو عقل الانسان ، اذ بالعقل صار الانسان انسانا » (٢٨) .. كما يبحثنا على التعرف بوعي على تراثنا المجيد فان « المعرفة هي ائمن شيء يملكه الانسان في هذه الحياة » (٢٩) .

صحيح ان الكتاب يتعرض لمسائل اخرى كثيرة يمسه المؤلف مسا دون ان يتوسع في شرحها ، مثل مسألة : متى ظهر الخوارج ؟ فهناك اشارات جاءت في الكتاب تشير الى انهم ظهرت في اواخر ايام الخليفة عثمان (رضي الله عنه) ، وانهم برزوا ايام واقعة الجمل (٣٠) ، ثم ان الكتاب لا يناقش كثيرا من المدارس الفكرية الاخرى المتعددة ، والتي مسها الاستاذ الهاشمي مساهمة رفيقا ، وهو خير من يعرفها ، والتي كان بودنا لو طالت ... ثم نرى التسليم لدى المؤلف ببعض الروايات

التاريخية التي تحتاج الى نقد وتمحيص مثل الصفحات ٧٣ ، ٧٤ ، كما نجد في الصفحات من ٤٥-٥٠ سردا تاريخيا فيه شيء من الاسهاب يتنافى مع طبيعة الكتاب واسلوب الدكتور الهاشمي •

واخيرا ، فان الذي نرجو من استاذنا الكريم ، الهاشمي - امسك الله في عمره - ان يتوسع في صفحات الكتاب في الطبعة او الطبعات القادمة حتى تعم الفائدة المرجوة ، آملين ان تشاع قراءته بين الناس •



المراجع والمصادر

- ١ - الدكتور محمد الهاشمي : الفكر العربي - جذوره وثماره ، مكتبة الفلاح - الكويت ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٥ .
- ٢ - الهاشمي : ن.م. ص ٥ .
- ٣ - ٤ ، الهاشمي : ن.م. ص ٢٦ ، ٢٨ .
- ٥ - الشهرستاني : الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .
- الهاشمي : الفكر العربي ، ص ٢٨ .
- ٦ - المقدسي : البدء والتاريخ ، ٤ : ٣١ .
- ٧ - ٨ ، الهاشمي : الفكر العربي ، ص ٣٣ ، ٣٠ .
- ٩ - ١٠ ، ١١ - الهاشمي : ن.م ص ٥٣-٥٤ .
- ١٢ - الطبرسي : مجمع البيان ٨/٤٢٨ .
- الهاشمي : الفكر العربي ، ص ٥٤ .
- ١٣ - ١٤ ، الهاشمي : ن.م ، ص ٥٤ .
- ١٥ - ١٦ ، ١٧ - الهاشمي : ن.م ، ص ٥٨-٥٩ .
- ١٨ - ١٩ ، الهاشمي : ن.م ، ص ٦٥-٦٧ .
- ٢٠ - ٢١ ، ٢٢ - الهاشمي : ن.م ، ص ١٣٩ .
- ٢٣ - الهاشمي : ن.م ، ص ١٠٣ .

- ٢٤ - الهاشمي ن.م، ص ١١٥ .
- ٢٥ - ٢٦ ، - الهاشمي : ن.م ، ص ١٤٠-١٤١ .
- ٢٧ - الكندي : رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريده ، ص ١٠٣-١٠٤ .
- الهاشمي : الفكر العربي ، ص ١٠٠ .
- ٢٨ - الفارابي : التنبيه على سبل السعادة ، ص ٢٢ .
- ٢٩ - الهاشمي : الفكر العربي ، ص ١٠ .



خبر

”تيمورلنك في ديار بكر“

الدكتور عماد الدين خليل
المختص التاريخي - المرحلي

كان لظهور تيمورلنك القوي على مسرح الاحداث في الشرق ، وطموحه الشديد للسيطرة على العالم الاسلامي ، وحشده القوات الكبيرة لهذا الغرض ، والاتصارات السريعة التي احرزها في تقدمه نحو الغرب ، كل هذه العوامل اثرت تأثيرا مباشرا على وجهة الاحداث في منطقة (ديار بكر) حيث كان (الاراتقة) يحكمون منذ قرون عديدة .

والاراتقة هؤلاء هم عائلة تركية تنتمي الى جدها أرتق بن اكسك الذي قدم وعشيرته مع السلاجقة ولعب دورا كبيرا في تثبيت اركان دولتهم ايام السلطان الثالث ملكشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) فولوه وابناءه عددا من المناصب العسكرية والادارية في العراق والشام وفلسطين .. واتهى الامر بولديه سقمان وايلغازي الى الاستقرار بديار بكر في الجزيرة الفراتية في اواخر القرن الخامس الهجري وتأسيس اماراتهم هناك ، حيث ظلوا يحكمون الاقليم القرون الطوال ، ولعبوا دورا خطيرا

في مجرى العلاقات مع الصليبيين والمماليك والمغول ، فضلا عن
العباسيين والسلاجقة ، كما اسهموا في النمو الحضاري للاقليم ..
وكان سقوط آخر اماراتهم في ماردين على يد دولة الخروف الاسود
عام ٨١٢ هـ (١) .

ولقد بذل الاراتقة لدى اقتراب الخطر التيموري جهودا كبيرة في
اطلاع حكومة المماليك على تحركات تيمورلنك واهدافه العسكرية ،
وتنبيههم الى مدى الاخطار التي تحيق ، ليس فقط بالامارات الموالية
لهم ، بل بوجود المماليك ذاته ، كما غدت ماردين مركزا لاستخبارات
المماليك في هذا الشأن . ولقد قام الاراتقة بهذا الدور بسبب قربهم من
مسرح الاحداث ، وتعرضهم للخطر قبل غيرهم ، وولائهم
للمماليك (٢) .

في ٤ رجب من عام (٧٨٩ هـ - ١٣٨٧ م) عاد الى مصر من ماردين
الامير طغاي الذي كان قد سافر الى ماردين لكشف اخبار تيمورلنك ،
واعلم المسؤولين ان اميران شاه بن تيمورلنك دحر قوة موالية للمماليك
بقيادة قرا محمد امير التركمان ، وانه توجه بعد ذلك صوب آمد في
ديار بكر ومن ثم تكاثرت الاشاعات عن قرب قيام تيمورلنك بغزو الشام
ومصر على رأس قوات كبيرة « فحصل للسلطان - الظاهر برقوق -

١ - انظر : عماد الدين خليل : صفحات مجهولة من الغزو التتري ،
مجلة المورخ العربي ، عدد ١١ سنة ١٩٧٩ .

٢ - انظر ابن الفرات ، تاريخ ٣٦١/٩ ، ٣٧٨ و
Lane - pool , Egypte , pp. 331 - 332 .
وابن اياس ، بدائع الزهور ٢٩٩/١ ، ٣٠٠-٣٠١ .

تشويش عظيم بسبب ذلك » وامر بالاستعداد لمجابهة الموقف (١) .

انشغل تيمورلنك طيلة السنوات التالية في الجبهة الشرقية ، ولم يوجه اهتمامه الجاد صوب الجبهة الغربية (العراق ، الجزيرة ، الشام) الا في عام (٧٩٥هـ - ١٣٩٢م) بعد ان ثبت اقدامه في الشرق . ففي التاسع عشر من شوال من ذلك العام حضر الى مصر رسول الملك الظاهر عيسى امير ماردين واخبر المسؤولين بان تيمورلنك استولى على تبريز ، شمالي بلاد فارس ، وانه ارسل رسوله الى صاحب ماردين يطلب قدومه الى هناك فاعتذر هذا له « بان على يده يدا وهو صاحب مصر » فارسل تيمورلنك يقول له ، ان اسلافك حكموا هذه البلاد منذ مئات السنين وكانت الخطبة والسكة باسمهم « فايش كان صاحب مصر » ؟ (٢) ، وواضح له انه ليس لسلطان مصر حكم بماردين ، ومن ثم ارسل اليه خلعة وطلب منه ان ينقش اسمه على الذهب والدنانير كاعتراف رسمي بسلطته . ولذا ارسل صاحب ماردين كتاب تيمورلنك هذا والخلعة بصحبة رسوله الى مصر ليعلم رأي السلطان « فاعيد الجواب اليه بان يخطب باسم سلطانه الى ان نرى ما نختاره » (٣) ، وقد اكد صاحب ماردين بهذا الموقف مدى ارتباطه بسياسة المماليك والتزامه بما يروونه بشأن هذا الحدث الخطير (٤) .

١ - ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٢٤٧/١١ .

٢ - ابن الفرات ، تاريخ ٣٤٣/٩ .

٣ - العيني عقد الجمان (مخطوطة ٤٥٤/٦٥) ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٤٣/١٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ٤٠٥/٩ وانظر ابن دقماق الجواهر الثمين (مخطوطة ص ٢١٦) .

٤ - انظر المقرئى ، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦/٣) عاشور ، العصر المماليكي ص ١٥٨-١٥٩ .

قام تيمورلنك في نفس العام (٧٩٥هـ - ١٣٩٢م) بمهاجمة بغداد ، واجرى فيها مجزرة رهيبة ، وتوجه في مطلع العام التالي نحو الشمال ففتح تكريت عنوة وتقدم الى الموصل فصالحه صاحبها وسار في خدمته ، ومن ثم تقدم الى ديار بكر (١) فاستولى على عدد كبير من مدنها وحصونها في فترة قصيرة كرأس عين والرها وميافارقين ، وقامت قواته خلال ذلك بنهب وتخریب معظم مناطق ديار بكر ، وقدم الى تيمورلنك حاكم حصن كيفا الايوبي وحاكم جزيرة ابن عمر واعلنا طاعتهما له فاعادهما الى امارتيهما دون ان يتعرض لهما بأذى (٢) . واراد الظاهر عيسى حاكم ماردين ان يحذو حذوهما بعد اذ لم ير جدوى انتظار نجدة من المماليك الذين لم يتخذوا موقفا حاسما ازاء قوات تيمورلنك في ديار بكر ، فيما عدا المحاولة التي قام بها نائب حلب بارسال قوة قوامها الف فارس هاجمت طلائع قوات تيمورلنك عند الرها وهزمتها فانسحب هؤلاء الى رأس العين (٣) ، وسوى وقوف قوات لب وبعض القبائل التركمانية على الفرات لصد حركات العدو (٤) .

جمع الظاهر عيسى حاشيته وقال : اني ذاهب الى هذا الرجل (أي تيمورلنك) ومظهر له الانقياد فان ردني حسبما اريد فهو المراد ،

-
- ١ - المقرئزي ، السلوك (القسم المخطوط ٤١٦-٤١٧) ابن العماد ، شذرات الذهب ٣٣٧/٦ ، ٣٣٤ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣ .
 - ٢ - ابن العماد ، شذرات ٣٤٤/٦-٣٤٥ ، ابن خلدون ، العبر ١١٧٥-١١٧٦ ، ١٠٨٢-١٠٨٥ ، البدليسي ، شرفنامه ص ١٧٥ ، ابن صصري ، الدرة المضيئة ص ١٤٨ ، ابن عربشاه ، عجائب المقدور فسي اخبار تيمور ص ٤٧-٤٨ ، الصائغ ، تاريخ الموصل ص ٢٥٣-٢٥٤ .
 - ٣ - ابن الفرات تاريخ ٣٧٠/٩ .
 - ٤ - ابن خلدون ، العبر ١٠٨٥/٥ .

وان طالبني بالقلعة فامتنعوا انتم ، واياكم ان تسلموها اليه او تعمدوا على كلامه ، وان خيركم بين تسليم القلعة وبين اتلافي فاختاروا الثانية فانكم ان تسلموها اليه خرجتم من باطنكم وظاهركم واتى بالهلاك على أولكم وآخركم وخسرتم شعاركم وغبنتم انفسكم ودياركم .. ومن ثم توجه الى تيمورلنك بعد ان استخلف ابن اخيه الملك الصالح شهاب الدين احمد بن الملك السعيد اسكندر . ونزل يوم الاربعاء ١٥ ربيع الاول (٧٩٦هـ - ١٣٩٣م) واجتمع بتيمورلنك في نهاية الشهر بمكان يدعى الهالية . وسرعان ما قبض عليه تيمورلنك وطلب منه تسليم القلعة فاجابه : « بان القلعة عند اربابها ويبد اصحابها وانا لا املك الا نفسي فقدمتها اليك وقدمت بها عليك فلا تحملني فوق طاقتي » . فأتى به تيمورلنك الى القلعة وطلب من اهلها تسليمها اليه فأبوا فقدمه اليهم ليضرب عنقه او يسلموا فرفضوا ، فطلب منه كي يؤمنه ستة ملايين درهم فضي ، فضلا عن الهدايا التي يتقرب بها اليه (١) . ويظهر ان الظاهر لم يتمكن من استجابة طلبه الاخير لذا ضيق عليه تيمورلنك في سجنه ومنعه عن الناس « ليذهب عنه ما به من قوة » (٢) ومن ثم اخذ تيمورلنك يتردد وقواته في انحاء ديار بكر والموصل يفسدون ويخربون . وفي جمادي الاخرة امر قواته بالتوجه الى ماردين فتقدموا اليها بسرعة مذهلة ووصلوها على حين غفلة يوم الثلاثاء الثاني عشر من الشهر المذكور فحاصروها فجرا واحلوا بها الدمار (٣) ، وتسلقوا اسوار المدينة

١ - ابن عربشاه، عجائب المقدور ص ٤٨-٤٩ .

٢ - المصدر السابق ص ٤٩ .

٣ - المصدر السابق ص ٤٩ ، وينقل عنه ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢) ويذكر الفياث في تاريخه (ص ٢٠٧) ان سبب عودة قوات تيمورلنك الى ماردين هو اعلانها العصيان ، كما يذكر

من ثلاث جهات ، الجنوب والغرب والشرق ، وتمكنوا من الاستيلاء عليها عنوة وخربوا فيها وفسقوا ، وانسحب اهالي المدينة الى القلعة تحت حماية نبال جند القلعة ، وبقي قسم منهم يقاتلون الاعداء . واستمر القتال حتى امتلأت المدينة بالقتلى والجرحى ، وعندما دخل الليل انسحب جند تيمورلنك وعسكروا تجاه المدينة واخذوا يعدون انفسهم لهجوم جديد لدى الفجر (١) . وقام علاء الدين الطنبغا - نائب السلطنة بماردين - وجماعة من الامراء بتعزيز التحصينات (٢) . وما ان طلعت الفجر حتى قامت قوات تيمورلنك بهجومها ضد المدينة بشكل اشد واعنف فخربوها وهدموا اسوارها وتمكنوا عقيب الظهر من الاستيلاء



→

البديسي (شرفنامه ص ١٥١) انه صدرت من حاكم ماردين بحق اصحاب تيمورلنك امور غير مرضية . والواضح ان القلعة لحين وقوع هذه الاحداث لم تخضع لتيمورلنك او تعلن طاعتها له مما يضعف ما اورده البديسي والغيث ، فضلا عن ان ما اورده ابن عربشاه في هذا المجال يعتبر اشد وثوقا بسبب معاصرته للاحداث ، وانظر ابن خلدون ، العبر ١١٧٦/٥ ، وابن صصري ، الدرة المضيئة ص ١٤٨ .

١ - ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٤٩-٥٠ ، وينقل عنه ابن تفرى بردي ، المنهل الصافي ٤٩٧/٢ .

٢ - ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١٦٦-١٢) ويشيران الى ان هؤلاء قاموا بتنصيب الملك الصالح ابن اخي الملك الظاهر عيسى سلطانا في ماردين عوضا عن الظاهر الذي كان محتجزا لدى تيمورلنك . ونحن نعلم - حسبما اورده ابن عربشاه - ان الظاهر قام بنفسه باستخلاف ابن اخيه قبيل مغادرته لماردين .

على البلد (١) واستغلوا مزارعه وبساتينه للحصول على المؤونة (٢) ، ومن ثم شددوا حصارهم على القلعة ، وابلى الطنبا نائب ماردين بساء حسنا في القتال ، وتمكن انصاره من حماية القلعة وقتل عدد كبير من قوات تيمورلنك (٣) ، ولما فشل هذا في الاستيلاء على القلعة فكر بسلوك سبيل الحيلة والمصالحة ، فارسل اليهم مع رسوله يقول : نعلم اهل قلعة ماردين والضعفاء والعجزة والمساكين اننا قد عفونا عنهم واعطيناهم الامان على نفوسهم ودمائهم فليأمنوا وليضاعفوا لنا الادعية (٤) . ولكن حيلته لم تنجح لشدة يقظة المسؤولين في ماردين . وبسبب ذلك ولقلة المؤونة ، واشتداد البرد اضطر الى فك الحصار والتوجه الى آمد (٥) . وما ان فرض الحصار عليها وبدأ في قتالها حتى طلب اهلها الامان فأمنهم ثم ما لبث ان اعمل فيهم السيف واباد معظمهم وقام بتخريب المدينة ، كما تمكن من الاستيلاء على بعض المواقع الاخرى في المنطقة . ومن ثم عاد الى بلاده في ذي القعدة عام (٥٧٩٦هـ).

١ - ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ ، ويشير ابن صصري (الدرة المضيئة ص ١٥٨) الى ان الشائعات وصلت دمشق باستيلاء تيمورلنك على ماردين ، وان رد الفعل لدى اهالي دمشق كان شديدا حيث عمهم الخوف ، مما يشير الى مدى اهمية ماردين كأهم حصن في الجزيرة .

٢ - التاريخ الفيائي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٣ - ابن الفرات ، تاريخ ٤٥٣/٩ ، العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦ - ١٢) .

٤ - ابن عربشاه ، عجائب المقدور ص ٥٠ وهو يذكر انه نقل رسالة تيمورلنك هذه الى اهالي ماردين بنصها كما وجدها .

٥ - يخطيء (بوقا) في الاشارة الى ان تيمورلنك استولى على ماردين خلال هذا الهجوم (دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ١٦٠/٦ - ١٦١) .

— ١٣٩٣ م) (١) مستصحبا معه الملك الظاهر « بسوء نية » (٢) حيث
اعتقله في مدينة سلطانية مع اربعة من كبار امرائه ، وضيق على الظاهر
لكي يقطع خبره كلية عن ماردين (٣) .

وما ان رحل تيمورلنك عن ماردين حتى ارسل صاحبها الى الظاهر
سلطان المماليك في مصر يخبره ان تيمورلنك لم يستطع الاستيلاء على
ماردين وانه عجز عنها ، وكان قد اشيع قبل ذلك على افواه الناس انه
قد استولى عليها ، ففرح السلطان بذلك وخلع على رسوله (٤) .

وهكذا استطاعت ماردين بما كانت تتمتع به من حصانة ، وبتضحية

١ - ابن عربشاه ، ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل
الصادق (مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨) الفياث ، تاريخ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، ابن
خلدون ، العبر ١١٧٦/٥ ، ١٠٨٢ - ١٠٨٥ ، ابن دحلان ، الفتوحات
١٠٥/٢ ، البدليسي شرفنامه ص ١٥١ - ١٥٢ ، الرمزي ، وقائع قزان
وبلغار ٦١٢/١ ، ويذكر الصائغ (تاريخ الموصل ص ٢٥٣ - ٢٥٤) نقلا عن
السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ٣ جزء ٢ ص ١٣٤) ان سبب عودة
تيمورلنك الى ماردين والمواقع المجاورة في الجزيرة والقيام باعمال انتقامية
ضدها في عامي ٧٩٦ و ٨٠٣ هو عدم وفاء حكامها بالالتزامات المالية
السنوية تجاه تيمورلنك ، ولان هؤلاء تغيروا عليه وخلعوا طاعته وصاروا
في طاعة السلطان احمد الجلائري بعد عودته الى بغداد . واذا كان هذا
ينطبق على ماردين في عام ٨٠٣ كما سبأتي فانه لاينطبق في المرة الاولى
٧٩٦ حيث ان ماردين لم تلتزم حينذاك بأي شيء تجاه تيمورلنك .

٢ - ابن عربشاه ص ٥٠ .

٣ - ابن عربشاه ص ٥٠ ، ونقل عنه ابن تغري بردي ، المنهل الصافي
(مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨) .

٤ - ابن الفرات تاريخ ٣٧٨/٩ ، العيني عقد الجمان (مخطوطة
٤٦١/٦٥) .

سلطانها الظاهر واخلص امرائها ان تصمد امام هجوم تيمورلنك وان تحافظ على استقلالها دون معظم مدن الجزيرة ، ودون ان تحصل على مساعدة تذكر من حلفائها المماليك . وقد اتجه رسول صاحب ماردين ثانية الى مصر في جمادي الاخرة من العام التالي (٧٩٧هـ - ١٣٩٤م) لمقابلة السلطان الظاهر ، فخلع هذا عليه وارسل معه خلعا ثيبا للملك الصالح صاحب ماردين ^(١) تأكيداً لحسن العلاقات بين الطرفين ولموقف الاخير من هجوم تيمورلنك وعدم تخاذله ، ومن ثم اعيدت خطبة صاحب ماردين للسلطان الظاهر ^(٢) .



حاول تيمورلنك ان يستخدم وسيلة اخرى لاختضاع ماردين بعد ان اخفق في الاستيلاء عليها بالقوة، فعمل على الاستفادة من وجود الظاهر عيسى محتجزاً لديه منذ عام (٧٩٦هـ - ١٣٩٣م) . ويصور ابن عربشاه الخطوات التي اتبعها تيمورلنك لتحقيق هذا الغرض حيث يقول: مكث الظاهر سنة معتقلاً لا يدري احد خبره ، ثم وفدت الملكة الكبرى اليه وخففت عنه ما به من ضيق وسمحت له بمراسلة جماعته وحرضته على طلب الدخول في رضى تيمورلنك وطاعته زاعمة له انها ناصحة له وطالبة مصلحته ، وكان ذلك من مكائد تيمورلنك وبشارته . ثم رجع تيمورلنك بعد ان صفى مشاكله في الجهات الشرقية من مملكته الى همذان في شعبان (٧٩٨هـ - ١٣٩٥م) واستدعى الظاهر « باكرام تام وانشراح صدر وخاطر » ففكوا قيوده وقيود امرائه وعظموه غاية

١ - ابن الفرات ، تاريخ ٤٠٥/٩ .

٢ - ابن دقماق ، الجوهر الثمين (مخطوطة ص ٢٢١) .

التعظيم مع ذويه ودخل الظاهر على تيمورلنك في ١٧ رمضان « فتلقاه - هذا - بالاحترام واعتنقه واذهب عنه دهشه وقلقه وقبله في وجهه مرارا واعتذر اليه مما فعله معه جهارا وقال له ، انك والله ولي ورفيع القدر كأبي بكر وعلي وتحلل منه عما صدر في حقه ، واضافه ستة ايام ، وخلع عليه خلع الملوك العظام واحله محلا جميلا واعطاه عطاء جزيلا . من ذلك مائة فرس وعشرة بغال وستون الف دينار وستة جمال وخلع مزر كشة . وانعامات وافرة . . ولواء يخفق على رأسه » كما اعطاه ستا وخمسين منشورا كل منشور بتولية بلد . وان لا ينازعه فيه منازع . وكان مما شملته تلك البلاد ، الرها في اقصى ديار بكر الى حدود اذربيجان وارمينية « وكل ذلك من الدهاء والمكر وان جميع حكام تلك البلاد يكونون تحت طاعته ، معدودين في جملة خدمه وجماعته ، يحملون اليه الخراج والخدم ولا - يصدرون الا عن امره - بحيث يكون شخص كل من مجاوريه ، بما افاء الله عليهم ، لظله فيء ويعفى هو فلا يحمل الى تيمورلنك ولا الى غيره شيء ، وهذا وان كان في الظاهر كالاكرام فانه فيما يؤول اليه وبال عليه وانتقام ، وفيه كما ترى ما فيه ، والقاء العداوة بينه وبين مجاوريه » (١) .

اشترط تيمورلنك على الظاهر ، لقاء ذلك ، ان يكون تحت حمايته ويعول في كل اموره عليه ، وخاصة في النواحي السياسية والعسكرية ، وان يلبي دعوته بالقدوم اليه كلما طلبه (٢) ، ويضرب السكة باسمه . وأن لا يطيع صاحب مصر ، وان يلقي القبض على الامير علاء الدين

١ - ابن عربشاه ص ٥١ وانظر ابن العماد، شذرات ٦/٣٥٢-٣٥٣.

٢ - ابن عربشاه ص ٥١ ، ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل

الصادف (مخطوطة ٢/٤٩٧-٤٩٨) ، ابن العماد ، شذرات ٦/٣٥٣ .

الطنبغا فور دخوله ماردين ويرسله اليه . فحلف له الظاهر على ذلك (١) ومن ثم عانقه تيمورلنك وودعه وامر امرائه بتشجيعه ، فخرج من الضيق الى السعة في رمضان سنة (٧٩٨هـ - ١٣٩٥م) وتوجه الى تبريز حيث اجتمع باميران شاه ابن تيمورلنك فزاد هذا في اكرامه وعطاياه وشيعه في احسن هيئة ، ومن ثم توجه الى ديار بكر عن طريق ارمينية . وما ان وصل خبره الى اهالي امارته حتى ابتهج الناس ودقت البشائر يوم الجمعة الحادي عشر من شوال ، وخرج اهالي ماردين واكابرها للاستقبال وعلى رأسهم ولي عهده الملك الصالح ، فدخل المدينة وتوجه الى مدرسة حسام الدين وزار والده وامواته الماضين وعزم على التنازل عن منصبه والتوجه الى الحجاز ، الا ان الناس خاصتهم وعامتهم لم يتركوه « وتراموا عليه » وعند ذلك قرر البقاء في منصبه (٢) . وبلغ الطنبغا ان الظاهر يريد القبض عليه وارسله الى تيمورلنك فهرب الى مصر في المحرم من عام (٧٩٩هـ - ١٣٩٦م) فانعم عليه السلطان (الظاهر برقوق) وعلى من معه ورتب لهم الرواتب الضخمة (٣) .



بهذا الاسلوب استطاع تيمورلنك اخضاع الارائقة في الوقت الذي عجز عن تحقيق ذلك باستخدام القوة . وبتسلم الظاهر عيسى مقاليد الحكم في ماردين في اواخر عام (٧٩٨هـ - ١٣٩٥م) اتجهت

-
- ١ - ابن العماد ، شذرات ٣٥٣/٦ .
 - ٢ - ابن عربشاه ص ٥١-٥٢ ، ونقل عنه ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢-٤٩٨) .
 - ٣ - ابن الفرات تاريخ ٤٥٣/٩ ، ابن دقماق ، الجواهر الشمسين (مخطوطة ص ٢٢٣) العيني ، عقد الجمان (مخطوطة ١١/٦٦-١٢) .

العلاقات الخارجية للإمارة وجهة جديدة مخالفة لما كانت عليه فقد غدت خاضعة لتيمورلنك وكان عليها ان تخطب له وتضرب السكة باسمه وان يلبي اميرها دعوة تيمورلنك كلما وعاه والا يطيع صاحب مصر (١) ، وبهذا انتهت العلاقات الودية بين الاراتقة والمماليك تلك العلاقات التي استمرت ما يقرب من القرن والتي ظل الاراتقة طوالها موالين للمماليك في سياستهم الخارجية ومراسيمهم الداخلية ، فضلا عن ان شك الظاهر بجدوى علاقته مع المماليك وامكان قيام هؤلاء بانقاذ امارته من غزو الغزاة ، دفعه الى مصالحة الايوبيين المتحمسين لتيمورلنك في حصن كيفا، كما دفع هؤلاء الى التصالح مع القبائل التركمانية التي بدأت تغزو المنطقة وخاصة الآق قوينلو (٢) .

ولكن الاوضاع لم تستمر بهذا الاتجاه سوى فترة قصيرة ، كان الظاهر يتحين خلالها الفرص لاعلان العصيان على السيطرة التتارية . والواضح انه ارغم على قبول شروط تيمورلنك بسبب الظروف السيئة التي مرت به خلال فترة اعتقاله ورغبته في التخلص من الاسر . وقد اوضح ابن عربشاه انه حاول التنازل عن منصبه فور وصوله الى ماردين مما يشير الى انه لم يخضع كل الخضوع لاغراءات تيمورلنك وانه فضل التنازل عن منصبه على البقاء فيه تابعا للتتار يأتمر بأمرهم (٣) . وفي الندوة الادبية التي عقدت اثر تسلمه المنصب وما قيل فيها من

١ - ابن عربشاه ص ٥١ ، ابن العماد ، شذرات ٣٥٣/٦ ، ابن الفرات تاريخ ٤٥٣/٩ .

٢ - Enc. Isl. Art. Artukids , New ed .

٣ - ابن عربشاه ص ٥٢ .

ايات احياءات بسدى حقه على تيسورلنك ورغبته وحاشيته بزوال ملكه
حتى لقد انشد احدهم وهو الحسن بن طيفور :

طغى (تمر) واستأصل الناس ظلمه وشاعت له في الخافقين الكبائر
لقد زاد بغيا فافرحوا بزواله لأن علي الباغي تدور الدوائر

ويظهر ان الظاهر كان يتمتع باستقلال كبير خلال السنوات التي
سبقت عصيائه بسبب رغبته في التمرد على السلطة التتريية من جهة
ولانشغال تيمورلنك خلال تلك السنوات « في جهات اخرى وانه اهمل
امر ماردين وتناساها ولم يتعرض الى ما يتعلق بها من مدنها وقراها » (١)
ومن ثم اعاد الظاهر صاحب ماردين الخطبة لبرقوق في مصر (٢) . وفي
عام (٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م) اتاحت الظروف لتيسورلنك اتخاذ اجراءات
شديدة ضد ماردين بسبب موقف صاحبها المتردد تجاه السلطة التتريية .
فقد استدعي تيمورلنك في ذلك العام من قبل بعض قواده بسبب
عصيان بعض الامراء جنوبي الاناضول ، فتوجه الى ارزنجان ومنها الى
ماردين حيث قامت قواته باعمال انتقامية ضدها من نهب وتخريب (٣) .
ويظهر ان تيمورلنك طلب من صاحب ماردين خلال ذلك مطالب عديدة
فجاهر بالعصيان « لما كان قاساه اولا من طاعة ذلك الغادر - الذي -
ندم على اطلاقه اول مرة » (٤) .

لم يشأ تيمورلنك الانشغال فترة طويلة بماردين للعمل على اخضاع

١ - المصدر السابق ص ٦٣ .

٢ - ابن اياس ، بدائع الزهور ١/ ٣١٥ .

٣ - ٤ - ابن عربشاه ص ١١٦ .

صاحبها وتأديبه ، لذا غادرها على ان يعود اليها بعد تصفية مشاكله وتنفيذ اهدافه الواسعة في الجهات الشمالية الغربية من العالم الاسلامي . واستطاع في تلك الجولة ان يدمر ويستولي على عدد من المدن الاسلامية في آسيا الصغرى والشام كسيواس وبهسنا وملطية ثم حلب ودمشق . ثم كر عائدا في ٣ شعبان (٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) الى حلب - من دمشق - وفعل بها ما فعله في المرة الاولى ، واتجه من هناك الى ماردين بعد ان قوي مركزه اثر تحطيمه الجناح الشمالي لدولة المماليك . ونهبت قواته الرها لدى مرورهم بها ، ومن ثم ارسل تيمورلنك رسوله الى ماردين يستدعي الظاهر برسالة رقيقة اعرب فيها عن شوقه الشديد للقاءه ، فأبى الظاهر ان ينزل اليه ولم يستمع الى كلامه « ولا التفت اليه ، فانه كان قد (آذاه) اول مرة فما احتاج الى تجربته آخر مرة ، وسلك معه بر السلامة » ^(١) واكتفى بارسال خادم له يدعى الحاج محمد ابن خاصبك ومعه الهدايا والخدم ، واعتذر لتيمورلنك عن حضوره بعدة أمور منها تخوفه من غدره كما فعل في المرة الاولى عام (٧٩٦ هـ - ١٣٩٣ م) فلم يلتفت تيمورلنك الى ذلك وتقدم على رأس قواته صوب ماردين ونزل على دنيسر في العاشر من رمضان وتهيأ لحصار ماردين . وكان سكان المدينة قد استعدوا لذلك فاخلوا المدينة وانتقلوا الى القلعة الشديدة الحصانة والتي تتمتع بسوارد تسوية كثيرة في الجهات الخلفية من جبلها ذي الوادي الكثير الانهار والذي تنتشر فيه المزارع والمراعي ^(٢) . وشدد تيمورلنك الحصار عليها من شتى جهاتها ، واخذ يتدارس مع قواده نقاط الضعف في امكانياتها الدفاعية ، ولم يكن

حواليها مكان للقتال ولا لنصب المجانيق ، فعول تيمورلنك على القيام بمحاولات لنقب بعض جوانب حصونها بالمعاول والفؤوس لفتح ثغرات فيها تتمكن قواته من التسرب عبرها الى قلب القلعة ، واستمرت عمليات الهدم والنقب الى العشرين من رمضان دون جدوى . ولما ادرك تيمورلنك عدم جدوى الاستمرار على الحصار قام بتخريب المدينة وتهديم اسوارها ومبانيها وجوامعها وقلع اشجارها « فمحا آثارها وفك اساسها واحجارها »^(١) ومن ثم غادر ماردين في ٢٠ رمضان (٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) متوجها الى بغداد واخذ يعث في طريقه بتلك المنطقة ، فخرّب نصيبين ورعى مستغلاتها وفعل بها ما فعل بماردين^(٢) .

ترك تيمورلنك احد حلفائه التركمان وهو قرايلوك عثمان امير قبيلة (آق قوينلو) على حصار قلعة ماردين ، بعد ان ولاء على آمد وبعض المواقع المجاورة في المنطقة ، وقد اضطر هذا الى الانسحاب هو الآخر بسبب مناعة ماردين من جهة ، وعدم وجود المراعي الكافية لاطعام خيول القوات المهاجمة من جهة اخرى^(٣) .

وهكذا استطاعت ماردين ان تثبت قدرتها العظيمة على المقاومة بعد ان اعلنت العصيان على اقوى دولة في الشرق انذاك ، واستطاعت ان تقاوم حصارا تمكن اصحابه ان يكتسحوا بقواتهم الضخمة - خلال ذلك

١ - المصدر السابق ص ١١٧ ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨) ، العيني ، عقد الجمان (١٤٠/٦٦) .
٢ - ابن عربشاه ص ١١٧-١١٨ ونقل عنه ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ ، وتناول الحادثة باختصار كل من الفياث ، التاريخ الفيائي (مخطوطة ص ٢١١) ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ٢٦٤/١٢ - ٢٦٦ .

٣ - التاريخ الفيائي (مخطوطة ص ٢١١) وانظر ابن عربشاه ص ١١٨ .

العام بالذات - معظم الجهات الغربية الوسطى من العالم الاسلامي .
وكان من المتوقع ان تسقط هذه الامارة او تعلن استسلامها فور عودة
الجيش التتري المنتصرة لحصارها في رمضان من عام (٨٠٣هـ -
١٤٠٠ م) ولا ريب ان هنالك عوامل عديدة مكنت ماردين من الثبات
بوجه الحصار ، منها ان تيمورلنك كان منهمكا في الاستعداد للتوجه
الى بغداد واعادة اخضاعها ، ولذا فانه ما لبث ان ترك احد قواده على
الحصار وتوجه هو الى بغداد ، وكان من المرجح ، لو اشرف بنفسه
وبكل قواته على الحصار ، ان تضطر ماردين على الاستسلام . ومنها ان
الخراب الذي لحق بالمناطق المحيطة بماردين من جراء التحركات
العسكرية المستمرة ، لم يمكن قوات قرايلوك عثمان من الحصول على
الطعام سواء لقواته او لخيوله ولذا اضطر الى الانسحاب . كما لا ينكر
ما كانت تتمتع به قلعة ماردين من حصانة طبيعية وموارد تموينية (١)
ساعدتها على عدم تسكين الغزاة منها قرونا طويلة ، فضلا عن ان الارائقة
كانوا قد ترسوا على الدفاع واتخاذ الاجراءات المناسبة له بما يمتلكوه
من خبرات سابقة في هذا المجال ، وهكذا وجدنا سكان المدينة
ينسحبون بسرعة الى القلعة قبل ان تبدأ قوات تيمورلنك الحصار .

ورغم كل ما سبق فان هذا الحصار كان قد الحق اضرارا بالغة
بالامارة ، وأصاب بالدمار مدينة ماردين ولم يسلم منه الا القلعة ، وقد
ترك قرايلوك عثمان المنطقة وقد تحولت الى خراب (٢) وغادرها عدد
كبير من سكانها (٣) ، ولم تستطع ماردين ان تنهض من كبوتها هذه المرة

١ - ابن عربشاه ص ١١٦ وانظر مادة (ماردين) في المصادر
الجغرافية الاسلامية .

٢ - التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢١١) .

٣ - ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢ - ٤٩٨) .

اوتستعيد ازدهارها وعمرانها ، خاصة وانه لم تكن هناك قوة اسلامية تختمي بها هذه الامارة لتتجه بعد ذلك الى الاعمار والبناء كما كانت تفعل في السابق . ذلك ان الممالك كانوا قد تلقوا ضربات قوية حاسمة من قبل تيمورلنك في الشام لم يستطيعوا معها ان يعيدوا تنظيم علاقاتهم الخارجية مع القوى الاسلامية ، وخصوصا في الشام والجزيرة والاناضول ، طيلة سنوات عديدة . ويظهر ان الاراتقصة حاولوا ان يلتزموا في هذه الفترة بسياسة الحياد وعدم استفزاز أي من تيمورلنك او الممالك ولذلك نجدهم يتخذون دور الوسيط في المفاوضات التي جرت بين الطرفين في عامي (٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م) و (٨٠٥ هـ - ١٤٠٢ م) (١) .

تعرضت ماردن طيلة السنوات التي سبقت سقوطها الى هجمات مستمرة من قبل القبائل التركمانية في المنطقة وبخاصة قبيلة الخروف الابيض التي اعتاد زعيمها قرايلوك عثمان المجيء كل سنة الى اطراف ماردن « فيرعى الزرع ويخرب ويمضي » (٢) . وقد اضطر الظاهر عيسى الى مصانعته وعدم اللجوء الى قتاله (٣) بسبب ما لحق ماردن من خراب ودمار اثر حصار تيمورلنك عام (٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) فضلا عن

١ - القلقشندي ، صبح الاعشى ٣٢٠/٧ - ٣٢٤ .

٢ - التاريخ الفيائي (مخطوطة ص ٢٣٠) . وقرايلوك هو بن قطلوبك كان ابوه احد امراء حاشية ملوك ماردن ، وقد انتهى ابنه هذا الى تيمورلنك وحارب معه وتمكن من الاستيلاء على آمد وبعض المواقع القريبة منها فأقره تيمورلنك عليها ، ويعتبر قرايلوك مؤسس دولة الخروف الابيض (آق قوينلو) انظر ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة) ٣٧٣/٢) والتاريخ الفيائي (مخطوطة ص ٢١١ ، ٣٠٦) وابن عربشاه ص ١١٨ .

٣ - ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (مخطوطة ٤٩٧/٢) .

عدم امكان اللجوء الى حماية المماليك في الشام بسبب ما اصابهم من ضعف اثر الضربة التي تلقوها من تيمورلنك ، ومن ثم وجد الظاهر نفسه مضطرا الى التوسل لدى تيمورلنك ان يكف قرايلوك عثمان عنه ، فطلب تيمورلنك من حليفه عثمان التوقف عن مهاجمة ماردين الا ان هذا لم يستجب لامر تيمورلنك واستمر على غاراته ^(١) . وقد اوقف عثمان بهجماته هذه اعادة اعمار ماردين وتحصينها كما ساعد على اضعافها ونشر الخراب في ربوعها مما ادى الى فقدان كل مقوماتها الدفاعية ومكن بالتالي قرا يوسف امير دولة الخروف الاسود من اسقاطها بعد فترة قصيرة .

عمل الظاهر جهده لايقاف هجمات قرايلوك عثمان على ماردين ورأى ان خير وسيلة لتحقيق ذلك هي التحالف مع امير قوي للعمل ضد مطامع عثمان ، ووجد فرصة مناسبة في التحالف مع الامير جكم بن عوض نائب حلب المملوكي الذي انشق على المماليك عام (٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م) واعلن نفسه سلطانا في حلب ، وخطب له في انحاء واسعة من الشام . وقد تم الاتفاق بينه وبين الظاهر عيسى على قتال عثمان ، فتوجها على رأس قواتهما الى آمد في ذي الحجة سنة (٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م) لاستردادها منه ، فتصدى لهما عثمان بقواته واتتصر عليهما بعد قتال قصير ، واسفرت المعركة عن مقتل جكم والظاهر وتشتت قواتهما ^(٢) ، ولا ريب ان تحالف الظاهر عيسى مع جكم ألّب المماليك عليه واعطى المجال للقبائل التركمانية في الجزيرة لتوثيق علاقاتهم بالمماليك ^(٣) ، وبهذا ازدادت عزلة ماردين وغدت تقف وحدها وجها لوجه امام مصيرها .

١ - المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٢ - المصدر السابق ٤٩٧/٢ - ٤٩٨ . وانظر ابن اياس ، بدائع الزهور

٣٥١/١ ، ٣٥٢ ، صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ص ٢١٦ .

٣ - انظر المقرئزي ، السلوك (القسم المخطوط ٣ - ١ - ٨٠) .

تولى حكم ماردين بعد الظاهر ابن اخيه الملك الصالح شهاب الدين
احمد بن اسكندر بينما استمر قرايلوك في هجماته على الامارة مما ادى
الى انهاكها تماما (١) .

وفي عام (٨١٢ هـ - ١٤٠٩ م) عزم قرا يوسف ، امير دولة
الخروف الاسود (قراقوينلو) التي كانت تشمل انذاك اذربيجان واربل
والموصل وسنجار وبعض انحاء العراق ، على التوجه الى ديار بكر في
محاولة لضمها الى امارته ، مستفيدا من فرصة تحالفه مع المماليك (٢) .
فتوجه الى ماردين وهنالك التقى بقرايلوك عثمان وجرى قتال بين
الطرفين اسفر عن هزيمة قرايلوك ، ومن ثم حاصر قرا يوسف ماردين
التي كانت قد فقدت جل طاقتها الدفاعية ، واذا ادرك الملك الصالح انه
عاجز عن مقاومة قرايوسف طلب منه اجراء مفاوضات مع خصمه ،
وعرضت حاشية ماردين على الصالح ان يخطب ابنة قرايوسف ويتنازل
له عن ماردين كمهر لذلك لقاء ان يمنحه قرا يوسف الموصل (٣) وان
يدفع له عشرة الاف دينار والاف فرس وعشرة الاف رأس من الغنم (٤)،
فاستحسن الصالح هذه الشروط وعرضها على قرايوسف فقبلها هو
الاخر ، ومن ثم تسلم ماردين وزوج ابنته بصاحبها وارسله الى
الموصل (٥) .

١ - ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٤٩٧/٢ -
٤٩٨) والقسم المنشور ٢٢١/١ - ٢٢ .
Enc. Isl. Art. Artukids , (New ed) .

٢ - المقرئى ، السلوك ، (القسم المخطوط ٨٠-١-٣) .
٣ - التاريخ الفياثي (مخطوطة ص ٢٣٠-٢٣١) .
٤ - ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ، القسم المنشور ٢٢٢/١ .
٥ - التاريخ الفياثي (مخطوطة ص ٢٣٠-٢٣١) .

فعل قرا يوسف ، لدى دخوله ماردين ، ما فعله تيمورلنك في البلاد التي استولى عليها (١) ، ومن المرجح ان عددا كبيرا من بقايا البيت الارتقي قتلوا خلال ذلك ، وان كثيرا من المعالم الحضارية الارتقية درست ، وان شواهد ثلاثة قرون ونصف من حياة الاراتقة اضحت في قبضة قبيلة تركمانية جديدة على الحضارة . وبعد اربعين يوما من دخول الصالح الموصل اسقي سما هناك ومات (٢) مخلفا اربعة اولاد ، فاخرجهم قرايوسف من الموصل (٣) . وبذلك قضى على اخر نفوذ سياسي للاراتقة ، وغدت امارة ماردين ضمن دولة الخروف الاسود (٤) ، وقد ارسل قرايوسف الى الممالك في الشام يعلمهم باستيلائه على ماردين ، وانه على نية التوجه الى الشام لما بين الطرفين من المودة والعهد (٥) .

- ١ - ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، القسم المنشور ٢٢٢/١ .
- ٢ - التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠-٢٣١) ويذكر ان ابن تغرى بردى (المنهل الصافي ، المنشور ٢٢٢/١) ان ذلك حدث بعد ثلاثة ايام فقط من دخول الصالح الموصل وان زوجته توفيت هي الاخرى وان ذلك تم عام ٨١١ وليس ٨١٢ كما اورد الغياث في تاريخه ، ولاريب ان ماورده الغياث اكثر دقة بسبب اطلاعه على تفاصيل هذه الاحداث .
- ٣ - ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، (القسم المنشور ٢٢٢/١) .
- ٤ - المصدر السابق ٢٣٩/١-٢٤٠ وانظر ، المقرئزي ، السلوك (القسم المخطوط ٨٠-١-٣) ويخطيء ابن حجر (الدرر الكامنة ٩٦/٢) في القول بأن استيلاء التركمان على ماردين تم عام ٨٠٩ هـ بعد قتل صاحبها الظاهر عيسى في تلك السنة ويخطيء العمري (تاريخ الموصل ص ٦٩) في ان اول ظهور قرايوسف كان عام ٨١٣ هـ ، كما يخطيء العزاوي (العراق بين احتلالين ٢٧/٣-٢٨) في عدم تمحيصه لتواريخ هذه الفترة .
- ٥ - المقرئزي ، السلوك (القسم المخطوط ٨٠-١-٣) .

ولكن ماردین لم تبق بيد قرايوسف طويلا ، اذ اعاد قرايلوك عثمان الكرة عليها وهاجمها مستغلا فرصة تغيب حاكمها المدعو ناصر الذي انا به فيها قرايوسف ، وتمكن قرايلوك من الاستيلاء عليها في عام (٨١٣ هـ - ١٤١٠ م) (١) .

وهكذا قضي على آخر الامراء الاراتقة ، وسقطت آخر اماراتهم على يد قوات من جنسهم من التركمان (٢) ، بعد ان حكمت ما يزيد على الثلاثة قرون تعرضت خلالها لاطار شتى وهجمات مستمرة . وكان الذي يجعلها تصمد دائما ما تتميز به من امكانيات دفاعية ، فضلا عن وجود قوة كبيرة تركز اليها وتدخل في حمايتها ازاء الاخطار والهجمات، ولكن الانهاك الذي لحقها بسبب الهجمات المستمرة من قبل تيمورلنك والقبائل التركمانية ، والضربات التي وجهت الى الممالك في الشام على يد تيمورلنك كانت العوامل الاساسية في سقوط الامارة ، اذ تركت وحدها ، ضعيفة منهكة ، في خضم من الغليان العسكري ، لتجابه مصيرها على يد قوى تركمانية جديدة فتية ظهرت في المنطقة، واستطاعت بفضل تحالفها مع تيمورلنك واتباعه ان تبسط نفوذها هناك .

١ - التاريخ الغياثي (مخطوطة ص ٢٣٠ - ٢٣١) العمري ، تاريخ الموصل ص ٦٩ .

٢ - انظر بشأن نشوء امارتي الاق قوينلو (الخروف الابيض) والقراقوينلو (الخروف الاسود) ، العزاوي ، التعريف بالمؤرخين ص ٢٢٨-٢٣١ ، ٢٤١-٢٤٥ ، العراق بين احتلالين ، الجزء الثالث ، طرخان ، دولة الممالك الجراكسة ص ١١٨-١٢٠ ودوائر المعارف الاسلامية .

لمحة عن "مخطوطة"

تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن

للعامة الحسين بن عبد الرحمن الأهدل ت ٨٥٥ هـ / ١٤٤٨ م

علي عتيق
المركز اليمني للدراسات الثقافية - عدن

وصف الكتاب اجمالاً :

ان « تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن » لمؤلفه العامة الحسين ابن عبد الرحمن الاهدل ، هو على حد تعبيره « انتقاء وانتخاب » من قبله لتاريخ الجندي البهاء ابي عبد الله محمد بن يوسف بن يعقوب بن جبريل (١) ، مع ما ضمه من « زيادات مستحسنة » (٢) فالكتاب اذن

١ - هو مؤرخ اليمن العامة القاضي محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي ، اخطأ في اسمه السخاوي في « الاعلان » وحاجى خليفة والبغدادى في هدية العارفين وكحالة ، والاصح ما ذكرناه بالرجوع الى كتابه « السلوك » . والى ما جاء في « العقود اللؤلؤية » للخزرجي - توفي عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م بروكلمان : ١٨٤ - التحفة ص ١ .
٢ - تحفة الزمن (المقدمة) ورقة ١ نسخة كاملة مخطوطة في المركز اليمني نسخت عام ١٠٦٣ هـ وقد قوبلت على الام المنسوخ منها عام ١٠٦٤ هـ .

سمته الظاهرية ، اختصار لتاريخ الجندي واستدراك لما فاتته ، ولكننا اذا أمعنا فيه وجدنا ان هذا الانتخاب وهذا الاستدراك هو عمل داخل ضمن تأليف البهاء الجندي وقد صيغ من جديد، وظهر من نتاج هذا العمل كتاب كبير اخر ، فهو ليس تكملة ملحقه بكتاب الجندي الحاقا بعد الانتهاء منه بما يعني التذييل ، كما هو الحال في بعض المؤلفات وانما اشبه بل أجدر بتأليف جديد يتضمن في مثته انتقائات اساسية من تاريخ الجندي ، وفيما بين التذييل ، وهذا النمط من التأليف فرق واضح . وقد عملت مقارنة لبعض نصوص كتاب الجندي «السلوك»^(١)، مع ما يورده الأهدل فوجدت مصداق ما ذهبت اليه .

وهذه الطريقة يسلكها ، كما يبدو لي جملة من مؤلفي ذلك الزمان السابق ، اما تواضعا منهم وانصافا للمؤلف السابق ، او لاسباب عملية كالغرض التعليمي والتسهيل على الطلاب بما يسمى اختصارات مضافا اليها تعليقات الأستاذ المؤلف بما يراه تصحيحا لبعض ما وهم فيه المؤلف السابق ، مع ذكر الحوادث المعاصرة ، وهكذا تكون الحصيلة ظهور « الكتاب الجديد » .

واشارة الى ذلك ، ففي كتاب تاريخ آخر هو « غربال الزمان » يقول مؤلفه الحرصي : ^(٢) « هذا مختصر مما اختصره الفقيه العلامة

١ - « السلوك في طبقات العلماء والملوك » نسخة مصورة في المركز اليمني رقم ٣٢١ عن نسخة باريز رقم ١١٢٧ .

٢ - هو يحيى بن ابن بكر بن محمد بن يحيى بن محمد العامري الحرصي اليمني (أو زكريا) محدث ، حافظ ، مؤرخ مشارك في بعض العلوم ولد في « حرص » عام ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م وتوفي فيها عام ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م من تصانيفه « غربال الزمان في التاريخ » والرياض المستطابة في جملة من روي في الصحيحين من الصحابة وعدد اخر من المصنفات .

— السخاوي : الضوء اللامع ١٠: ٢٢٤ .

الحسين بن عبد الرحمن الأهدل من تاريخ الامام الاكمل ذي التصانيف
العديدة المفيدة عبد الله بن اسعد اليافعي ^(١) ، وهما نقلاه عن حافظ
عصره ، وسند مصره ابي عبد الله محمد بن احمد الذهبي ، واعترفا له
بالسبق فانه صاحب « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » ^(٢) .

والواقع ان كل المؤلفات التاريخية هي خلاصة وانتقاء للحوادث
المعاصرة ، والفارق انما هو في تمحيص هذه الوقائع وعمل المقارنات ثم
التحليل والمنهج المتبع والاسلوب الذي تصاغ به ، ولكن مؤلفي ذلك
العصر ، كأنما يتحرون الدقة فيسمون ما يعملونه « اختصارا وانتقاء »
بينما هو في اغلبه عمل جديد ، واضافات معاصرة هامة .

وكمثال من أمثلة كثيرة يشير الى ما ذهبنا اليه . يقول الاهدل :

« وفي مواضع مما ذكره الجندي خلاف ، يعرف براجعة ما صح
من السيرة » ويستدرك على الجندي حالا خطأه في تعداد زوجات
الرسول بأنهن ثلاث عشرة ، واستشهد بان الطبري وغيره ذكروا انهن
احدى وعشرون ، طلق منهن ستا ، ومات عنده خمس ، وتوفى عن عشر،
وواحدة لم يدخل بها ^(٣) .

١ - هو عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي
توفي عام ٧٦٨ هـ - ١٣٦٧ م . له تاريخ « مرآة الجنان » و « مرهم العلل
المعضلة » - الدرر الكامنة ٢: ٢٤٧-٢٤٩ .

٢ - الحرصي . مقدمة الكتاب ورقة ١ ميكروفيلم المركز رقم ٣١٩
عن نسخة باريس رقم ١٥٩٣ .

٣ - تحفة الزمن - الاهدل ورقة ١٠ - « السلوك » - الجندي -
ميكروفيلم المركز ٣٢١ ورقة ٥ .

كما يعقب على الجندي حول بناء مسجد الجند فيقول : ان بناءه كان في عهد عمر بن الخطاب ، واذا كان معاذ بن جبل أوصاه الرسول ببنائه فقد يعني ذلك البداية به فقط (١) .

ويقول الجندي : « ومن نواحي صنعاء فقهاء زيدية لم اتحقق حالهم ، وأما أئمتهم فيذكرون مع الملوك » فيعقب الاهدل كعادته . قلت : ونحن نذكر من تأخر من أئمتهم وعلمائهم » (٢) .

وهذا يعني ان الكتاب ليس مجرد اختصار لتاريخ الجندي ، وانما انتقاء لما يراه مهما فيه ، ثم توسعا في بعض جوانب اخرى « وزيادات نافعة مستحسنة » ، بعضها حدث في عصره ، وبعضها في عصر الجندي نفسه ولكنها فاتنة ، وهكذا فهو يذكر أحداثا وترجمات لم يأت عليها الجندي المتوفي عام ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢ م ، وخير وصف لهذا الكتاب ما ذكره « بروكلمان » عنه (١٨٥:٢ قسم ٢٣٨:٢) قال : وهو اقتباس وتكملة لتاريخ « السلوك » للجندي وثمة تنقيح له من هذا القليل لكتاب الياضي « مرآة الجنان » عنوانه غربال الزمان .

وهو وان تابع الجندي في ترتيبه للطبقات ، لكنه يبدو في كتابه مستقلا عما يكتبه الجندي فيقول مثلا ، قال الجندي : ويسرد كلامه ثم يعقب ، فاذا انتهى قال : رجعنا الى كلام الجندي ، وبعد ذلك يقول : قلت ، ويستلئ في التعقيب والادلاء برأيه ، وخاصة اذا كان الموضوع يتعلق بمذهبه كالدفاع عن الاشعرية، او الهجوم على الصوفية ، او

١ - التحفة . ورقة ١٢ .

٢ - التحفة . ورقة ٢٩٥ .

الحديث عن مشايخه ، او موقفه من الحكم آل رسول ، او الائمة الزيدية .

ويعلق على بعض ما يورده الجندي حول عدد غزوات الرسول وما قاتل فيها ، وعدد سراياه دون تحقيق جازم فيقول : « وهو يتساهل في مواضع مما تقدم ومما سيأتي ، وفي النسخة التي اختصرت منها أسقام ، وقد تحريت الصواب جهدي ، وقد تابعت على بعض ما ذكره من غير استدراك لبعض ما لم احققه ، اذ التواريخ يقع فيها مثل ذلك ، ويجوز تأخير البيان الى وقت العمل ، ولا غنى عن التحقيق مما صح في التفسير وكتب الحديث المعتمدة ، وقد نبهت على ما تيسر التنبيه عليه في الاختصار وحذفت بعض المواضع بالكلية » (١) .

ويأخذ على الجندي - من جملة ما يأخذ - اهماله لذكر القاضي الحسن بن محمد بن ابي عقامة التغلبي ، وكان من المرائين للحكام آل نجاح الاحباش ، فطلب منه « جيش » (٢) جباية اهل « مودع » واختلف معه في ارغامهم على ذلك حتى انتهى الامر بقتله ظلما وعدوانا ، رغم ما يشاع من اتصاف جيش بالعدل ، كما جرت به العادة عند بعض المؤرخين في التملق للحكام .

١ - تحفة الزمن ص ١٠ .

٢ - جيش بن نجاح هو الحاكم الثالث من الاحباش في زبيد وتهامة الذين حكموا بعد الصليحيين بدءا من عام ٤٠٣ هـ - ١٠١٣ م الى ٥٥٥ هـ - ١١٥٠ م ، وكان جيش (ابو الطامي) شاعرا فصيحاً له ديوان وكتابات هو « المفيد في اخبار زبيد » ملك تهامة عام ٤٦٢ هـ وتوفى عام ٤٩٨ هـ - بامخرمة : قلادة ٢-٢-٦٤١ .

وتأليف الكتابة استغرق من المؤلف ست سنوات ، فقد قال في آخر الكتاب :

« انتهى التاريخ الى هذا الموضع في جمادي الاخرة من سنة ٨٣٢هـ ، وكان شروعي في اختصاره في سنة ست وعشرين (٨٢٦هـ) ^(١) ، ولكن يبدو ان الفراغ الفعلي من التأليف بالنسبة للنسخة التي بين ايدينا - لم يتم الا سنة ٨٥١ هـ أي قبل وفاته بربع سنوات ، فقد بقي الكتاب بين يديه يلحق به ما يستجد من الاحداث ، وما يطرأ من الوقائع . وكان اخر ما سجله قبل ختم الكتاب ما ذكره عن اخر سلاطين آل رسول « المسعود » قال : « ثم عهد لآخر منهم لقب بالمسعود ، وهو من ذرية الناصر ، فطلع الى (تعز) وجرت بينه وبين المظفر حروب خرب بسببها اكثر قرى تعز ، ونهب العبيد نهبا عاما ، والامر على ذلك من امر المظفر والمسعود الى سنة احدى وخمسين وثمانين مائة احسن الله عاقبتنا والمسلمين آمين . تم الكتاب بحمد الله ومنه وكرمه وحسن توفيقه ، والحمد لله اولا وآخرا وباطنا وعلى كل حال من الاحوال ^(٢) ولكن هذه الاضافات رغم اهميتها التاريخية لا تتعدى الثلاث ورقات ، ولا يعني ذلك بحال التعليقات والاستدراكات والاضافات التي ضمن الكتاب والتي سبقت الاشارة اليها .

والنسخة التي نقدمها هنا هي نسخة المركز اليمني للابحاث الثقافية بعدن ، وهي نسخة كاملة عدد اوراقها مئتان وسبع وستون ، ومقاسها ٣٠×٢١ سم ومسطرتها ٢٩ ، وقد تمت نساختها نهار الاربعاء تاسع عشر

١ - التحفة ص ٩٥٠ .

٢ - التحفة . ص ٥٩٥ .

من ذي الحجة عام ١٠٦٣ هـ بخط محمد الحاتمي نسبا الحرائي بلسدا ، وقوبل بها على الام المنسوخ منها ضحى يوم الاثنين رابع عشر شعبان سنة ١٠٦٤ هـ ، وكان ذلك برسم حاكم الديار الوصائية وامير الدولة الامامية بدر الدين محمد بن عبدالله العثماني . والخط الذي كتبت به هذه النسخة رغم ان الناسخ - كما يذكر - حرائي البلد هو خط يماني قديم ، معظمه دون نقط . وبعض الحروف المهملة كالبدال توضع تحتها نقطة تأثرا بالكتابة العربية القديمة حيث تنقط بعض الحروف المهملة بما يشاكل نقط الحروف المعجمة (١) .

وتوجد للمخطوطة عدة نسخ . منها نسخة في مكتبة المتحف البريطاني تقع في ٣١٣ ورقة (٢) ، ونسخة اخرى في « رواق المغاربة ٩١٤ الازهر » الموجود منها قطعة من اخرها ، وقد وصل فيها المؤلف الى سنة ٧٢٤ هـ ، وفرغ من نسختها سنة ٨٦٤ هـ وتقع ٥٢ ورقة ، وقد صورها معهد المخطوطات العربية التابع للجامعة العربية وجعلها تحت اسم : « بهجة الزمن في تاريخ سادات اليمن » (٣) .

كما توجد نسخة اخرى وهي ايضا ناقصة من اخرها ، اذ تنتهي فيها عند قوله : « من علاء صعدة في اخر المائة الثالثة وأول التاسعة من الاشراف ، وتقع في ٢٣٤ ورقة . وقد صورها معهد المخطوطات العربية عن مكتبة (خدا بخش بتنه ٢٤٨٥ ف - ٣٠٨٨) (٤) .

-
- ١ - انظر : الزهر للسيوطي ص ٤٠ وشرح التكميل لخاتمة التسهيل : عبد الله بن حامد السقاف ص ٢٠٢:١٩ .
 - ٢ - هامش تاريخ اليمن لعمارة اليمني ص ٥٥ .
 - ٣ - فهرست المخطوطات العربية ٦٨:٣ (التاريخ - القسم الرابع) .
 - ٤ - فهرست المخطوطات العربية ٩٦:٢ (التاريخ - القسم الثالث) .

منهج المؤلف :

قد يكون من التجاوز ان نطلق كلمة «منهج» ، لانها تعني في مفهوم عصرنا المنهج الاكاديمي في البحث ، لكن ذلك لا يمنع من ان نستخلص فهم المؤلف لكيفية معالجته لتأليف كتابه ، ولنسم ذلك « المنهج » .

أجمل المؤلف منهجه في تأليفه لكتابه هذا وغيره كما يقول بالنص: « ومن طريقي اني لا احب الرواية الا عن ثقة ولا آخذ ممن دب ودرج ، ولا عن ممن لا اعرف دياتته ، ولم اخف عقيدتي ولا اقول اني اعرف كل ما اشرت اليه من العلوم معرفة تامة . مع اعترافي بالتقصير » ^(١) .

وهذا المنهج - كما نرى - هو منهج اسلامي بحث مرتبط بعلم الحديث واسناده ونقده واعتماده على الشخصيات الموثوقة في نقل الحديث مما يسمى « الجرح والتعديل » وهو ادق واعمق طريقة او منهج في التحري والبحث ، ولذلك فاطلاقنا لكلمة « منهج » قد تكون في موضعها قياسا على الزمان والمكان .

ويبدو أن الأهدل - مع ذلك - دقيق الفهم لمعنى التاريخ ، فقد استشهد به السخاوي في « الاعلان » عندما تحدث عن الغرض من التاريخ فقال : « قال البدر حسين الأهدل في أول تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن انه من العلوم المفيدة اذ به يحصل للخلف علم أحوال السلف ، ويتميز به أهل الاستقامة عن أهل الصلف ، ويستفيد

الناظر الاعتبار ومعرفة عقول الأوائل ، وتبين به كثيرا من الدلائل ، ولولاه لجهلت الاحوال والدول والأنساب والاسباب ، ولما عرف الفرق بين الجهلة وذوى الالباب (١) .

وقال العامري ابو زكريا يحيى بن ابي بكر الحرصي (ت ٨٩٣ هـ) في مقدمة كتابه : غربال الزمان : « والاهدل يرى الرد على من شطح وجاوز الحد وجادل في ذلك ، ويراه من المهمات ، بل من فروض الكفايات » (٢) .

واذ يقول عبدالله بن أسعد اليافعي في تاريخه : « اني لم اذكر تاريخ موت أحد من أعيان متأخرى شيوخ اليمن العلماء مع كثرتهم ، لأنني لم أظفر بتاريخ يكون لهم جامعا » (٣) يقول الاهدل منتقدا : « الصواب في عدم ذكرهم ، عدم العناية بتاريخهم » (٤) .

وهذا يدل على تقدير قيمة التاريخ عند الاهدل ، وغوصه في فهم مدى العناية بجمع المعلومات والمواد التاريخية كمنهج يتبعه ، تثبت ذلك تعقيباته واستدراكااته على اليافعي والجندي ، وتحقيقه للكثير من الحوادث وغرباتها ، ومواقفه المنصفة الحازمة في تاريخ ذوى السلطة والجاه ، او اصحاب المذاهب المخالفة لعقيدته .

١ - رونثال . د . العلي . علم التاريخ عند المسلمين ٤٣٧ .

٢ - « غربال الزمان » المقدمة ص ١ - للحرصي .

٣ - اليافعي « مرآة الجنان » ٣٣٥:٤ .

٤ - الحرصي . غربال الزمان ورقة ٢٢٠ ميكرو فيلم المركز رقم

٤٨١ عن نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ٢٢ : ١١٥٠ .

طريقة المؤلف في الكتاب :

اتبع الاهدال طريقة الطبقات على طريقة من سبقه كابن سمره والياضي والجندي من اليمنيين ، وأصحاب الطبقات كما هو معروف - مختلفون في تحديد مدة الطبقة فيما بين عشرين عاما (١) او جيل كامل . وطريقة الطبقات أقدم تقسيم زمني وجد في التفكير الاسلامي ، وهو يرتبط بعلم الحديث ، وتراجم الشخصيات المهمة في نقل الاحاديث ، كما فعل ابن سعد في طبقاته وابن عبد البر ، وابن حجر العسقلاني ، ثم استعملت هذه الطريقة في ترجمة الرجال من فقهاء وادباء وشعراء واطباء ومؤرخين ، اما بشكل عام او كل فئة على حدة . ثم حدث التقسيم المحلي حسب الترتيب الزمني لعلماء وفقهاء كل اقليم عربي او اسلامي ، او فقهاء كل مذهب ديني على حدة مثل طبقات الشافعية او الملكية .

ويبدو واضحا من اسم الكتاب ومن مقدمته ، حين تعرض المؤلف لاقسام التأليف في التاريخ من تاريخ عام وتاريخ خاص ببلد المؤلف ، ثم قوله عن كتابه « والغرض به وبأصله بيان بعض فضائل اليمن واهله (٢) ان الكتاب مخصوص باليمن ، وبدأ به على طريقة الطبقات بادئا بذكر من دخل اليمن من الصحابة كأبي بكر وعلي وابي عبيدة ومعاذ ، ثم يأخذ في ذكر التابعين من اليمنيين كشريح وابي موسى الاشعري وكعب بن مانع (كعب الاحبار) رغم وفاتهم خارج اليمن ، وينتقل الى طبقة ثانية تبدأ بطاؤوس وهكذا . »

١ - لسان العرب ٧٩:١٢ وما بعدها .

٢ - التحفة : ص ١ .

وهو اذ يذكر فقهاء وعلماء كل طبقة حسب التسلسل الزمني يعلن انتقاله من الطبقة التي يترجم لرجالها الى الطبقة التي تليها بقوله : « ثم صار العلم او الفقه الى طبقة اخرى منهم فلان .. » وتكاد لا تلاحظ احيانا ان بين الطبقتين اكثر من عشرين عاما ، واذ يذكر الطبقة يذكر علماء أو فقهاء كل مخلاف بل كل مدينة وقرية في اليمن عموما . فيقول : ومن «المعافر» او من «وصاب» او من «تريم» او «ظفار» او «ابن» الخ ..

ولا يكتفي كما ذكرنا بما ذكره الجندی المتوفى عام ٧٣٢ هـ عن رجالات اية طبقة او فقط الحاق زيادات مفيدة عن ترجمات بعضهم ، بل يستطرد الى ذكر المعاصرين له (اي المؤلف) من اهل ذلك البلد او ذاك مترجما لهم في نفس المكان ، اما على سبيل الاستطراد او قاصدا ذلك ، وكأنه متلاف نقضا لا بد من سده وعدم تجاوزه فمثلا اذ يترجم الجندی ذرية الفقيه علي بن الامام زيد بن الحسن الفائشي من مدينة « حرص » نجد الاهدل لا يكتفي بما اورده عن هؤلاء في الطبقة ذاتها ، بل يذكر بقية العلماء من بني عامر الحكميين في « حرص » من بعد عصر الجندی في نفس المكان، فيترجم للمتوفين في اواخر المئة الثامنة واولئ التاسعة^(١).

واذ يتابع الاهدل الجندی في ذكر علماء كل طبقة : تاريخ مولد الشخصية ، قريته ، نشأته ، شيوخه ، تنقلاته ، رحلاته ، وحيانا بعض ما حدث للمترجم له في حياته الاجتماعية والعلمية والدينية ثم تاريخ وفاته ، لا يكتفي بهذا بل يعقب — كما اسلفنا — على الجندی ويصحح بعض الوقائع وهو ينص صراحة على ان الجندی ، قد شرط ان يذكر من عرض ذكره من العلماء والاعيان ولم يتفق له الوفاء به^(٢) .

١ - نفس المصدر السابق ص ٣١٥ .

٢ - نفس المصدر السابق ص ٥ .

وهو يستطرد في القضايا الفقهية والمذهبية فيتابع نصوص الجندی
اذ يتعرض مثلا لحوال القرامطة الاسماعيلية ، وينقل عن كتاب « المرهم »
لعبدالله بن اسعد اليافعي ما اورده في الموضوع ، ويعقب من عنده
بتعليق آخر على بنی « الانف » الاسماعيليين ويشير الى ضعفهم وما آل
اليه امرهم بسقوط حصن « ذی مرمر » عام ٨٢٧ هـ في يد الامام صلاح
الدين بن علي .

والتعريف بالكتاب من حيث مادته ، والقضايا العلمية والادبية
والسياسية والاجتماعية المطروحة فيه اوسع من ان تتناولها هذه اللوحة
التي لا تعتبر سوى اطلالة مارة بالكتاب ، وللباحث محاولة متواضعة في
اصدار كتيب عن الكتاب ومؤلفه يأمل الوفاء به قريبا .

مَلاح من الهجرة الأجنبية إلى منطقة الخليج العربي وأثرها على عروبة المنطقة

علي عجيل منهل
كلية الاداب - قسم التاريخ جامعة بغداد

هناك ظاهرة سياسية وديمغرافية بارزة وخطرة في منطقة الخليج العربي ، سائدة الان ، وهي ، تزايد هجرة العناصر غير العربية الى المنطقة ، وخصوصا العناصر البلوشية والتايوانية والكورية الجنوبية ، ويجري استخدامهم في قطاع الصناعة والخدمات وبخاصة في المصانع الكبيرة التي تقوم بانشائها الشركات الرأسمالية الكبيرة ، وكذلك يتم استخدامهم وبشكل واسع في القوات المسلحة والشرطة والامن ، بالنسبة للعناصر البلوشية ، يستخدم الكوريون والتايوانيون بشكل خاص في قطاع النفط .

وقبل التطرق لهذا الموضوع ، لا بد من القاء نظرة على الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في المنطقة ، وسياسة الامبريالية الاميركية في تشجيعها للهجرة الاجنبية الى منطقة الخليج العربي ^(١) وقد شخص التقرير السياسي هذه الظاهرة الخطرة حيث ورد فيه (ان محاولة الامبريالية خلخلة الواقع القومي في منطقة الخليج العربي أو تغييره ، هي حلقة من المخطط الامبريالي الرامي الى ترتيب

الاضاع في المنطقة العربية لضمان تدفق الطاقة من مصادرها ولضمان مواصلاتها عبر الخليج العربي والبحر الاحمر والبحر الابيض (٢) وفي سبيل احكام سيطرتهم على هذه المنطقة ، انتهج الاستعماريون سياسة بعيدة المدى ، بالاضافة الى الاحتلال المباشر ... وتنظيم الهجرة الاجنبية (٣) .

فمنطقة الخليج العربي ، باستثناء العراق ومناطق العيون والواحات في الجزيرة العربية ، تعتبر مناطق قليلة السكان بل ويصعب العيش في بعض اجزائها . وحتى في المناطق الآهلة بالسكان في منطقة الخليج العربي ، نجد ان الاتفاق العام للدولة باشكله المختلفة تسبب في عدم الاقبال على كثير من الاعمال رغم كل الحوافز ، فكان لا بد ان تلجأ الى القوى العاملة غير المحلية من اجل استثمار الموارد المتوفرة . ونتيجة لعوامل جذب اخرى الى المنطقة وسياسات الدول ذات الاهداف البعيدة بالمنطقة ، نزحت اليها اعداد كبيرة من السكان غير العرب بحيث يصل عدد الوافدين أكثر من عدد السكان الاصليين .

والجدول التالي يبين حجم السكان الاصليين والوافدين في بعض اقطار الخليج العربي .

اسم القطر	السنة	الوطنيون	الوافدون
الكويت	١٩٧٠	٣٤٧٣٩٦	٣٩١٢٦٦
البحرين	١٩٧١	١٧٨١٩٣	٣٧٨٨٥
دولة الامارات العربية المتحدة	١٩٧٢	١١٩٩٥٠	١٣٢٧٥٠
قطر	١٩٧١	٤٥٧٠٠	٦٥٣٠٠
عمان	١٩٧٠	٥٥٠٠٠	٥١٠٠٠

المصدر : د. صادق مهدي السعيد ، السكان والقوى العاملة في اقطار الخليج العربي ص ٢٢٨ من منشورات مركز دراسات الخليج العربي ، الكتاب الاول ، جامعة البصرة ١٩٧٤ .

كما ان هناك ظاهرة مهمة تتمثل في ارتفاع معدل النمو السكاني للوافدين في منطقة الخليج العربي • والجدول الآتي يوضح ذلك :

القطر	معدل نمو السكان الاصليين	معدل نمو السكان الوافدين
الكويت	١٠٣٪	١١٧٪
البحرين	٣٥٪	٣٪
قطر	٩١٪	؟
الامارات العربية المتحدة	٩٦٪	١٥٧٪
عمان	٢٠٪	؟

المصدر نفسه ، ص ٣٢٨ •

وفي قطاعي النفط والمال ، فان اهم ظاهرة سائدة في المنطقة ، هي ان قرابة نصف النفط الذي تصدره الاقطار المصدرة للنفط (الاوبك) يخرج من اقطار ذات كثافة سكانية قليلة • وهذه الاقطار تؤلف شبه الجزيرة العربية ، كما ان هذه الاقطار لديها القسم الاعظم من الاحتياطي الثابت في العالم وقد وصلت فوائض موازين المدفوعات لاقطار الاوبك (٥٥) بليون دولار في سنة ١٩٧٤ وهي تعادل ١٠٪ من التجارة العالمية ، وتعادل حوالي ثلث الاحتياطات النقدية العالمية (وبضمنها الذهب بالسعر الرسمي) • ويراد بالفائض هنا ، هو فائض المدفوعات الجارية بعد طرح جميع النفقات على السلع والخدمات ، وبضمنها المشتريات المباشرة من الاسلحة والمنح المقدمة لدول المواجهة لاعادة تسليحها •

يؤلف الاتفاق على التسليح في الخليج العربي فقرة مهمة في موازنات الاتفاق لدى اقطار الخليج العربي • ويمكن القول ان سباق التسليح في هذه المنطقة وما يجاورها ، قائم على اشده • ويمكن اعطاء

فكرة عامة عن هذا السباق في التسلح بملاحظة ميزانيات الدفاع لبعض
اقطار الخليج العربي في الجدول ادناه •

• ميزانيات الدفاع للسنوات ١٩٧٣-١٩٧٥
(بسلايين الدولارات)

١٩٧٥	١٩٧٤	١٩٧٣	القطر
٥٠٠	١٤٠	١٢٥	الكويت
٤٠٠	١٧٠	١١٠	عمان
٢٩٠٠	١٧٠٠	١٠٨٠	السعودية
٢٥٠	١٥٠	١٠٠	الامارات العربية المتحدة

المصدر : جون بيرسيغال ، الثروة النفطية وانماط الاتفاق والاستثمار
في الشرق الاوسط ، مراجعة الدكتور محمد عزيز ، ص ٣٢٧ ،
مجلة البحوث الاقتصادية والادارية بـبـداد / آب / ١٩٧٧ •

والغالب ، ان ما يقرب (٣٠٪) من مجموع الايرادات النفطية في
الخليج العربي ينفق على التسلح ونتيجة للتوسع العددي للقوات
المسلحة في المنطقة وكذلك زيادة عدد افراد الشرطة والامن وابتعاد
العناصر الوطنية عن العمل في هذه القطاعات ، لتوفر الاغراءات في
المجالات والوظائف الاخرى ، مما ادى الى الاستعانة بالعناصر غير
العربية (وقد تم ذلك لاسباب سياسية معينة) مما خلق خلافا في التركيب
القومي للقوات المسلحة العاملة في المنطقة لصالح العناصر غير العربية
وخصوصا استخدام العناصر (البلوشية) و (المرتزقة) • والمراء يتذكر
دور المرتزقة في محاربة الثورة اليمنية بتحريض من الامبريالية الاميركية •
اما في منطقة الخليج العربي ، فتعتمد الامبريالية الاميركية على جماعة
البلوشي ، الذين يكونون كثافة سكانية كبيرة وخطيرة في المنطقة ومسا

يزيد من خطورة الموقف ، ان البلوش لهم جذور عميقة في المنطقة وهم عماد معظم القوات المسلحة في الخليج العربي .

ومن خلال استعراض التحركات المعادية في المنطقة نلاحظ ان ، البلوش ، هم العنصر الاكثر شيوعا وغلبة في تجمعات المرتزقة وفي العمل في الاجهزة العسكرية ومن ثم فان خطر البلوش لا يهدد منطقة الخليج العربي بل يهدد كل الجزيرة العربية من اقصاها الى اقصاها ، ومما يساعد ويضاعف من هذا الخطر ، ان البلوش ليسوا عنصرا طارئاً من المرتزقة كالاوروبيين مثلاً لانهم ذوو جذور عميقة ضاربة في الجزيرة العربية ولا سيما في منطقة الاحساء ، منذ بداية هذا القرن .

يدعي البلوش انهم من اصل عربي وانهم ينتسبون الى العشائر الكلدانية التي حكمت بابل من سنة ٢٢٥٠ الى ٥٣٨ ق.م وان موطنهم الاصلي مدينة (المعرة) ويقول بعضهم انهم من نسل المقداد بن الاسود . والبلوش في سيل ذلك ، يتذرعون بالعديد من الحجج التي تقول بانهم عرب الاصل ، ومن هذه الحجج ، العملات والاثار وما اسفرت عنه حفريات البروفيسور باروت (Parrot) في (تليحيري) بسوريا ، ومن اكثر الاسانيد التي يعتز بها البلوش لانها تقول انهم (عرب) ، البحث الذي نشره المؤرخ البريطاني السير توماس هولديش في بحثه (عرب حدودنا الهندية) (٤) .

Thomos Holdicl , Arabs of Our Indian Frotiers .

ويعتبر هذا البحث من الابحاث الاثروبولوجية التي كانت تشرف عليها وزارة المستعمرات البريطانية والتي تخدم السياسة الامبريالية البريطانية في شبه القارة الهندية ، وذلك عندما كانت بريطانيا تحتل الهند .

ويدل البلوش على عروبتهم ، بانهم مسلمون وبان العديد من قبائلهم ما تزال تحمل اسماء عربية كالتى تسود بين القبائل العربية في سوريا والعراق كالمعري والجمالي والماعري والازدي ... الخ . ويسكن البلوش المنطقة التى تسمى نسبة لهم (بلوشتان) ومساحتها حوالي (٤٠٠٠٠) ميل^٢ وتمتد بين ايران وباكستان وافغانستان والاتحاد السوفيتي وتسيطر عليها ايران وباكستان . ويزعم البلوش ان عددهم حوالي (٢٠) مليون نسمة ولكن ليست هنالك احصائيات رسمية ولا حتى شبه رسمية ، تؤكد هذا الزعم .

ويعاني البلوش منذ فقدانهم لوجودهم المستقل والامن ، من سياسة البطش والاضطهاد من الدول التى يسكنونها ، مما ادى الى هجرتهم باعداد كبيرة الى منطقة الخليج العربي فرارا من البطش والارهاب من جهة وبحثا عن عمل يقيمون به اودهم .

وقد استغل البلوش ادعاءهم ، بانهم من اصل عربي ، في جذب العطف والترحيب بوجودهم ، بالاضافة الى اعلانهم ، انهم العرب ، يجمعهم العداء للدول الطامعة في الخليج العربي .

استغلت الامبريالية البريطانية عملية التشريد التى تعرض لها البلوش وخاصة منذ الثلاثينيات وقامت بتوجيه موجات البلوش الهاربة الى منطقة الخليج العربي لكي تستخدمهم في خلق قوة عسكرية أجيبة في المنطقة تخضع لسيطرتها وتكون أدواتها في البطش والارهاب بالحركة الوطنية التى بدأت تتجدد ملامحها وسماتها في هذه الفترة .

فجندت بريطانيا البلوش فيما يسمى بكشافة عمان او جيش ساحل عمان ، وهو جيش على غرار جيش البادية السابق في حضرموت قبل

استقلال اليمن الديمقراطية ، الذي كان جيشا اجيرا يضم قطاعا كبيرا من المرتزقة المحليين وكانت بريطانيا تشرف عليه وتقوم بتدريبه وصرف اجور افراده ، وكان هذا الجيش في حقيقته ترجمة دقيقة لسياسة التفرقة التي درجت بريطانيا على ممارستها بين البدو والحضر لتسييد فئة البدو على الحضر كسلطة قاهرة وهو الامر الذي كان يعسق الهوة بين الفئتين .

وبعد اكتشاف النفط في منطقة الخليج العربي وما رافقه من تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ونمو وبروز حركة التحرر الوطني في المنطقة ، فقد عملت بريطانيا على ايجاد سلطة قاهرة للشعب العربي وحركته الوطنية وكانت هذه السلطة فئة البلوش . وقد ساعد بريطانيا في تحقيق اهدافها ، الترحيب اللامحدود الذي قوبل به البلوش عند وصولهم الى المنطقة لان عرب الخليج لم ينظروا اليهم على انهم عنصر غريب رغم جهلهم للغة العربية ، وقد ساهم بذلك كونهم مسلمين ، وكلما ازدادت فاعلية الحركة الوطنية في الخليج العربي توسعت بريطانيا في تجنيد المرتزقة من البلوش لرصد تحركات العناصر الوطنية وابرز عناصرها الفاعلة في الساحة السياسية كذلك اوحشت بريطانيا لسلطان مسقط بالاعتماد على البلوش كقوة محاربة بدلا من العرب ابناء البلاد الاصليين . وقد اسرف سلطان مسقط في الاعتماد على العناصر البلوشية فهم يكونون ٨٠٪ من مجموع جيشه والباقي من الايرانيين ، اما القيادة فعبارة عن مجموعة من الضباط الباكستانيين حتى رتبة نقيب ، اما الرتب الاعلى فكانت من البريطانيين بالاضافة الى ذلك فان البلوش يكونون من (٧٠) الى (٩٠٪) من مجموع سكانها ، كما ان في بعض مناطقها لا يوجد فيها أي تجمع عربي ذي نسبة مؤثرة .

ومن الجدير بالملاحظة ان البلوش كانوا عماد الجيش المرتزق الذي كوتته بريطانيا وشركة عمان المحدودة • وهي شركة بريطانية لاجتياح عمان في منتصف الخمسينات باسم سلطان مسقط •

وهكذا يلاحظ ان البلوش يكونون طبقة عسكرية قاهرة في معظم مناطق الخليج العربي ، وهذا يعيد للذاكرة قصة الوجود السلوكي في مصر ، حقيقة ان البلوش لم يحكموا ولكنهم ولا شك اداة بطش في يد الاستعمار والثورة المضادة او اية قوة معادية للعرب والتي تدفع اكثر •

وبرزت خطورة العناصر الاجنبية والبلوشية بشكل خاص ، بعد توحيد الامارات العربية المتحدة بشكل دولة رسمية ، اذ ان من المفروغ منه ، ان الدولة الجديدة قد وحدت كل التنظيمات العسكرية التي كانت قائمة في الامارات والتي دخلت في الدول الجديدة ، ومعظمها من العناصر البلوشية لتجعل منها نواة الجيش • وفي حالة الاتجاه لتعريب الجيش سيجد البلوش انفسهم تلقائيا في صف القوى المعادية والطامعة في الخليج العربي ويصبحون اداة في يد الاستعمار الجديد •

ومن الجدير بالملاحظة ، حيث تتضح خطورة الهجرة الاجنبية ، بتكليف العناصر المهاجرة بأعمال هي من صميم واجبات العناصر الوطنية، في جميع انحاء العالم ، اعني بذلك على وجه الخصوص ، جنود الشرطة، فقد لوحظ ان ابناء البلاد لا يقبلون على الاعمال الشاقة او التي تتطلب انضباطا خاصا ، وهكذا اضطرت الامارات العربية المتحدة الى تحشيد معظم رجال الشرطة من بين الهندود والباكستانيين (البلوش) وبقيت معظم المناصب القيادية وحدها مقصورة على الوطنيين (٥) • ولا شك ان استمرار الشبان العرب في دولة الامارات العربية المتحدة للحياة السهلة الميسرة ، هو من أخطر المشاكل الاجتماعية التي تعاني منها أقطار الخليج المنتجة للنفط ، واذا استمر الوضع على هذا المنوال الخطر ، فانه يخشى

على بعض بلدان الخليج من ان تفقد مسحتها العربية ، واذا نظرنا الى سكان دولة الامارات العربية المتحدة من حيث جنسيتهم ، لهالنا ارتفاع نسبة الاجانب ونسبة الذكور من السكان بدرجة شاذة ، كما يتضح ذلك من المقارنة التالية بين اماره (ابو ظبي) وبين بعض الاقطار الخليجية والاجنبية .

والجدول الآتي يوضح ذلك (مقارنات سكانية %)

نسبة الاناث	نسبة الذكور	نسبة الاجانب	نسبة السكان الوطنيين	مجموع السكان	دولة
٢٥	٧٥	٥٢	٤٨	٤٦/٣٧٥	ظبي (١٩٦٨)
٢٧	٧٣	٧٣	٢٧	٢١٠/٨٧٠	ظبي (١٩٧٥)
٤٦	٥٤	١٧	٨٣	٢١٦/٠٠٠	حرين (١٩٧١)
٤٥	٥٥	٥٥	٤٥	٨٧٣/٤٧٤	ریت (١٩٧٣)
٥٠/٧	٤٩/٣	١٧	٨٣	٦/٢٦٩/٧٨٣	ريسة

المصدر : د . يوسف ابو الحجاج ، الكيان السياسي والاقتصادي لدولة الامارات العربية المتحدة (دراسة تحليلية) مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، عدد ١٥/١٩٧٨ ص ٦٦ ، ٦٧ .

ونحن ازاء بنية ديمغرافية مختلفة ، ومما يزيد من اختلالها ، ان نسبة كبيرة من هؤلاء الأجانب هم من غير العرب وخاصة الهنود والباكستانيين والایرانیین . ولا شك ان بعض هؤلاء قد مضى على اقامتهم في الامارات مدة طويلة وارتبطت حياتهم بها ، وقد لا يصعب

اندماجهم في المجتمع العربي ، ولكن منهم أيضا من تسلل الى البلاد منذ وقت غير بعيد — وبطرق غير مشروعة وهي عملية لم تنقطع بعد انقطاعا تاما ولا تزال تشغل اذهان الناس في الدولة الجديدة .

ومن البديهي ان تزايد مثل هذه العناصر غير العربية يعني تشويه الوحدة البشرية ، وافساد التجانس العرقي واللغوي — بل والديني أيضا في بعض الحالات وخاصة ان هذه العناصر تتوزع في اكثر من موضع في البلاد في دبي بوجه خاص وكذلك في عجمان ورأس الخيمة وغيرها (٦) وتعتبر دبي بصورة خاصة مقصد الوافدين من الهند والباكستان وايران ، حتى قبل استقلال ثروة النفط ولما اكتشف النفط وما ادى الى اغراءات معينة ، في الاجور خاصة ، مما ادى الى تدفق سيل من المهاجرين حتى بلغت نسبتهم حوالي ٨٥٪ من مجموع الذين يسكنون امانة دبي ومعظم هؤلاء من العناصر غير العربية ، يأتون من الهند وباكستان وايران ويعمل الهنود في جميع الاعمال اليدوية والخدمية في الفنادق والمحال التجارية في حين يشتغل الايرانيون بالتجارة (٧) .

والحل الذي يفرض نفسه ، لدولة الامارات العربية المتحدة ، هو المزيد من تشجيع هجرة العرب الى الدولة الجديدة وذلك لتقليص الحجم النسبي للاقليات غير العربية ، كما ان تيسير التجنس بجنسية الدولة للمهاجرين العرب والتوسع في هذا المجال ، يؤدي الى التوازن في حجم السكان العرب مع الاقليات غير العربية .

ومما هو جدير بالملاحظة ان سكان دولة الامارات العربية المتحدة . قد بلغ عام ١٩٧٦ حسب التعداد الرسمي (٦٥٠ ٠٠٠) نسمة . وان هذه القوات البشرية لا تحقق التناسب مع مساحة الدولة ، ومواردها ومطامحها

في استغلال هذه الموارد ^(٨) ولعل ما يوضح طبيعة هذه المشكلة ، ان نتيجة المسح الشامل التي قامت به المؤسسة الاستشارية السويسرية ، كان مفاده ، بان البرامج الصناعية المنشودة في دولة الامارات العربية المتحدة لا يمكن ان يتحقق ويؤتي ثماره الا اذا زاد سكان الدولة بحيث يصل عام ١٩٨٥ نحو (٣) مليون نسمة ويشير تقرير هذه المؤسسة صراحة ، الى انه اذا استمرت دولة الامارات في تقييد الهجرة الى البلاد فان الاسواق المحلية تكون اصغر مما يمكنها من ايقاف الصناعات الجديدة على قدميها ^(٩) .

هناك حقيقة مهمة تتعلق بقضية (البلوش) ، وهي نمو اتجاهات تقدمية بين صفوفهم رغم انهم يدركون انهم غرباء عن المنطقة ، وان البعض منهم ، دعوا مواظبيهم الى التعقل وعدم اقحام انفسهم كقوة اجيرة باطشة وخاصة في مسقط . ورغم هذا فان بعض العناصر البلوشية الواعية تطرح فكرة خاطئة مفادها ، ان انسحاب البلوش من جيوش ساحل عمان ومسقط ككل سوف يترك اثارا خطيرة على الموقف السياسي ، وانه من صالح العرب بقاء البلوش في الموقع او المواقع التي يحتلونها . وهذا رأي خطير وعلامات شك في موقفهم من الحركة الوطنية في الخليج العربي ، ما لم يتدارك حكام وشعب المنطقة ، هذا الخطر الان ، ولا شك انهم اداة خطرة في المنطقة بيد الامبريالية والدول الطامعة في الخليج والجزيرة العربية ، للسيطرة على ثرواتها النفطية .

ويمكن القول ، ان (مشكلة البلوش) يمكن ان نجد لها ، حلا مناسباً ، اذا ما استطاعت ونجحت الحركة الوطنية في التغلغل بين صفوفهم وكسبهم الى جانب نضال الحركة الوطنية وعلى الحكومات العربية ، الاستفادة من البلوش في المجالات غير العسكرية .

وهكذا يلاحظ ، ان الوضع السكاني في منطقة الخليج العربي ، يكشف المؤامرة التي تاخذ وجها جديدا وسافرا في محاولة انتزاع هويتها القومية عن طريق التغيرات الديموغرافية فيها ، ومن اجل فتح العيون عليها ، اذ كانت هناك نية لدرئها •

ان اخطر الحلقات التي تشهدها منطقة الخليج العربي ، تدفق الاف العمال الاجانب الى منطقة الخليج والجزيرة العربية بصورة خاصة • وقد اعدوا سلفا لخدمة الامبريالية الاميركية • ان السياسة الاميركية في المنطقة تمارس سياسة خبيثة لتغير الوضع السكاني في المنطقة وذلك من اجل سلخ المنطقة عن اصولها القومية وواقعها العربي واستبدالها باصول اخرى • •

لقد اشرفت الامبريالية الاميركية في السنوات الاخيرة، على عملية ارسال الاف العمال الكوريين الجنوبيين والتايوانيين، المدرين على حمل السلاح الى دول الخليج والجزيرة العربية بخاصة حيث وصل عددهم (١٢٠) الف نسمة ، وهؤلاء يقومون حاليا باعمال مدنية ، مع انهم مهئون اصلا لاعمال عسكرية طبقا لخطط الولايات المتحدة الاميركية بتأمين السيطرة على منابع النفط وخطوط مواصلاته •

ان هجرة العمال الاجانب الكوريين الجنوبيين والتايوانيين الى منطقة الخليج والجزيرة العربية يؤدي الى النتائج التالية :

١ - ان الهجرة من دول غير عربية الى المنطقة ما هو الا محاولة لالغاء الهوية القومية للسكان العرب ، وذلك لجعلهم اقلية سكانية لا تستطيع تقرير مصير المنطقة بعد ان يصبح الاجانب اغلبية ساحقة •

٢ - ان وجود عدد كبير من هؤلاء الاجانب يعطي دولهم (حجة)
التدخل في شؤون البلد المضيف لهم ، على اساس حماية الجاليات التابعة
لها ، وهكذا يصبح البلد المضيف فريسة لتدخل اجنبي ، قد يصبح خطيرا
في المستقبل .

٣ - ان الجاليات الاجنبية تدين بالولاء لبلدها الام ، بغض النظر
عن طبيعة النظام السياسي القائم في بلدهم ، ويمكن ان يكونوا طابورا
خامسا للدعاية والتخريب والتجسس كما يمكن استخدامهم لأي عمل
عسكري يقع في منطقة الخليج العربي .

٤ - يعمل هؤلاء الاجانب على اضعاف الروابط القومية التي تربط
المواطن العربي ، صاحب البلد المضيف بامتة العربية لان الجاليات
الاجنبية ، تعتبر الروابط القومية بين السكان العرب في البلد المضيف
والامة العربية تهديدا لمصلحتهم وتحديا لوجودهم كجاليات .

٥ - ان وجود الجاليات الاجنبية ، يؤدي الى زيارة التفكك
الاجتماعي والصراع الحضاري والتفسيخ الخلقي وتفشي الجرائم وطفغان
شتى المعايير الخلقية والسلوكية المستوردة .

٦ - تواجه الدول العربية المضيضة ضغوطا عديدة عبر وجود
العاملين الاجانب فيها وما يعززه وجودهم من مشاكل اقتصادية واجتماعية
وسياسية . ويمكن الاستشهاد بدولة الامارات العربية المتحدة ، لانها
نموذجا للدولة العربية الخليجية التي تواجه مؤامرة التغير السكاني ،
وانه بعد قيام هذه الدولة الجديدة برزت المشكلة السكانية . فهذه
الدولة ، تبنت مشاريع صناعية لا تتناسب مع حجمها السكاني ولا مع ما
تملكه من كوادر وخبراء في مختلف الحقول . وقد برزت الحاجة

لاستيراد الرجال من الخارج لا الخبراء والفنيين وحسب ، بل العمال غير المهنيين ايضا ، وعندما بدأت هذه العملية الواسعة وتوسعت فتحوّلت فيما بعد الى مشكلة « مقلقة » ، ليس من الناحية القومية فحسب بل ومن زاوية اجتماعية واقتصادية واستراتيجية ايضا .

ومن اجل فهم ذلك ، لابد من الاستعانة بلغة الارقام ، لتوضيح آرائنا ، فقد بلغ سكان الامارات عام ١٩٦٤ (٨٤) الف نسمة واغلبهم من المشتغلين بتربية الحيوانات الصحراوية وصيد اللؤلؤ والاسماك . ثم ارتفع العدد الى (١٨٠) الف نسمة بعد ان بدأت عمليات انتاج النفط فيها ، مما ادى الى استقطاب الايدي العاملة من الاقطار المجاورة والغربية وفي عام (١٩٧٥) تضاعف العدد اكثر من ثلاث مرات ليصبح عدد السكان ما يقارب (٦٥٦) الف نسمة وارتفع عام ١٩٧٧ الى (٨٦٢) الف نسمة . اما حجم القوى العاملة في البلاد فلا يتجاوز نسبة ٣٥٪ من مجموع السكان . ومما يزيد من تعقيد المشكلة ، ان هناك زيادة في نسبة المهاجرين من الخارج تبلغ ٧٥٪ في حين ان زيادة السكان الاصليين تبلغ ٢٥٪ (١٠) . ومن الجدير بالملاحظة ان القاء نظرة على الجداول الاحصائية ، لتكوين السكان وشرائحه في دولة الامارات العربية المتحدة نجد ان مجموع العمال الذين دخلوا الى دولة الامارات عام ١٩٧٦ بموافقة فردية او جماعية ما يقرب من ٨٠٪ منهم كانوا غير الناطقين بالعربية وتشير الاحصائيات ، الى ان اماره دبي تحتضن نسبة عالية من هؤلاء حيث بلغت نسبة الداخلين من العمال الاجانب في عام ١٩٧٦ اكثر من (١١٥) الف عامل بنسبة ٤٨٪ من مجموع العمال الوافدين وفي قطاع النفط ، الذي يعتبر عماد الاقتصاد الوطنى للدولة الفتية ، يشكل العمال غير العرب نسبة ٤٥٪ من مجموع العمال ، وهذا يعنى ، ان نسبة

الوطنيين العاملين في قطاع النفط محدودة للغاية • وتتعدى ظاهرة طغيان العناصر الاجنبية على الوطنيين في القطاع الخاص الى القطاع العام • وخصوصا في قطاع التوظيف والادارة والعمل • وحسب بعض الاحصائيات نجد ان نسبة العاملين الاجانب في بعض وزارات دولة الامارات العربية المتحدة تصل الى ٢١٪ من المجموع الكلي ومما يخفف من صورة هذا الموقف ، هو ارتفاع نسبة العاملين العرب في اجهزة الدولة حيث تصل ١٨٪ من المجموع الكلي مع العلم ان مجموع الموظفين العاملين في الدولة عام ١٩٧٦ حوالى (٢٣٥٤٥) موظفا (١١) •

وقد اوضح (زائر عربي (١٢)) للملكة العربية السعودية ، ان من الاشياء الملفتة للنظر كثرة الاجانب في البلاد، وتحسس المواطنين بكثير من الرهبة والخوف لهذا الفيضان الطارىء • ولن يمضي وقت طويل، اذا استمر تدفق الاجانب على البلاد - حتى يصبح ابناء البلاد فيها اقلية حقاً • لقد رفعت القيود عن قدوم الاجانب ، ولا سيما غير العرب منهم ، حتى اصبحت الشركات الاميركية والكورية واليابانية وغيرها تستقدم منهم الآلاف دون رقيب او حسيب •

ان اقامة مشاريع كبيرة جداً ولا تتناسب مع طاقات الدولة ، تؤدي الى استيراد العمال الفنيين والخبراء ، امر غير مبرر يساعد على تدوير اموال النفط للدول الغربية ، ويساهم في خلق كتلة بشرية غريبة عن الوسط العربي الذي نعيش فيها • ان دول ناشئة في المنطقة ، وضعيفة الامكانيات في مؤسساتها وتستورد هذا العدد من الاجانب للعمل فيها • تتعرض حتما للتفكك في مختلف الجوانب السياسية والعسكرية والامنية والقومية • ان وجود كثافة سكانية اجنبية يعرض الدولة ، لخطر الابتلاع الخارجي ، المسنود بحالة من التفكك الداخلي والتفكك القومي

والامني • وهذا ما نلاحظ بوادره في تحول العرب في امارات معينة الى اقلية •

ان الوضع الذي تعيشه بعض الاقطار العربية الخليجية في ظل تدفق الاف السكان المهاجرين المستوردين من الخارج للعمل كأدوات للاتّاج ، يطرح في الحقيقة التساؤلات وعلامات الاستفهام ، حول مصير ومستقبل المنطقة ، وهويتها القومية ، في ظل مخطط مدروس لجعل الوجود العربي في المنطقة ضعيفا هشا لاختضاع المنطقة ووضعها تحت هيمنة النفوذ الامبريالي للسيطرة على ثرواتها •



المصادر و الهوامش

- ١ - حول هذا الموضوع ، انظر ، علي غنام ، الغزو او ما يسمى (بالهجرة) بغداد ١٩٧٢ ص ٣ وما بعدها .
- ٢ و ٣ - التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن ، ص ١٦٧ و ١٦٩
- ٤ - حول هذا الموضوع انظر :
محمد الديب ، البلوش والمرتقة في الجزيرة العربية ، مجلة الكاتب المصرية عدد ٨٧ - ١٩٦٧ . ص ٤٩ .
- ٥ - انظر ، الدكتور صلاح العقاد ، التيار الوحدوي ومعوقاته في دولة الامارات العربية المتحدة ، مجلة السياسة الدولية ، عدد ٤٠ - ١٩٧٥ ص ١٤٩ .
- ٦ - د. يوسف ابو الحجاج ، الكيان السياسي والاقتصادي لدولة الامارات العربية المتحدة . مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية عدد ١٥ - ١٩٧٨ ص ٦٧ وقد اورد ، الدكتور سيد نوفل تقديرات لعدد نسمة وان عدد الهندو يقارب عدد الباكستانيين . وكذلك قدر عدد الباكستانيين من مختلف الامارات (عدا امارة دبي) يقدر بحوالي ٢٥٠٠٠ نسمة وان عدد الهندو يقارب عدد الباكستانيين . وكذلك قدر عدد الافغانين بحوالي (٥٠٠٠) نسمة وقدر عدد الايرانيين في ساحل الامارات بحوالي ٦٥٠٠٠ نسمة . وذكر ان في امارة دبي يوجد اكثر من ٣٠٠٠٠ نسمة من الايرانيين . ومثلهم من الهندو والباكستانيين بينما يقدر عدد المواطنين العرب باكثر من ١٥٠٠٠ نسمة ، وذكر ايضا ، بان الايرانيين يشكلون في الشارقة حوالي ٦٠ بالمئة ، فضلا عن وجود نسبة كبيرة منهم

في عجمان ورأس الخيمة اما الوافدون العرب فلا يوجد منهم سوى ٦٠٠ شخص من اللبنانيين والفلسطينيين ، كما لا يوجد من المصريين والسوريين الا بضعة عشرات .

انظر د. سيد نوفل ، الخليج العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٢٧٦ .

٧ - د. صلاح العقاد ، المصدر السابق ص ١٤٩ .

٨ - ان مساحة دولة الامارات العربية حوالي ٧٧٧٠٠ كم مربع ، وان الدخل السنوي لمواطن الامارات في الوقت الحاضر حوالي ١٣٧٠٠ دولار وهو اكبر متوسطات الدخل في العالم وقد قدر دخل الدولة من النفط لعام ١٩٧٦ حوالي ٨٠٠ مليون دولار حسب تقديرات البنك الدولي . انظر : د. شاكر خصباك ، دولة الامارات العربية المتحدة ، بغداد ١٩٧٧ ص ١٣٧ .

٩ - د. يوسف ابو الحجاج : المصدر السابق ، ص ٦٦ .

١٠ - الهجرة الاجنبية ، الخليج العربي لن يعود عربيا مجلة الكفاح العربي عدد ٩٧٨-٦ : ص ٣٢ .

١١ - حول الهجرة الاجنبية الى دولة الامارات انظر ، د. شاكر خصباك ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ وما بعدها .

١٢ - مجلة صوت الطليعة عدد ١٣-١٤ - ١٩٧٦ : ص ١١٢ .

بَنُو مَعْن شَمَّ آلَ زُرَيْعٍ فِي عَدَنَ

الدكتور محمد أمين صالح
أستاذ التاريخ الاسلامي
المعهد بآداب القاهرة

قبل الحديث عن تاريخ عدن السياسي في عصر الاستقلال ، وجب الإشارة الى عمارة هذه المدينة - الدولة مقدمة لبلوغها مركزا اقتصاديا رئيسيا في التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصر الاسلامي .

فيذكر ابا مخرمة نقلا عن ابن المجاور (١) مايفيد ان عدن كانت لسانا من الارض يمتد في البحر مما يلي جبل عمران ، وان الفرس الذين جاؤوا اليمن على عهد سيف بن ذي يزن اطلقوا البحر على تلك الجهة فصارت جزيرة عدن . وعرفت المنطقة البحرية المستجدة ببحيرة الاعاجم . فلقيت حركة النقل والشحن صعوبة شديدة باستخدام قوارب صغيرة تأتي بالبضائع الى البر وتطلب الامر اقامة قنطرة على سبع قواعد عرفت بالمكسر وسلك الناس والدواب الى البلد .

١ - ابن المجاور : تاريخ المستبعد ١١٦/١ . ليدن ١٩٥١ .

ابا مخرمة : تاريخ ثغر عدن ١٨١-٩ . ليدن ١٩٣٦ .

وتبعاً لذلك تفيد المصادر السابقة ان الحركة التجارية بعدن قيلت الاسلام لم تكن نشطة. « اذ قل ما كان يقصدها من المراكب بل كانت تمر بها وتتجاوزها الى الاهواب وغلافقة وغير ذلك من البنادر » على البحر الاحمر . ثم ان سكانها انذاك كانوا يعملون بصيد البحر ويسكنون في طرف المدينة قريب من الساحل . وملت بقية المدينة من السكنى والعمران .

والواقع ان الشريان التجاري البحري كان يتردد بين طريقين : البحر الاحمر والخليج العربي ، يزدهر احدهما على حساب الاخر تبعاً للسياسات الدولية المعاصرة . فقد شهد طريق الخليج العربي رواجاً قبل الاسلام نتيجة لسياسة الفرس في منافستهم الاقتصادية مع دولة الروم . ولم يلبث ان تحول الشريان التجاري تدريجياً الى طريق البحر الاحمر صعداً الى القلزم التي اتصلت بالنيل بقناة امير المؤمنين بعد فتح العرب لمصر . فازدهرت تبعاً لذلك موانئ المخا والجار وجدة على الساحل الشرقي للبحر الاحمر وكذلك نرى الامر بالنسبة لعدن فيما حدث بها من بناء تلك القنطرة لتسهيل حركة النقل والتفريغ . ومع كل فقد عاد طريق البحر الاحمر الى افول في القرن الثاني الهجري تبعاً لسياسة العباسيين في بغداد بتنشيط الخليج العربي .

ولا تشير المصادر الى زمن بناء تلك القنطرة التي ترمز الى بدء الاهتمام باستغلال ميناء عدن بالنسبة للتجارة الشرقية ، ولا الى احداث خاصة بها اللهم الا ما ذكر عن بناء مسجد جامع على عهد الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز ^(١) لغرض ديني بحث . ولا الى عمال فيها عن حكام

١ - عمارة اليمن : المفيد في اخبار صفاء وزير ٦٧ .

اليمن في عصر الولاة • انما تواجدوا من بعد في القرن الثالث الهجري على عهد ابن زياد مؤسس اول دولة مستقلة بتهامة اليمن ، الذي « كان له نواب بعده فقصدتها المراكب ودخلوها ورأوا انها اقر بواخلص لهم من غيرها فترددوا اليها » (١) •

ولهذا فانه من المرجح بدء ازدهار عدن كمدينة تجارية تكتسب من بعد اهمية سياسية في القرن الثالث الهجري وبخاصة منذ نصفه الثاني حين استعاد البحر الاحمر اهميته للمرة الثانية في العصر الاسلامي، وظهور المصالح المشتركة بين كل من الطولونيين فالأخشيديين ثم الفاطميين في مصر ، وبين الزياديين ثم الصليحيين باليمن • وبالتالي اكتسبت عدن مركزا سياسيا بتواجد اسرات حاكمة مثل بني معن ثم آل زريع تدين بالتبعية للدولة المترئسة حيناً او مستقلة حيناً آخر •

فبالنسبة لبني معن هناك خلاف بين المؤرخين حول نسبهم فيذكر ابن خلدون (٢) انهم ينتسبون الى معن بن زائدة • وهو معن بن زائدة الشيباني الربعي احد ولاة اليمن الاقوياء ١٤٢-١٥٠ هـ على عهد الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي والذي امتد سلطانه على كل انحاء اليمن حتى حضرموت جنوبا حيث قضى على بقية الخوارج الاباضية هناك (٣) على حين يذكر عمارة اليمني ونقل عنه المؤرخون اليمنيون (٤) قوله « واطنهم من غير ولد معن بن زائدة الشيباني » • واجتهد محقق (٥)

-
- ١ - ابا مخرمة ، تاريخ ثغر عدن ٩/١ •
 - ٢ - ابن خلدون : كتاب العبر ٤/٤٦٦ •
 - ٣ - د. امين صالح : تاريخ اليمن في العصر الاسلامي ١١٢ • القاهرة ١٩٧٥ •
 - ٤ - المفيد : ٨٢ ، تاريخ ثغر عدن : ١٦٤/٢ ، قرّة العيون : ٣٣٤ •
 - ٥ - المفيد : ٨٥ ج ١ •

مفيد عمارة بنسبتهم الى حمير ثم من الاصلح دون اعتماد على مصدر • ولا ندري أهى قحطانية تنفي تغلب احدى عشائر ربيعة العدنانية على بقعة ارض اليمن ؟ فهم قد كرهوا افعال هذا الوالي وكثرت شكايتهم منه لانه كان ينفذ سياسة الخليفة المنصور العباسي سواء في الانتقام لما فعله خوارج اليمن في قديد ، وايضا لتعطيم الحلف الذي كان بين اليمن والريقة (١) • ولهذا فنحن لا نأخذ بظن عمارة ونميل الى قول ابن خلدون فقد استخلف معن بن زائدة ابنه زائدة على اليمن حين استدعاه الخليفة الى بغداد وسيره الى سجستان عام ١٥١هـ حيث قتل هناك « فأقام بعد ابيه ثلاث سنين » (٢) • ونرجح ان هذا الابن وأهله بقوا باليمن ثم لحقوا بالامير ابن زياد من زبير وصاروا من رجاله فتولوا حكم عدن •

ولاتظهر المصادر بداية حكم بني معن في عدن ، ولا عن نطاق نيابتهم عن الزياديين في اليمن الجنوبية ، سوى انهم كانوا همزة الوصل بين آل زياد وحضرموت (٣) ، ولا عن اعمالهم العمرانية او الادارية شيئاً ، ولا عن مواقفهم السياسية تجاه امارة آل يعفر او سيطرة علي بن الفضل وقد وصلت غزواته الى أبين (٤) • ومن هذا الغموض نرى انهم

-
- ١ - ابن اياس الازدي : تاريخ الموصل ١٧٤-١٧٥ . القاهرة ١٩٦٧ (عن خوارج اليمن ووقعة قديد ، انظر تاريخ اليمن الاسلامي للمؤلف ص ١٠٩-١١٠) •
 - ٢ - ابن الربيع : قرّة العيون باخبار اليمن الميمون : ١٢٣ . القاهرة ١٩٧١ •
 - ٣ - صالح الحامد : تاريخ حضرموت ٣٥٤/١ ، ٣٥٩ •
 - ٤ - المؤلف : تاريخ اليمن الاسلامي ١٦٦ •

باعتبارهم نواب ابن زياد كانوا يرفعون اليه سنويا من الضرائب على
مراكب الهند التي ترد بالتوابل والبخور ، وضرائب العنبر على
على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر (١) . ثم تفصح المصادر
قليلا بالقول بخروج بني معن الذين كان لهم السلطة على عدن ولحج
وأبين والشحر وحضرموت عن حكومة زييد بعد وفاة الحسين بن
سلامة (٢) القائد والوصي على آخر الامراء الزياديين عام ٤٢٨ هـ . وقد
يكون هذا ما قصده ابن خلدون من قوله عنهم انهم امتنعوا عن بني
زياد وقنعوا منهم بالحطبة والسكة (٣) ثم هم لم يشاركوا في الاحداث
التي ادت الى انتقال الحكم في زييد من الزياديين الى بني نجاح الذين
اقتصروا على حكم الرسول الغربية باليسين دون الجنوبية منها . ومن ثم
بدأ بنو معن كحكام مستقلين في عدن الجنوبي برئاسة عليا وظلوا على
ذلك مدة ربع قرن الى ان استولى علي بن محمد الصلحي على اليمن
الجنوبي عام ٤٥٥ هـ فدخلوا في دولته وتحت طاعته فابقاهم نوابا له
في حكم تلك المناطق (٤) .

نخلص من ذلك الى ان بني معن هؤلاء — مهما كان اصلهم — قد
رفعوا من شأن عدن تجاريا بعد اصلاح لطبوغرافية المدن وتوالي قدوم
المراكب التجارية فيحصلون منها الضرائب ، كما استفادوا من تعمير
الحسين بن سلامة لطرق الحج والتجارة من عدن الى مكة . وبدأ الثراء
تدرجيا على ولايتها الذين سكنوا الحصون فتطلعوا الى الاستقلال بها
فترة الى ان خضعوا للصليحيين . فغيروا ولاءهم للمذهب السني

١ — المفيد : ٦٢ ، ابن خلدون : ٤٥٦/٤ .

٢ — المفيد : ٨٢ ، قرّة العيون : ٣٣٤ .

٣ — ابن خلدون : ٤٦٦/٤ .

٤ — المفيد : ١٧٧ ، ابن الجاور : ١٢١/١ ، ابا مخرمة ١٦٤/٢ .

والدعوة للخليفة العباسي الى المذهب الاسماعيلي والخطبة للخليفة القاضي باعتبار علي بن محمد الصليحي احد دعاة . ففقدوا ما كانوا يتسعون به من استقلال ورضوا التبعية لدولة الصليحيين الفتية ولم يكن يستطيعون لها دفعا . وبالتالي تعهدوا بدفع خراج عدن وقدره مائة الف دينار سنويا جعله الصليحي صداقا للسيدة بنت احمد بن جعفر بن موسى الصليحي حين زواجها من ابنه المكرم احمد عام ٤٥٨ هـ (١) .

ودلت الاحداث على ان بني معن شعروا بخسارة فادحة من هذه التبعية الاخيرة ، وباتوا مثل غيرهم من افراد اليمن المغلوبين على امرهم مثل بنو الكرمدي بالمعافر ، والمناخيون بالمدغيرة ، والسخطيون في يحصب وغيرهم ، باتوا يترقبون فرصة للخلاص من قبضة الصليحي الذي كان يعلم نواياهم ويخشى بأسهم او غدرهم بدولته فكان يسد عليهم المنافذ فاخرجهم في صحبته عند سفره الى الحج في موسم ٤٥٩ هـ ، حتى لا يثوروا في غيبته على المكرم احمد ابنه الذي استخلفه بصنعاء، تلك السفرة التي لقي فيها الصليحي حنيفة غيلة على يد سعيد الاحول بن نجاح . ولم يشأ سعيد الاحول الا الانتقام لمقتل ابيه من الصليحي واهله فقط فهو قد عفا عن سائر من معه من الامراء الذين عادوا الى بلادهم (٢) . وفي نيتهم الانتفاض على الدولة . وكذلك فعل بنو معن حين عادوا الى عدن فامتنعوا عن دفع ما التزموا به الى سيدة بنت احمد زوجة المكرم (٣) . وهكذا تخلص بنو معن من هذه التبعية واستقلوا بعدن من جديد .

١ - المفيد : ١٧٨ ، ابا مخرمة : ١٤٦/٢ . ابن الجاور : ١٢١/١
يذكر تاريخ الزواج ٤٦١ هـ وهو خطأ .
٢ - المفيد : ١٢٤ .
٣ - المفيد : ١٧٧ ، ابن الجاور : ١٢١/١ .

ولم يكن المكرم يسكت عن ضياع ملك ابيه رغم الظروف الصعبة التي بات فيها من انقلاب امراء اليمن وتهديد بعضهم له في صنعاء فضلا عن وجود امه اسماء بنت شهاب في اسر سعيد الاحول بزبيد . فخاض حروبا عدة خلص بها امه من ذل الاسر واخضع المنقلبين عليه ومنهم بني معن .

وهناك مخطوطة « روضة الازهار » للحجوري اعتمد عليها محقق مفيد عمارة جاء فيها حوادث المكرم احمد مع آل معن مربوطة بالسنين لم توجد في غير هذه الروضة نقلها سيادته كما يقول على علاتها دون تمحيص^(١) وكان لابد من اعمال الفكر التاريخي لاستخلاص وقائع الاحداث من هذا المصدر واستكشاف الغوض الذي اكتنف هذه الفترة الاتقالية من عدن من بني معن الى حكام جدد عرفوا بآل زريع .

فقد تواجد عباس بن معن في عدن مستقلا مدة ثلاث سنين من ذي الحجة ٤٥٩ هـ الى وفاته في ذي الحجة ٤٦٢ هـ تولى بعده محمد بن معن وهو الذي واجه ضربات المكرم احمد في غزواته المتتاليتين على عدن عامي ٤٦٧ ، ٤٦٩ هـ فكان يلجأ مع اهله وانصاره الى اصور . ثم يعود محمد بن معن على صلح . وكان من شروط الصلح الاول امتلاك المكرم احمد المنطقة من الحجج الى باب المندب وبقاء محمد بن معن في أبين . ثم سلم بنو معن في الصلح الثاني باب عسدن ونصف قوانينه والعارة ولحجج وأبين .

وهكذا لم يكد يبقى لبني معن شيء في عدن الا قدر معلوم من

١ - المفيد : ١٧٧ - ١٧٨ ج ١ اورد بالحاشية النص ذاته من المخطوطة .

الاموال دون الولاية • ولجأ محمد بن معن واهله مرة ثالثة الى آجور حيث بقي نحو خمس سنوات ليعود عام ٤٧٣هـ وينقض الاتفاق الاخير • فكان ان اسند المكرم احمد ولاية عدن لآخوين هما العباس ومسعود ابني المكرم اليامي الهمداني ليتولى هؤلاء استخلاص عدن نهائيا من بني معن • فاشتبكوا معهم في وقعتين عند بلدة خنفر الاولى صفر ٤٧٧هـ والثانية جمادي الاخرة ٤٧٨هـ لقي فيها مهر بن معن الهزيمة ، ولم يلبث ان مرض ومات في آخر هذا الشهر فيخلفه ابن اخيه يعفر بن عباس بن معن مدة ٦١ يوما فقط كي يسلم بعدها الى الحكم الجدد • وانتهى بذلك حكم بني معن في عدن ونواحيها •

اما عن العباس ومسعود ابني المكرم اليامي الهمداني فهما من رجال دولة الصليحيين • « فقد كان للعباس سابقة محمودة وبلاء حسن في قيام الدعوة المستنصرية مع الداعي علي بن محمد الصليحي تم مع ولده المكرم احمد عند نزوله زبيد لاستخلاص امه اسماء بنت شهاب^(١) كذلك وقفوا بجانب الدولة في تلك الظروف الصعبة التي واجهها المكرم احمد عقب اغتيال ابيه حتى استعاد ملكه ومنها عدن كما اسلفنا • فجاءت توليتهم عنه جزاء وفاقا لما قدموه من خدمات جليلة •

على انه يلاحظ ان المكرم احمد بن علي الصليحي لم يفرد ولاية عدن لشخصية واحدة من هذه الاسرة الهمدانية انما جعلها قسمة بين الآخوين ، فولى العباس باب عدن وما يصل البر ، ومقره عدن • وولى اخوه مسعود امر الساحل والمراكب وحكم المدينة • ومقره حصن الخضراء • كما استحلها المكرم احمد بدفع ذلك الحق السنوي في خراج

١ - المفيد : ١٧٦ ، ابن الجاور : ١٢١/١ ، قرة العيون : ٣٠٤ •

عدن لزوجته الحرة الملكة (١) وقدره مائة الف دينار ، التي كان يدفعها
بنو معن من قبل .

هذا وقد توفي المكرم احمد عام ٤٨٠هـ وقيل ٤٧٩هـ (٢) . كما
توفي العباس بن المكرم سنة ٤٨١هـ فخلفه ابنه زريع في ولايته على باب
عدن بجانب عمه مسعود على المدينة والساحل . وقد لا نبعد عن
الحقيقة بالقول بميل زريع بن العباس الى المخالفة . فاليه نسبت اماره
جديدة بعدن . ويبدو انه كان يطمع ان يحل مكانا اكثر نفوذا في دولة
الصليحيين في ذي حيلة وليس عدن ومن ثم فهو غاضب على تولية
شخص اخر غيره هو المفضل بن ابي البركات الحميري اقوى حصون
العاصمة وبه ذخائر الدولة . غير ان مسعود بن المكرم كان اكثر اتزانا
من ابن اخيه وقسيمه في حكم عدن ، فهو لا يرضى شق عصا الطاعة
واضطر زريع بن العباس الى مجاراة عمه مسعود في الوفاء للحرة الملكة
بالتعهد السابق واسترضى نفسه بتملك حصن الدفلوة (٣) .

ولم يلبث ان حلت كارثة بمقتل كل من مسعود وابن اخيه زريع .
فقد اقبلا من عدن يشتركان في غزوة على زبيد بقيادة المفضل بن ابي
البركات فقتلا هناك عام ٤٨٥هـ فخلعهما والداهما ابو السعود بن زريع ،
وابو الفارات بن مسعود كل في ارثه من عدن . ولم يكن لدى ابني العم
الان ما يدعوا للتمسك بعهود اباائهم تجاه الحرة الملكة ورجلها الاول

-
- ١ - المفيد : ١٧٧-١٧٨ . ابن المجاور ١/١٢١ ، قره العيون : ٣٠٤ .
٣٠٥ ، تاريخ ثغر عدن : ١٠٨/٢ .
٢ - ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن : ١٢٢-١٢٣ ، يذكر بعض
المؤرخين تاريخا اخر لوفاة المكرم احمد عام ٤٨٤ . انظر المفيد وتاريخ
ثغر عدن : ٩/٢ . وقره العيون : ٤٦٥ .
٣ - قره العيون : ٣٠٥ .

المفضل بن ابي البركات الحميري • فكان ان عزمنا على الاستقلال بعدن بعدم دفع هذا الالتزام السنوي للصليحيين (١) •

ولم ترض الحرة الملكة بدورها الا ان تحافظ على كل سلطاتها في انحاء دولتها باليمن وحققها من عدن بالذات وآزرها المفضل بن ابي البركات الحميري بان قاد جيشا الى عدن فتصدت له هذه الاسرة الهمدانية وجرت بينهما عدة وقائع لم تكن حاسمة • ثم تداعى الطرفان الى الصلح باستمرار وفاء حاكمي عدن ولكن بقدر النصف فقط من خراج عدن وبلغ خمسين الف دينار (٢) •

وكان هذا حلا مرحليا اذ كان حكام عدن يتطلعون الى الاستقلال عن الصليحيين بالتخلص من هذا الالتزام وحققوا ذلك في خلاف ثان وثالث اخير مستفيدين من الظروف والمشاكل التي واجهتها الحرة الملكة • فقد انتهز ابو السعود بن زريع وابو الفارات بن مسعود فرصة ثورة الفقهاء في التعكر وانتحار المفضل بن ابي البركات غما وكسدا عام ٥٠٤هـ فعمدوا الى قطع هذا النصف • فتولى اسعد بن ابي الفتوح ابن عم المفضل قتالهما بأمر الحرة الملكة الى ان تم الصلح على قدر الربع فقط • ثم اوقف حاكما عدن هذا الالتزام عند تغلب بني الزر من خولان على التعكر عام ٥٠٩هـ (٣) ثم توفي ابو السعود بن زريع عام ٥١١ هـ ، فخلفه ابنه سبأ على ارثه •

١ - المفيد ١٧٨ ، ابن المجاور ١٢٢/١ • قررة العيون : ٣٠٥ (كانت غزوة المفضل بن ابي البركات لزبيد احدى حلقات الصراع بين الصليحيين وبني نجاح • كما كانت وفاة زريع بن العباس عام ٤٨٥ هـ كما في روضة الازهار للحجوري • المفيد : ٣٨٠ •

٢ - المصادر السابقة •

٣ - المفيد : ١٧٩ • ابن المجاور : ١٢٢/١ ، قررة العيون : ٣٠٥ •

وهكذا حققت عدن نوعاً من الاستقلال الإداري والمالي عن دولة الصليحيين وفي إطارها باستمرار التبعية الروحية بالدعوة للخليفة الفاطمي في الوقت الذي كان يزداد نفوذ بيت زريع في انحاء اليمن الأسفل مثل الفضل ومسعود ابني زريع اللذين تصديا لمحاولات ابن نجيب الدولة استعادة نفوذ الحرة الملكة وحققها المفقود وهزماء عند الجوة^(١) عام ٥١٨هـ . كما اشترك سبأ بن السعود بن زريع بجانب ابن عمه ابي الفارات بن مسعود مع بني الزر من خولان والمنصور بن المفضل بن ابي البركات واسعد بن ابي الفتوح ، وبسعى آخر تحالفت همدان وخولان وحمير في حصار ابن نجيب النولة بالجند ، ثم التخلص من هذا الداعي الواحد باعادته الى مصر في أسوأ حال . وخرج سبأ بن ابي السعود بن زريع وقد اضاف الى ارثه السابق باب عدن والتعكر والدملوة ، اضاف حصونا اخرى مثل سامع ومطران ويسين وذبحان علاوة على اعمال واسعة كثيرة في بعض المعافر والجند^(٢) . اما البيت الثاني بيت ابي الفارات فلم يفر بشيء سوى ما كان له من امر الساحل والمدينة وحصن الخضراء تولاه ابناء ابي الفارات بن مسعود ، محمد وعلي على التعاقب .

كذلك ارتفع شأن بني زريع من ناحية اخرى جاء نتيجة انقسام الامامة او الخلافة العظيمة بعد اغتيال الخليفة الأمر ذي القعدة عام ٥٢٤هـ بتمسك الحرة الملكة بالدعوة للامام الطيب بن الأمر ، محولة امر الدعوة للخليفة الحافظ الى سبأ بن ابي السعود . وحمل الداعي سبأ بن ابي السعود بن زريع القابا فخمة فهو « الداعي الاوحد المظفر مجد الملك شرف الخلافة عضد الدولة سيف الامام تاج العرب ومقدمها

١ - المفيد : ١٦٩ ، ثغر عدن : ٤١/١ .

٢ - المفيد : ١٨١-١٨٢ . قرة العيون : ٣٠٥-٣٠٦ .

داعي امير المؤمنين « (١) . وهكذا جمع سباً بن ابي السعود بن زريع بين الدولة والهوية وصار في مركز يضارع الصليحيين بل تمهد السبيل ليخلف دولتهم .

ولم يلبث ان دب الخلاف والشر بين ابناء العم من هذه الاسرة الحاكمة وفاز آل زريع بن العباس بعد قتال شديد بملك بيت ابي الفارات بن مسعود وصفت لهم عدن . ويظهر المؤرخون بداية هذا النزاع ومظاهره بما حدث من احتكاك بين نواب الطرفين ودون ذكر الاسباب التي نراها فيما شعر به علي بن ابي الفارات من حقد وحسد لما لمسه من صغر شأنه دون شريكه في حكم عدن الداعي الاوحد سباً بن ابي السعود . فأوحى الى نائبه ابي القاسم محمد بن الخزري بالاشتطاط في قسمة الارتفاع على احمد بن غياث نائب الداعي . وكذا استخدام الشدة والتضييق وظلم الناس من رعايا الداعي بخاصة ، علاوة على تناول هذا النائب وعماله بالاقوال بمذمة الداعي بما يوجب الغيظ ويشير الحفيظة « ولم ينههم مولاهم عن ذلك » . وزاد الموقف توتراً عزم علي ابن ابي الفارات على رفع يد سباً بن ابي السعود قسيمه في حكم عدن . ولم يكن امام الداعي مفر سوى قبول التحدي وقد نفذ صبره او انهى استعداداته للنزال بالموءن والرجال (١) .

وأدار الداعي سباً بن ابي السعود بن زريع القتال في جبهتين الاولى : عند عدن ذاتها بقيادة مولاة الشيخ بلال بن جرير المحمدي ، بينما عسكر هو بجيش كبير في قرية يقال لها بني أبة على وادي الحج ، في مواجهة بني عمه بمدينة كبيرة لهم مسورة ايضا يقال لها الرعارع . ودار القتال سجالات بين الفريقين طيلة عامين (٢) الى ان انتهى في ظروف

١ - المفيد : ١٨١ ، ٢٥٦ .

٢ - المفيد ، ابن المجاور : ١٢٤/١ . قرعة العيون ٣٠٦ .

وتتأج هجوم بحري خارجي على عدن .

فقد انتهز حاكم جزيرة كيش فرصة هذا النزاع الجساري بعدن
توقيتا مناسباً لتجريد حملة ذات اسباب اقتصادية . ذلك ان هذه الجزيرة
بحكم موقعها الجغرافي عند مدخل خليج عمان قرب ساحل فارس، كانت
قد خلفت سيراف ابان القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي .
كمركز للتجارة الهندية بالخليج العربي . ثم تحولت هذه التجارة الى
عدن وبالتالي فقد حكم ملك الجزيرة مصدرا كيبسرا من الثروة التي
صارت الان الى حكام عدن ^(١) . وليس أدل على ثراء هؤلاء من آل
معن ثم بني زريع من دفع ذلك الالتزام السنوي للحرمة الملكية وهو مائة
الف دينار كما اسلفنا . فضلا عن دخولهم و ثرواتهم الخاصة ^(٢) . بما
يشير الى ازدهار تجاري لم تشهده عدن من قبل .

ونود في البداية ان ننوه ان الغرض من هذا الهجوم لم يكن هدفه
« اخذ عدن » ^(٣) كما افاد ابن المجاور ذلك ان تقدير القوة العسكرية
المصاحبة للأسطول المهاجم لم يتجاوز تقديرها سبعمائة رجل ^(٤) ، وهي

١ - المفيد : ١٨٢-١٨٥ ، قرة العيون : ٣٠٦-٣٠٨ .

2 - Goitein , Two Eyewitness Reports of an Expedition of the King
of Kish (Qais) against Aden , ps. 247 - 248 . (Bulletin of
the School of Oriental and African Studies . V. XVI , 1954 ,
part II .)

٣ - قدرت ثروة بلال بن جرير نائب الداعي سبأ في عدن عند وفاته
ب ٦٥٠ الف دينار ملكي و ٣٠٠ الف دينار مصري فضلا عن خزائن اللبس
والطيب واصنافه والعدد والسلاح وتحف الهند والطاف الصين والمغرب
والعراق وغير ذلك مما لا يدخل كما قال عمارة اليمني تحت الحصن ،
وانتقل الجميع بوصية بلال الى مولاه الداعي محمد بن سبأ (المفيد: ١٩٧)

٤ - ابن المجاور : ١٢٤/١ .

غير كافية لاحتلال عدن بحرا وبراً ، انما كان صاحب كيش يريد « قطعة من عدن » ^(١) اي جزء منها ، وتكون الخضراء قلعة الساحل فقط دون التعكر ، كنقطة ارتكاز لاعتراض وتشيت السفن التجارية الواردة
عدن .

وتساعدنا التفاصيل التي أوردها ابن المجاور عن هذا العدوان بجانب الوثائق وهي عبارة عن رسالتين ^(٢) صادرتين من أحد التجار الكارمية الذين يردون عدن احدهما الى القاهرة والثانية الى الهند كشاهدي عيان لاحداث الحملة ، في استخلاص الظروف التي افشلت الحملة من جهة ، والمؤثرة على احداث الصراع الجاري بين البيتين الحاكمين من جهة ثانية ، واخيرا بيان اهمية مثل هذه الوثائق في معرفة الحقيقة التاريخية التي تؤيد او تصحح ما يرد منها في المصادر الاوروبية .

تألفت القوة الحربية التي جهزها « ولد العميد صاحب كيش الى عدن ٠٠٠ برمتين كبار و ٣ سفاريات ، وعشر حاشجيات . وفي الجميع تقدير ٧٠٠ رجل » ^(٣) افلحوا في النزول واحتلال جبل صيرة ، بينما شرد الناس من البيوت الى الحصون ، ولم يكن معهم سلاح للدفاع . وبات كل فريق يخاف صاحبه طيلة شهرين .

1 - Ibid .

٢ - هاتان الرسالتان من مجموعة الوثائق المعروفة باسم وثائق الجنيزة المحفوظة الان في مكتبات جامعة كمبردج واكسفورد وغيرها . وعكف الباحث Goitein على نشرها . واختص الرسالتين بمقالة بمجلة معهد الدراسات الشرقية والافريقية عام ١٩٥٤ .

3 - Goitein , op. cit. , Document , No. 182 pp. 254 - 255 .

وجبل صيرة هو جبل شامخ في البحر مقابل عدن (ابن المجاور : ١/١١١) وهو ما يسمى اليوم حقان ، ويسمى البنديرة وفيه كانت ترسو المراكب الشراعية في سالف الايام (المفيد : ١٧٨ ج ٢) .

وتتفق رواية ابن المجاور مع ماجاء بالوثائق من نزول العدو بجبل صيرة (١) ، وذكر ايضا انواع السفن المهاجمة باسماء تختلف عما جاء سابقا ، فقال « جهاز ملك الجزيرة قيس دوانيج ، وبرمات شبه ابرام النارجيات ونهايق (٢) ، دون تحديد لعدد كل نوع منها ولا تقدير القوة العسكرية المصاحبة ، انما سماهم «الجاشو» . و اضاف انهم « انفذوا رسولهم الى ... (٣) اصحاب التعكر والخضراء ، وقالوا لهم : اعلموا ان ملك كيش انفذنا الى اخذ عدن ، فان جئتم بالصلح والا جئناكم بالفتح وهو اقبح . فقال له صاحب الخضراء انا عبدكم والبلد بلكم ، وولوا فيها من شئتم . فلما سمع القوم هذه المقالة نزلوا من الدوانيج والبرمات الى الساحل وهم آمنون مطمئنون . وانفذ لهم صاحب الخضراء الضيافة التامة من خبز ولحم ونبيذ (٤) .

١ - ابن المجاور ١٢٤/١ .

٢ - جاء ترتيب انواع المراكب في الوثيقة طبقا لاهميتها بعكس ما اورده ابن المجاور . فالبرمتان الكبار ذكرهما ابن المجاور الثانية في الترتيب وهي البرمات شبه ابرام الفارجيات . وهي سفن شبه دائرية من قطعة خشبية واحدة . والشفارات هي الدوانيج وهي سفن مصاحبة ذات حجم متوسط اقل من السابقة . واخيرا الحاشجيات وهي النهايق وهي قوارب صغيرة ملحقة بالسفن الكبار تستخدم للنجاة أو الانزال (Goitien , op. cit. , pp. 252 - 253 .

٣ - العبارة الواردة هنا « انفذوا رسولهم الى بني زريع يعني اصحاب التعكر والخضراء » . ولم يكن بتوزيع حكام الخضراء بل بيت ابن ابي الفرات . .

٤ - ابن المجاور : ١٢٤/١ تمضي رواية ابن المجاور بان الجاشو اقبلوا على الاكل ودار السكر بينهم رغم تحذير مقدمهم . ونحن نتفق مع Goitein في القول بان الرواية كلها شبه اسطورية (p. 251) .

ومهما يكن من موقف صاحب حصن الخضراء كما صوره ابن المجاور . فانه كما بدا من الوثائق عاجزا عن التصدي لهذا العدوان حتى انزعج الناس فهجروا بيوتهم الى الحصون وتحت الحصون . ونسجل هنا على بيت ابي الفارات بن مسعود الذي كان متوليا امر المراكب والمدينة والساحل ، الغفلة والاهمال والتقصير في عدم التفكير بضرورة اعداد قوة بحرية خاصة للدفاع عن احتمالات هجوم بحري على عدن مكتفين بقوة الحصون . الخضراء قلعة البحر . والتعكر قلعة البر . هل يكون لدى حكام عدن روح البحر ؟ قد يكون الامر كذلك بالنسبة للسفن فلم نسع عن اسطول يسني قام بواجبه في الدفاع عن عدن التي تعرضت فيما بعد لهجمات بحرية متعددة .

وفي وسط هذه الظروف الصعبة كان لابد ان ينهي ابناء العم الخلاف ويوقف القتال وتتوحد الجهود للدفاع عن املاكهم . وجاءت على ابن ابي الفارات رسالة او وفد من ابن عمه صاحب التعكر يسأل : « مانصنع وهذا العدو قد دهمنا ؟ » فاعترف علي بن ابي الفارات بعجزه بقوله : « غلطنا في الكيل فشرد منا الحيل ، واعمل برأيك فيما ترى » فاشتراط الداعي سبأ بن ابي السعود نزول غريبه من الخضراء شرط كفاية العدد . فنزل وسلم الى ابن عمه « (١) » .

نخلص من ذلك ان ظروف هذا الهجوم اظهر ضعف علي بن ابي الفارات عن الدفاع عن المدينة والساحل حتى احتله الاعداء وترك لمنافسه الداعي هذه المهمة . فكان ان تقدم بلال بن جرير بقواته التي قدرتها الوثيقة بنحو ألفي رجل وكبس جيش العدو فقتل الكثير وهرب

الباقون تاركين متاعهم غنيمة ، الى المراكب التي ظلوا بها مرابطين في البحر (١) . ولم تكن لدى بلال بن جرير بطبيعة الحال قوة بحرية يطاردها المنهزمين الذين باتوا يهددون المراكب التجارية الواردة الى عدن . وهاجموا فعلا مركبين هجوما فاشلا لما اصابهم من جوع وعطش . فوصل المركبان الى الساحل بسلام فاستخدمهما بلال بن جرير كقوة بحرية حشدهما بالمقاتلة وخرجتا للمطاردة » فلم يعد لهم حيلة في المكلا ولا في البلد ، فرجعوا وراحوا خلف الجبل الى ان طاب لهم الريح وسافروا (٢) على اقبح صورة مقتولين خاسرين (٣) .

وانجلي الموقف نتيجة لهذا الهجوم الفاشل الذي تعرضت له عدن بسبب المنافسة التجارية من جزيرة كيش ، وفي اثناء هذه الحرب الداخلية بين بيت ابي الفارات وبني زريع ، بانتصار كبير لبني زريع في جبهة عدن باستيلاء مولاهم بلال بن جرير على امر المدينة والساحل فقط دون حصن الخضراء . فمتى حدث ذلك ؟

مرة اخرى تعترضنا مشكلة التحديد الزمني للاحداث الهامة في تاريخ اليمن . فمثلا عمارة اليمني وهو المعاصر وعمدة المؤرخين عن هذه الفترة لم يشر لا من قريب ولا من بعيد عن الهجوم البحري على عدن وان افاض بذكر تفاصيل الصراع الدائر بين البيتين الحاكمين عند وادي الحج فقط دون عدن . ودون تاريخ ايضا لبدايته ونهايته . وهذا فضلا عن اختفاء تاريخ الرسالتين المشار اليهما . وقد اجتهد ناشر وثائق

1 - Goitien : op. cit. , Document , No. 2 , p. 255 .

2 - Ibid .

3 - Ibid , Document No. 1 , pp. 254 - 255 .

الجنيزة في تحديد زمن هذا العدوان الذي استمر « شهري زمان » (١)، بعد المقارنة بوثائق أخرى معاصرة فأكد تاريخ الخطابين بعام ١١٣٥م (٢) دون تحديد للشهر ، وهو الموافق ربيع الثاني ٥٢٩ - ربيع الاول ٥٣٠ هـ . ونحن بدورنا نرجح ان استسلام حصن الخضراء لم يأت على الفور نتيجة الشرط الذي ذكره ابن المجاور ، واما الحصن ظل يقاوم حصار بلال بن جرير الى ان استسلم في اواخر عام ١٣١ بعد اكثر من عام من انسحاب العدوان . فكتب بلال يبشر الداعي سبأ بن ابي السعود الذي كان يقود القتال في جبهة لحج عند الرعارع مع بيت ابي الفارات وتعددت بينهما الوقائع تجلت فيها انواع من الفروسية الهدائية الى ان استولى الداعي سبأ بن ابي السعود على الرعارع وارسل بدوره بالبشرى . فالتقى البشيران في الطريق . ويعني هذا استسلام بيت ابي الفارات في كلا الجبهتين في وقت واحد . والتجأ علي بن ابي الفارات الى حصنين له يقال لهما المنيف والحقلة في اعالي لحج . ودخل الداعي سبأ بن ابي السعود مدينة عدن مالكا لجسيع جهاتها . ولم يلبث ان توفي بعد سبعة اشهر من دخوله عدن في شعبان ٥٣٢ هـ (٣) .

ثم تعرض بيت بني زريع الى هزة كادت تؤدي بهم وهم في عنفوان قوتهم بظهور النزاع بين اولاد الداعي سبأ . ثم عاد امره الى استقامة بما قام به مولاهم الشيخ بلال بن جرير في خدمتهم مرة ثانية (٤) . كان الداعي سبأ قد اوصى بامر الدولة الى ولده علي الاغر . ونفذت الوصية

Ibid , Document No. 2 , p. 255 .

— ١

Ibid , p. 250 .

— ٢

٣ - المفيد : ١٨٧ ، ١٨٠ ج ١ و ١٨٩ ج ١ . قرّة العيون : ٣٠٩ .

٤ - المفيد : ١٨٩ - ١٩٠ . قرّة العيون : ٣٠٩ . ابن المجاور :

١٢٣/١ . ابا مخرمة : ٢١٧/٢ .

وولى علي الاغر بن الداعي سبأ واتخذ مقره الدملموة . ولا يفصح المؤرخون عن الاسباب التي دفعتها الى اتخاذ موقف عدائي ضد اخيه محمد . وربما كمن السبب مع مرض خطير يفتك به حاله الى شخص يأس من بريق العز والسلطان الذي سيفوز به اخوه محمد من بعده ولمن وشك . فاراد البطش به فاضطر محمد بن سبأ الى الفرار بجلده لاجئا الى المنصور بن المفضل بن ابي البركات الحاكم الصليحي بالجند . او ان على الاغر وقد شعر بدنو اجله اراد ان يجعل امر الدولة الى اولاده رغم صغر سنهم في ذرية بيت واحد من بني زريع . فاعترض اخوه محمد على هذه الوصية فخرج الى الجند ينتظر هناك الى حين .

وأى كان السبب فان علي الاغر بن سبأ لم يعمر طويلا اذ توفي بالدملموة من مرض السل عام ٥٣٤هـ ، وقد اوصى لاولاد صغار ثلاثة هم : حاتم وعباس ومنصور ، وجعل كفالتهم الى رجلي البلاط والدولة وهما عبده انيس وهو استاذ حبشي ، ويحيى بن علي الكاتب والوزير . ولم يكن هذا امرا يستقيم .

فلم يكن من المنتظر ان يقبل بلال بن جرير النائب في عدن سيادة الوصي والكفيل استاذ انيس الذي ربما كان سبب فساد العلاقة بين بلال وبين الاغر حتى عزم هذا على التخلص منه بالقتل او انه كان هناك تعاطفا بين بلال بن جرير وبين محمد بن سبأ اللاجئ بالجند ويراها الرجل المناسب من بني زريع لحكم الدولة ، والمنتظر ايضا ان يتولى امر الدعوة . فكان ان تحرك بلال بن جرير ليضع الامر في نصابه كما يذكر المؤرخون من ارساله بعض رجال همدان الى الجند يستدعون محمد بن سبأ ويعدونه بالمساعدة « بالروح والمال » . واستجاب محمد بن سبأ سريعا « فخرج مع الهمدانيين فتلقاه بلال قرب عدن وترجل بين يديه

وسار معه الى المنظر واقعده فيه ثم نزل وقعد للناس واستحلف له
الناس جميعا » • وكانت الخطوة التالية اعداد جيش حوصرت به
الدملوة فاستسلم ^(١) من بها من هؤلاء الحكام الصغار والاصياء •

وهكذا استقرت الاوضاع وعادت دولة بني زريع الى قوة محافظة
على املاكها السابقة في عدن ولحج والدملوة اذ تولى محمد بن سبأ
« كل ما كان تحت طاعة ابيه من اهل السهل والجبل ^(٢) » بفضل جروء
الشيخ بلال بن جرير المحمدي في جمع امر الدولة في شخص محمد بن
سبأ بن ابي السعود الذي مالبت ان تقلد ايضا امر الدعوة للخليفة الحافظ
الفاطمي • فقد قدم من مصر القاضي الرشيد احمد بن الزبير بسجل
تقليد علي الأغر بن سبأ امر الدعوة ، فوجده قد مات • ولم يكن امام
القاضي الرشيد وهو السفير الفاطمي باليمن وبتشجيع من بلال سوى
اقرار الامر الواقع فقلد الدعوة اخاه محمد بن سبأ ولقبه « العظيم
المتوج المسكين » • كما فاز بلال بن جرير بلقب « الشيخ السعيد الموفق
السديد » •

وتوج الشيخ بلال بن جرير اعماله بمصاهرة • اذ زوج الداعي
محمد بن سبأ بابنته ، وحدد في جهازها اموالا جليلة • واقبل الشعراء
يمدحون في مثل هذه المناسبات فينالون الكسرم الزائد من الداعي
والشيخ ، فذاع صيتها في كل انحاء اليمن • ثم توفي الشيخ بلال

١ - المصادر السابقة •

٢ - المصادر السابقة •

ابن جرير عام ٥٤٥ هـ فاسند الداعي محمد بن سبأ اعماله في عدن الى
ابنه ياسر بن بلال الذي كان ايضا من الاجواد الامجاد (١) .

ويمثل عهدي الداعي محمد بن سبأ ثم ولسده الداعي عمران
٥٤٨ هـ - ٥٦٠ هـ (٢) ذروة ما بلغه بنو زريع من نفوذ وسلطان سياسي امتد
على جميع اليمن الاسفل . ففي هذا الوقت تحولت دولة الصليحيين الى
عدة جيوب اقطاعية بعد وفاة الحرة الملكة في ذي جيلسة في شعبان
٥٣٢ هـ وانتقل جميع ما كان بيدها من حصون وذخائر الى المنصور بن
المفضل بن ابي البركات . واستمر الصليحيون على الدعوة للامام
المستور الطيب بن الامر ، بينما بدا نجم الداعي محمد بن سبأ اكثر
اشراقا فهو يدعو للخليفة الفاطمي في القاهرة الحافظ ثم الظاهر فضلا عن
وحدة ملكه في الجنوب ، ثم صلاته الوديسة مع المنصور بن المفضل
فتفاوض معه للتنازل عما بيده من ملك الصليحيين ، وتسليم ٢٨ حصنا
ومدينة ومنها ذي جبلة مقابل مبلغ مائة الف دينار عام ٥٤٧ هـ وتقوقع
المنصور في حصنه صبر وتعز وقصد الداعي محمد الى المخلاف وتفقد
الحصون وسكن ذي جبلة . واقبل الشعراء يهتونه « وطاش فرحا بما
صار اليه وبسط يده بالعطايا (٣) وبالمثل كانت مكانة ونفوذ وكرم ابنه الداعي
عمران حين كان « المسافرين من اهل اليمن الى الديار المصرية يحكون
من مكارمه وشدة عزائمه ما يخجل الدهر اذا كاد والغيث اذا جاء (٤) » .

١ - المفيد : ١٩٠ ، قررة العيون : ٣١٠ .

٢ - اختلف المؤرخون في سنة وفاة الداعي بن سبأ . فذكرت لذلك

اعوام ٥٤٨ (المفيد : ١٩٥ ، ابن المجاور : ١٢٣/١ . وقررة العيون : ٣١٤)
او عام ٥٤٩ (المفيد : ١٩٥ ج ٢) او عام : ٥٥٠ (ابن سمرة : ١٦٨) .

٣ - المفيد : ١٩٣ ، نهجة الزمن : ٦١-٦٢ ، قررة العيون : ٣١٤ .

ابا مخرمة : ٢١٨/٢ .

٤ - المفيد : ١٩٦ .

وشاهدت عدن على هذا العهد عمراناً جديداً من نوعه ببناء الدور من الحجر والجص والخشب . وكان الحجر يجلب من أعمال أبين لأجل العمارة . وتبنى الدار مربعة من طبقتين : السفلى تستخدم مخازن ، والعليا مجالس (١) . كما بني صهريج ضخيم لحفظ مياه المطر وقت السيول صار مرفقا عاما . كما اقيم أول سور امتن من الحصن الأخضر الى جبل حقان (صيرة) فجاء ضعيفا وتهدم بفعل موج البحر فأدير سور ثان من القصب (٢) كان الغرض منه منع التهديم ، وكثر ورود الناس والتجار عدن من شتى الجهات والجنسيات باعتبارها المركز الرئيسي للتجارة بين الهند وشرق أفريقيا ومصر . تجمع بين أهل مصر والمغرب والفرس والحضارم والمقادشة والزيالغ والحبوش « وتسلوا فصاروا أصحاب خير ونعم » كما أثرى حكام عدن ثراء ملحوظا في اغداقهم الاموال او ما خلفوه من ثروات .

أما عن علاقات بني زريع مع جيرانها من الامارات باليمن مثل بني نجاح في زبيد ، وبني حاتم في صنعاء وبقايا قلاع الصليحيين مثل حصن قبطان ، فكانت طيبة . فلم نسمع عن مشاكل بينهم جميعا . بل ان علي بن مهدي وقف استعداداته لنزال حكام زبيد ذهب الى الداعي محمد بن سبا في ذي جنلة يطلب منه المساعدة ضدهم فلم يجبه الداعي (٣) فكانت علاقات حسن الجوار هي القائمة وتجري بين عون وزبيد المعاملات

١ - ابن الجاور : ١٢٦/١ : ١٣٧ ، مثل الدار التي سكنها الداعي محمد بن سبا بعدن فكانت عالية تضاء بالشموع ويبخر فيها العود : واستخدم اسفلها كمخازن (نفسه ١٢٧/١) .

٢ - ابن الجاور : ١٢٨\١ ، ابا مخرمة ١٤/١ .

٣ - المفيد : ٢٤٧ ، قررة العيون : ٣٦٢ .

والمراسلات التجارية • الى ان تبدلت القوى الحاكمة في زبيد من بني نجاح الى بني مهدي •

فان هذا الهدوء الذي دام ما يزيد عن عشرين عاما بات مهددا من شخصية علي بن مهدي الذي عصف بامارة بني نجاح واستولى على زبيد في رجب ٥٥٤ هـ ، وبدأ أولاده يشنون من تهامة حربا تخريبية توسعية على مدن وحصون اليمن الأسفل بغاراتهم الاولى على لحج والجند عام ٥٥٥ هـ ، ثم الاستيلاء على الجند عام ٥٥٨ هـ ثم هزيمة جيوش بني زريع أمام بني مهدي في موقعة الجواه ٥٥٩ هـ •

وبذلك شهد أواخر عهد الداعي عمران بن محمد بن سبأ ضعف سيادة بني زريع على ملكهم باليمن الاسفل ، كما لم يظهر من بني زريع بعد وفاة الداعي بعدن عام ٥٦٠ هـ شخصية قوية تخلفه لمواجهة أطماع بني مهدي ، اذ توفي عن أطفال ثلاثة هم : محمد وابي السعود ومنصور نقلوا الى حصن الدملة تحت كفالة جوهر المعظمي مولاه ونائبه في الدملة • وظل ياسر بن بلال بن جرير على نيابته في حكم عدن ، فكان أن تفوقت عدن والدملة فلم تفعل شيئا أو بالاحرى حكاهما ياسر وجوهر موالي بني زريع في مواجهة بني مهدي الذين استولوا حتى عام ٥٦٢ هـ على جميع مدن وحصون نجد اليمن الاسفل • وأزالوا ملك بني زريع وبقايا الصليحيين من تلك الجهات ، بل ان جوهر المعظمي اضطر الى مصالحة عبد النبي بن مهدي حفاظا على الدملة رغم مناعتها القوية •

وهكذا كان الانهيار السريع لملك بني زريع باليمن فاقصر على عدن والدملة ، على يد بني مهدي من زبيد والذين لم ولن تتوقف

عزيمتهم عن قتال مخالفينهم ، فهم يعتبرونهم أهل حرب يستبيحون دماءهم وأموالهم ، وهذا مذهب الخوارج عقيدتهم • فهم في عداة مذهبي مع بني زريع •

وجاء الهجوم الأخير على عدن التي تعرضت الى حصار جيوش عبد النبي بن مهدي • فالتجأ أحد بني زريع وهو حاتم بن علي الأغر بن سبأ الى صنعاء وزمار مستصرخا برجال اليمن • فأجابه السلطان علي بن حاتم أمير صنعاء وجاء بالجيوش المتحالفة من همدان وسنجاب وجنب أنزلت الهزيمة ببني مهدي في موقعة هائلة بذى المدينة — تعز — في ربيع الاول ٥٦٩ هـ كما هزمت قواتهم المحاصرة عدن • فأيدت قوات عبد النبي جميعها من اليمن الأسفل وسلم لبني الداعي عمران : عدن وهي بيد ياسر بن بلال ، والدملوة بيد جوهر المعظمي • أما بقية اليمن الجنوبي بمدنه وحصونه فكان امرها بيد قوى محلية غير سياسية • وبات أمر هذه الجهات في شتبه فراغ لم يدم طويلا •

فقد جاء اليمن جيش فاتح قادم من مصر بقيادة نوران شاه أخي صلاح الدين الايوبي عرضنا الى أسبابه السياسية والاقتصادية تفصيلا في السابق ^(١) فاستولى على زبيد في شوال ٥٦٩ هـ وأزال دولة بني مهدي ثم استعد لدخول نجد اليمني • ففي خلال عامين استولى نوران شاه على أمر اليمن من عدن جنوبا حتى صنعاء شمالا فضلا عن تهامة • فقد دخل نوران شاه حصن تعز والجند ثم عدن في ذي القعدة ٥٦٩ هـ ^(٢) • وقد قاتل ياسر بن بلال الجيش الايوبي خارج عدن فانهمز

١ — انظر مقال : « بنو مهدي في زبيد » للمؤلف بالعدد ٢٥ من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

٢ — قررة العيون : ٣٧٧ •

هو ومن معه ، وفوت نوران شاه الفرصة على المنهزمين بأن سبقهم السى دخول تعز وعدن ومنع جنده من نهب المدينة (١) ، أما ياسر بن بلال فإنه التجأ لدى جواهر المعظمي بالدملوة ثم قبض عليه بعد قليل عندما خرج يوما من الدملوة متنكرا يريد المدينة (٢) .

ومضى نوران شاه في فتوحاته عام ٥٧٠ هـ بأن نهض قاصدا مخلاف جعفر فأخذ حصن التعكر ثم سار الى نقيل سمارة الحدين اليمني الأسفل والاعلى وقصد دوران في يحصب العامر حين تقابل مع جموع مذحج بقيادة السلطان عبدالله بن يحيى الخبي فتقاتلا ثم اصطلحا . ثم توجه الى ذمار فاعترضته جنب فانهزمت والتجأت الى حصن هران . ثم سار الى صنعاء وعسكر عند الجيوب - شرق صنعاء تحت جبل نغم - ولم يكن بنو حاتم حكام صنعاء متواجدين بها انما كان السلطان علي بن حاتم متحصنا في براش واخوه بشر بن حاتم في غران . فكان أمر صنعاء بيد مشايخها ووجوه أهلها . فخرجوا يقدمون صنعاء مدينة مفتوحة للقائد الايوبي فملكها (٣) . وهكذا عاد نوران شاه من هذه الجولة الكبيرة الى زبيد وقد استولى على ملك واسع عريض .

ثم قام نوران شاه بجولة ثانية يكمل السيطرة على فتوحاته فاستولى على جميع حصون المعافر مثل صبر وذخر والسمدان وغيرها ولم يستعص عليه غير حصن الدملوة (٤) الذي سيأتي استسلامها من بعد .

١ - بهجة الزمن : ٧٦ .

٢ - قرّة العيون : ٣١٩-٣٢٠ .

٣ - نفس المصدر : ٣٧٧ - ٣٧٩ .

٤ - قرّة العيون : ٣٧٩ .

ذلك أن نوران شاه لم يكن راغبا في البقاء باليمن رغم ملكه في
 الواسع وماله الوفير ، ودارت المكاتبة بينه وبين أخيه صلاح الدين الذي
 أذن له أخيرا بالقفول من اليمن ^(١) وقبل عودة نوران شاه عام ٥٧١ هـ أمر
 بقتل من في أسره من حكام عدن وزيد السابقين، وعلى رأسهم عبد النبي
 ابن مهدي وأخوته ، وياسر بن بلال بن جرير وعبد الله مفتاح على
 باب الخان بزيد ، كما وزع حكم بلاد اليمن على كبار مساعديه وقواده .
 فجعل مبارك بن منفذ نائبا على زيد وتهامة ، وعثمان الزنجيلي على
 عدن ، وياقوت التعزي في التعكر وتعز وأعمالهما ^(٢) كما رتب الولاة
 في الحصون ^(٣) .

و
 ودب الخلاف بين هؤلاء النواب . فقدم اليمن عام ٥٧٧ هـ أخ ثان مولاهم
 لصلاح الدين هو سيف الاسلام طغتكين بن أيوب . ولن نعرض إلى
 سلطنة طغتكين إلا بقدر تتبع قضائه على بقايا بني زريع في حصني حب
 والدملوة ، وبقايا الصليحيين في حصن قيظان في مخلاف العود وذي رمن في
 رعين ما بين المعافر ويحصب العاوي ^(٤) مع طغتكين

و بدأ طغتكين بحصن حلب وبه زياد بن حاتم بن علي الاعز الزربعي، سيده وأ.
 إذ حاصره طغتكين حصارا طويلا امتد أكثر من عام واستصرخ زياد بن رفع الح
 حاتم الزربعي مثل أبيه بيني حاتم حكام صنعاء ، وأيضا بالسلطان عبدالله
 ابن يحيى والشيخ عمران بن زيد رؤساء حنب . غير انه لم يتم مثل ذلك وفعلا
 التحالف السابق ضد ابن مهدي بسبب تخاذل الرؤساء . فسقط الحصن ^(٥) تجهز هو

١ - نفس المصدر : ٣٨٠-٣٨١ ، ابن خلكان : وفیات الاعيان نفسه : ٣٠٦/١-٣٠٨ .
 ٢ - قرّة العيون : ٣٨٢-٣٨٣ .
 ٣ - نفس المصدر : مهجة الزمن : ٧٦ .
 ٤ -

في يد طغتكين بن أيوب عام ٥٨٢ هـ وقضى على جميع من فيه من بني زريع (١) .

وفي عام ٥٨٤ هـ تسلم طغتكين حصن قيظان من أسعد بن علي بن عبدالله الصليحي بعد حصار تسعة أشهر بوساطة السلطان بشير بن حاتم أمير صنعاء - وكان قد وصل الى طغتكين يعلن ولاءه فلقي اكرامه (٢) - بشرط خروجهم سالمين الى صنعاء ، وتبادل طغتكين الايوبي وأسعد الصليحي الرهائن ضمانا لتنفيذ الاتفاق (٣) .

وكان الدملة هو الحصن المنيع الاخير لبني زريع . وهو في يد مولاهم جوهر المعظمي كليل أولاد الداعي عمران كما أسلفنا . فتعرض لحصار شديد من جانب طغتكين عام ٥٨٤ هـ عازما على فتحه . فكان أن دبر جوهر المعظمي أمره مع الفاتح الايوبي أوفق تدبير لضمان سلامته ومن في كفالته من بني زريع . فقد عرض جوهر المعظمي اتفاقا (٤) بصلح مع طغتكين بتسليم الدملة مقابل عشرة آلاف دينار ملكية . وكان شرطه « أن لا يطلع اليه نائب ولا ينزل هو من الحصن حتى يكون عيال سيده وأموالهم قد ركبوا البحر من أي موضع شاؤوا » فوافق طغتكين ورفع الحصار .

وفعلا قبض جوهر المعظمي الثمن ، ثم جهز أولاد سيدة بنين وبنات وتجهز هو في زي امرأة وخرج معهم من الدملة بالاموال قاصدين

-
- ١ - قرّة العيون : ٣٨٨ ، ٣٨٩ قدر عدد من قتل ب . ٥٥٠ رجلا (نفسه : ج ١) .
- ٢ - قرّة العيون : ٣٩٢ .
- ٤ - نفس المصدر : ٣٩٠ .
- قرّة العيون : ٣٩٠-٣٩٢ .

ساحل المخا وابتحروا جميعا الى جهة الحبشة • وفي نفس الوقت فانه
أوهم طغتكين أنهم لا يزالون بالحصن بحيلة ذكية فقد ترك لدى كاتبه
بالدملوة أوراقا كثيرة بالارزاق كانت تصدر بتوقيعه حتى اذا بلغ مأمنه
أوفد مبعوثا برسالة الى طغتكين مرفقا بها امرا الى كاتبه بتسليم الحصن
الى الفاتح الايوبي • فسأل طغتكين المبعوث مندهشا : أليس جوهر في
الدملوة • فأجابه بأنه أول من نزل من الحصن •

وكان طبيعيا أن يتعجب سيف الاسلام طغتكين من مهارة وذكاء
جوهر المعظمي واعتبر أمره منتهيا • وتقدم لاستلام الدملوة ، ففوجيء
بموقف آخر من النائب في الحصن اذ رفض التسليم ، يدبر امر نفسه ،
مستفيدا من مناعة الحصن وأهميته بالنسبة للسيادة الايوبية • فكان
رد الفعل هذه المرة شديدا على طغتكين فعاود حصار الحصن • ثم دارت
المفاوضات بوساطة أمير صنعاء بشر بن حاتم أيضا ودفع طغتكين عشرة
آلاف دينار ملكية أخرى الى ذلك الكاتب ، مع ضمان خروجه وأولاده
وأموالهم سالمين الى صنعاء • وهكذا دفع طغتكين عشرين ألف دينار
ثمنا لفتح الدملوة ذلك الحصن المنيع صلحا وبدون قتال عام ٥٨٤ هـ •

وبذلك انتهى امر بقايا الصليبيين وبني زريع ، وانتهى أيضا النفوذ
الفاطمي من بلاد اليمن على يد الايوبيين • وبدأ عصر جديد في تاريخ
اليمن •

النشاطات التي يعتزم الاتحاد القيام بها

- ١ - اقامة مهرجانات في جميع انحاء الوطن العربي للاحتفال بحلول القرن الخامس عشر الهجري لمدة اسبوع من ٢٧ - ١٢ - ١٣٩٩ ولغاية ٤ - ١ - ١٤٠٠ هـ .
- ٢ - نشر دراسات تاريخية في مواضيع مختلفة .
- ٣ - العمل على تنفيذ مشروع تبادل الاساتذة الزائرين بين جامعات الدول العربية .
- ٤ - اقامة مواسم ثقافية في الحواضر العربية للعمل على تطوير الدراسات التاريخية .
- ٥ - تطوير مجلة المؤرخ العربي التي تصدرها الامانة العامة للاتحاد وجعلها اكثر ملاءمة مع تطوير الدراسات والمفاهيم العلمية .
- ٦ - اقامة ندوة عالمية في تونس لمناقشة موضوع البحث التاريخي وتحديد المنهجية التاريخية للباحث العربي .
- ٧ - العمل مستمر في الاعداد والتهيئة لمهرجان التراث العربي في الاندلس والذي سيقام في ٢١ - ٦ - ١٩٨١ .

٨ - تنفيذ مقررات مؤتمر تاريخ الامة الذي انعقد في بنغازي وبخاصته
موضوع كتابة تاريخ الامة العربية .

٩ - السعي الى ايفاد بعض الاساتذة المتخصصين في الحضارة العربية
والاسلامية لالقاء محاضرات في التراث العربي والاسلامي في
الجامعات الاجنبية ، لابراز الجوانب المشرقة لتاريخنا الحضاري
وتراثنا الخالد .

١٠ - اقامة مهرجان للشهيد عمر المختار في مدينة بنغازي في ١٠-١١-
١٩٧٩ بالتعاون مع جامعة قار يونس .

١١ - دراسة امكانية توحيد مناهج تدريس التاريخ في الجامعات
العربية كافة .

١٢ - اقامة مؤتمر (التراث القومي) في دولة قطر وقد وافقت وزارة
الاعلام في دولة قطر على عقد المؤتمر على نفقتها بالتعاون مع
اتحاد المؤرخين العرب .

١٣ - اقامة ندوة عالمية لاهياء مدينة القيروان التاريخية .

١٤ - اقامة مهرجان في التراث العربي في مدينة الحمامات بالجمهورية
التونسية .

١٥ - تنظيم مسابقة كبرى لكتابة احسن ثلاثة بحوث في التراث العربي
احياء للتراث وتشجيعا للاخوة المؤرخين والباحثين العرب .

١٦ - السعي الى تنظيم لقاء سنوي للمؤرخين العرب في احدى الحواضر
العربية هدفه لقاء الاخوة المؤرخين وتعاونهم والوقوف على احدث
البحوث والنشريات في حقل التاريخ والاستماع الى بعض
المحاضرات العلمية بالاضافة الى البرامج الترفيهية وسيكون موعد

هذا اللقاء في الاسبوع الثاني من شهر تموز (يوليو) من كل عام .

١٧ - عقد مؤتمر تذكاري للرحالة العربي ابن بطوطة يقام في المغرب بالتعاون مع الحكومة المغربية .

١٨ - اقامة ندوة تاريخية في مدينة الاسكندرية تخليدا للمؤرخ المصري الاستاذ عبد الحميد العبادي بالتعاون مع جامعة الاسكندرية .

١٩ - تنظيم مؤتمر يبحث في الحضارة العربية والاسلامية في سلطنة عمان بالتعاون مع وزارة التراث القومي هناك .



كتب قامت بنشرها الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب

١ - ديوان جواهر السلوك في مديح الملوك ، للشاعر العماني هلا بن سعيد
ابن عرابة العماني .

يعتبر هذا الديوان من مظاهر التراث الفخمة التي يتحلى بها
الأدب العماني ، وقد طلبت وزارة التراث القومي في سلطنة عمان
من الامانة العامة للاتحاد الاسهام بتعريف تراث عمان والعمل على
نشر هذا الديوان .

وقامت الامانة العامة بتحقيق الديوان ، حيث كلفت الاستاذ
الدكتور داود سلوم بتلك المهمة فقام سيادته مشكورا بعمله
خير قيام وخرج الديوان تحفة رائعة من روائع التراث .

وقد تفضلت ادارة الثقافة والفنون بوزارة الاعلام في دولة قطر
تحمل نفقات طبعه ، اسهاما منها في نشر التراث العربي وتعضيدا
لجهود اتحاد المؤرخين العرب الذي يعمل جاهدا من اجل احياء
كتب التراث والعمل على نشرها والحفاظ عليها .

٢ - الحركة الصهيونية في تونس في الفترة بين ١٩١١ - ١٩٢٧ .

كتب الاستاذ الهادي التيمومي استاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب في الجامعة التونسية ، هذا البحث القيم الذي تقص تطور الحركة الصهيونية في القطر التونسي بين سنتي ١٩١١ - ١٩٢٧ ، وابرز دور المنظمات الصهيونية ونشاطاتها في تونس واثرها في الحركة الصهيونية العالمية .

ان البحث الذي قامت الامانة العامة بنشره وثيقة تاريخية مهمة تكشف الاتجاهات الصهيونية واهدافها الاستعمارية للمنطقة العربية .

٣ - مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني

بكل اعتزاز ينشر اتحاد المؤرخين العرب الدراسة العلمية التي قدمها الدكتور فاروق عمر فوزي والموسومة مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العماني ، والتي بين فيها اهمية عمان كما تناول ملامح من تاريخ هذه المنطقة المهمة من وطننا العربي .

وتقص الدكتور فوزي كتب السير العمانية وكتب الانساب وكتب التراجم والسير كما تناول كتب التاريخ الحولي المحلي ، واتبع دراسة باربعة ملاحق لها صلة بذات الموضوع .

ان قيمة هذه الدراسة مهمة لكل باحث يريد معرفة تاريخ عمان والمناطق المحيطة بها ، وقد اضفت هذه الدراسة ايضا معلومات قيمة عن تاريخ هذا الجزء من الوطن العربي للمكتبة العربية .

flew the Ahrâr over the Yemen, told me that he did not know that the Ahrâr were going to throw down leaflets.

30. **Ibid.**
31. **The Times**, London, Feb., 1948; E. Marco, **Yemen and the Western World** (London, 1968), p. 82.
32. A Brotherhood's paper, later, disclosed that the delegation carried the following proposals to the new government: the abdication of al-Wazir in favour of Amir Ahmad, the establishment of **majlis shurâ** presided over by al-Wazir and the adoption of a completely Islamic system of government. **Al-Mabâhith al-Qadâ'iyyah**, Cairo, 12 Dec., 1950.
33. M.M. al-Zubayri, **Ma'sât Wâq al-Wâq**, (Cairo, 1960), p. 296.
34. **SaWt al-Yaman** gave the figures of 1,745 hostages and 3,343 prisoners released.
35. The **zakât**, paid by the Zaydi tribes of the north, was based on self-assessment (**amânah**) which made it far less than the amount demanded, according to official estimates, from the Shâfi'i peasants.
36. Al-Shammahi, p. 237.
37. **Majalat al-Ikhwân**, Cairo. 28 Feb., 1948.
38. A. Hamzah, **Laylatân fi l-Yaman** (Cairo, 1948), pp. 15, 70, 71.

the Yemeni representative to the Arab League. **Al-Salam**, Cardiff, 14 Jan., 1951. **Al-Salam** was a weekly paper edited by 'Abd Allah al-Hakimi, after the failure of the 1948 revolt, in order to further the cause of the AhrKr.

24. When Amin al-Rayhâni visited the Yemen in 1922, 'Abd Allah al-Wazir, then governor of Dhamâr, told him that «our country, by the grace of the Imam, is a country of rightness, justice, religion, truthfulness and loyalty. The ideal and just rule is in Yemen where there is no wine, practice of fornication, murder, theft etc. This is because we are preserving our religion and following the Book of God». Al-Rayhani, **Muluk al-Arab** (Beirut, 1924), Vol. I, p. 100.
25. 'Abd Allah al-Shammâhi, **al-Yaman : al-Insân wa l-Hadârah** (Ta'izz, 1972), pp. 201-204; H. St. J. B. Philby, **Arabian Jubilee** (London, 1954), p. 190.
26. The Brotherhood's paper, **al-Ikhwân al-Muslimun**, also published the 'news' and gave an accurate account of the members of the would-be government. **Al-Ikhwân**, Cairo, 16 Jan., 1948. In a later issue, the paper published a message written by al-Banna, on 31 October 1947, to Sayf al-Islâm Ahmad, calling him to work with the Ahrâr for the development of the Yemen. **Al-Ikhwân**, 18 Feb., 1948. It is a mystery how the agreed telegram, carrying the 'news', was sent to Aden. According to al-Shammâhi, it was a trick by Amir Ahmad who had his spies among the Ahrâr, and wanted to uncover their plot.
27. Ah. H. Sharaf al-Din, **al-Yaman 'Abr al-Târikh** (Cairo, 1964), p. 320.
28. Al-Wâsi'i, in a supplementary to his **Târikh al-Yaman** (Cairo, 1947), gave the official account of the coup as published in **al-Iymân**, the Yemeni government paper.
29. **Al-Ahram**, 1st March, 1948. B.W. Seager, the British officer who

12. **Al-Yaman al-Manhubah al-Mankubah** (Aden, 1947), p. 9. In its attack on the Imamate, the book, which was written by al-Zubayri, bears resemblance of the criticism, rendered by Ali 'Abd al-RKziq in his **al-Islâm wa Usul al-Hukm**, against the Caliphate.
13. **Ibid.**, pp. 2-4, 55.
14. Imirs 'Abd Allah and al-Husayn were named by **Sawt al-Yaman** as having spent 'several million' riyals on their journeys abroad.
15. Many verses from the Qur'ân and Traditions of the Prophet were quoted to justify the rejection of oppression and injustice. Examples from the Orthodox Caliphs, especially 'Ali b. Abi Tâlib, and precedents of early Zaydi Imams were cited to prove the legitimacy of the Ahrâr's case.
16. **Sawt**, 31 Oct. 1946 & 25 June, 1947.
17. **Ibid.**, 27 Dec., 1947.
18. **Ibid.**, 11 Sept., 1947.
19. **Ibid.**, 31 Oct., 46.
20. **Ibid.**, 27 Nov., 47.
21. Both papers were owned by 'Abd al-Ghani al-Rafi'i, a Syrian who was born and brought up in the Yemen. His grandfather was the Chief Qadi of Yemen during the Ottomans. Ahmad al-Hawrash, Muhammad Salih al-Masmari and Muhi l-Din al-'Ansi were regular writers in the two papers.
22. M. A. al-Shahâri, **al-Yaman: al-Thawra hfi al-Janub wa- l-Inti Kasah fi al-Shimâl** (Beirut, 1970), p. 67.
23. Al-Wartalâni explained, later, that his visit to the Yemen was taken at the invitation of Imam Yahyâ, which was conveyed to him by

3. During the war the Shâfi'is of Tihamah welcomed the Saudi army while the Zaydi tribes, under the commandship of Sayf al-Islâm Ahmad, put up a strong resistance. As a result, some Sayyids and ulema urged Imam Yahyâ to rely more upon the Zaydis and to strengthen further the Zaydi doctrine.
4. **'Sayf al-Islâm** was the official title of the Imam's sons. It had been in use in Yemen since the Ayyubids' rule 569-626 / 1173-1228.
5. **Al-Hikmah al-Yamâniyyah** (San'â', Dhu 'l-Qa'dah 1357 / Jan. 1939), pp. 5-10, 33. The magazine shows the influence of famous writers like Muhammad 'Abduh, Jamâl al-Din al-Afghani, Abd al-Rahman al-Kawakibi and Shakib Arslan on the Ahrâr.
6. Al-Zubayri, between 1938 and 1941, was a student of Dar al-'Ulum in Cairo; his friend Ahmad Nu'mân joined al-Azhar during the same period; al-Marwani, al-Hawrash and al-'Ansi studied in Baghdad. In Cairo, al-Zubayri started his political career by establishing a Yemeni society, **Jam'iyat al-Amr bi-l-Ma'ruf wa-l-Nahy 'an al-Munkar**, whose manifesto reflected the influence of the Muslim Brotherhood.
7. M.M. al-Zubayri, **Thawrat al-Shi'r**, (Cairo, 1962), pp. 28-29, 33.
8. B. Reilly, **Aden and the Yemen** (London, 1960), p. 23.
9. G. Heyworth-Dunne, **Al-Yemen** (Cairo, 1952), p. 38. **Sawt al-Yaman** appeared in October 1946 and continued its publication till February 1948.
10. **Sawt**, 19 Dec., 1946.
11. No formal designation of Ahmad ever took place. In fact, Imam Yahyâ never addressed his elder son as a crown prince. However, he was deeply satisfied that people treated Ahmad as the heir-apparent.

who contacted him, informing him about the tragic murder of his father and asking him to forget about their old dispute and to join hands with him against the rebellion which threatened all monarchies in the area. King 'Abd al-'Aziz, infuriated by the assassination of Imam Yahyâ whom he admired, instructed his governor of Jizan, near the Yemeni borders, to grant Ahmad any help he required. He dismissed al-Wazir's delegation as 'murderers' and delayed the commission of the Arab League from leaving for San'â', giving Ahmad the time he needed to capture the capital.

By the end of the first week in March the northern Zaydi tribes, led by Sayyid 'Ali Hamud and Sayf al-Islâm al-'Abbâs, besieged San'â' from all sides. Many soldiers and San'ânîs defected to the royalist army. Although they realized how desperate their situation was, the young revolutionaries offered a gallant resistance. On the 13th of March 1948, the many thousands of Ahmad's troops invaded the capital marking the end of the Ahrâr revolt. Scores of the Ahrâr were taken in chains to the notorious prisons of *al-Nâfi'* and *al-Qâhirah* in Hajjah. About forty leaders of the revolt were summarily executed. For a whole week San'â', the jewel of Yemen, was plundered and looted by wild tribesmen as never before in recent history. A new slogan was chanted in the streets: «Down with the constitution, long live Imam Ahmad».

1. According to the Zaydi doctrine, which is moderate Shi'i **Madhhab**, the Imamate is confined to the Fatimids who possess qualifications such as being pious, courageous, well versed in the Shari'ah etc. The Imamate does not pass automatically from father to son; it has to be conferred by the electorate of Sayyids, ulema and tribal shaykhs.
2. Imam Yahyâ addressed this to Nazih al-'Azîm who visited the Yemen in the late twenties. Al-'Azîm, **Rihlah fi Bilâd al-'Arabiyyah al-Sa'idah** (Cairo, 1937), p. 184.

powerful personality and submissively carried out his orders. After taking over San'â', Imam al-wazir sent a polite telegram to Ahmad, at Bajil near Hudaydah, in which he asked him to follow the rest of the people's and pay him homage. In reply, Ahmad immediately declared his Imamate, assumed the title of al-Nâsir and sent a strongly-worded message threatening al-Wazir of a disastrous end. When reaching Hajjah three days after the coup, Ahmad showed no sign of weakness to the tribes which wanted to bargain with him for their support. Nevertheless, he promised to allow them to loot San'â' as a punishment for its betrayal. For the eager tribesmen this was a long-awaited opportunity to settle their old scores with the town-dwellers.

In contrast to Ahmad's vigorous activities, the Ahrâr relaxed after their initial success in San'â', receiving felicitations, greeting visitors and journalists from the Arab capitals. More serious, however, was the dissention and suspicion that crept in among the Ahrâr. Nu'mân was of the opinion that some of them should stay in Ta'izz to guarantee safe territory for the revolution among the supporting Shâfi's; a view which was strongly criticized by al-Zubayri as a separatist action. Nu'mân and his Shâfi' colleagues among the Ahrâr were not satisfied with their share in the government. On the other hand, al-Wazir's suspicion of the Ahrâr prevented him from leaving San'â' and fighting Ahmad before the latter reached Hajjah as they had previously planned. The Ahrâr Government naively sufficed itself with despatching cables to the Arab League asking it to visit urgently the Yemen, and to King 'Abd al-'Aziz requesting him to send fighting planes and tanks! In preparation for the proposed visit of the Arab League, the government wasted a precious time in training young Yemenis to sing the anthem of the Arab League, in making new furniture befitting the expected honourable guests and in ordering a long list of spoons, forks, plates and food from Aden. (38)

A delegation from al-Zubayri, al-wartalâni and a nephew of al-Wazir was sent to king 'Abd al-'Aziz to secure his help. 'Abd al-'Aziz had already committed himself to the aid of Amir Ahmad

The impious assassination of the elderly Imam Yahyâ, hero of the struggle against the Turks, profoundly shocked the Yemenis, even those who disliked his rule. Tribesmen, such as those of Arhab, who pledged their support to al-Wazir refused to do so when they heard of the tragic death of Yahyâ. Because of the assassination, a powerful ally of al-Wazir, 'Ali Hamud, the Governor of al-Tawilah and Kawkabân, changed sides to fight with Amir Ahmad. In the Yemeni context Ahmad could not have found a better cause for which to rally the tribes behind him. He exploited the murder by depicting it as a conspiracy intended to sell the Yemen to infidels and Christians who would wipe out Islam and would take away their women. (36) In the Arab world the news of the Imam's death turned the kings of Saudi Arabia, Jordan, Iraq and Egypt against the revolt. *Even the sympathetic Brotherhood criticized the murder and asked the new government to punish the culprits severely.* (37)

The army, which was predominantly tribal, did not support the revolt despite the involvement of some of its officers. At the beginning it stood neutral but eventually many of the troops hurried to join Amir Ahmad who had been for many years their commander-in-chief. In fact the Amirs 'Ali, al-Qâsim, Yahyâ and Ismâ'il, who were imprisoned in Ghamdân Palace, were joined by their very guards to begin the counter-coup against the Wazir Government. The long association of the army with the Hamid al-Din family in the battles against the Turks, in establishing law and order, in performing the unpopular task of collecting the *zakât* and in providing personal guards for the Imam and his sons made Amir Ahmad the obvious choice of the troops.

Indubitably, Amir Ahmad's strong personality, courage and his knowledge of how to deal with the tribes, had a decisive effect on the course of events. All through his journey to Hajjah Ahmad, far from giving the impression of a fleeing prince, made it clear that he was the ruler in command. Qâdi Husayn al-Halâli, the Governor of Hudaydan, who was in connivance with the Ahrâr to arrest Ahmad in his way to Hajjah, could not resist Ahmad's

It is doubtful if 'Abd Allah al-Wazir, who had worked for a long time within the Zaydi Imamate as an absolute system of government, ever intended to comply with the constitutional restraints set in the National Pact. In fact, after the initial success of the coup, he confided to his chief personal guard, Shaykh 'Aziz Ya'ani, that he would soon get rid of the Ahrâr. (33)

In order to create a favourable impression on the public and the outside world, the new government immediately released hostages and political prisoners kept in by the former Imam. (34) A programme, announced over San'â' Radio, promised the people that education throughout the country would be free; that substantial pay-increase would be given to soldiers, government officials, tribal shaykhs and village heads; that hospitals would be established to provide free medical care; that freedom of opinion, work and trade would be allowed, but members of the government and senior officials were to be prohibited from dealing in trade; and that the harsh and unjust system of collecting *zakât* would be abolished.

The Failure of the Revolt:

The history of the Zaydi Imamate in the Yemen shows that military support was essential in deciding the right of a claimant to rule. By lacking in this vital respect, 'Abd Allah al-Wazir was doomed to fail in his bid for power whatever other tactical errors he might have avoided. The educated young men, the ulema of San'â' and the army officers who supported al-Wazir constituted a fragile power-base. The fighting forces in the country were the warrior tribes of the north, mainly Hâshid and Bakil, and the army established by Imam Yahyâ. Al-Wazir and the Ahrâr won the support of neither force. The Hamid al-Din family, despite occasional clashes, fostered the support of the northern tribes through tax-relief and annual subsidies. (35) Furthermore, the new government associated itself with town dwellers whom tribesmen despise and envy for their relative comfort.

of development, especially in the fields of economy and education.

The pact asserted that the extreme deterioration of Yemeni conditions in religious life as well as in worldly affairs, was due to Imam Yahyâ's despotism and selfishness to the extent that the real purpose of the Imamate had been betrayed. It left behind only a deceptive facade which neither conformed with the Shari'ah nor helped to achieve the reform required by Islam. For this reason, the Pact went on, the 'representatives' of the Yemeni people met and discussed the setting up of a sound and legitimate system of government, and looked for those who could carry its responsibility in a way conducive to public welfare and in a manner compatible with religious obligations. Thus, *bayy'ah* was promised to 'Abd Allah al-Wazir as a «constitutional, consultative and legitimate Imam, as it is the case among civilized nations, without violating any Islamic principle». The first condition binding on the Imam was to follow, in word and deed, the Qur'ân, the Traditions of the Prophet and the practice of pious ancestors.

The pact subjected the powers of the Imam to the consent of a provisional consultative assembly (*majlis al-shurâ*) until a constituent assembly could draw up the permanent constitution of the country. The Majlis would be responsible for legislation, passing the budget and for approving foreign treaties. The Pact listed the would-be members of the Majlis as well as the agreed candidates to fill the posts of ministers, provincial governors and top civil servants. According to the Pact, the Imam should not dismiss a minister, a governor or a senior civil without the prior approval of the Majlis. Certain conditions were laid down if the proposed constituent assembly was to be formed through an election. The Pact specified that at least two-thirds of its members should come from the towns and that Yemeni emigrants abroad should be represented. The conditions reflect the progressive outlook of the Ahrâr movement and its fear of the majority conservative tribesmen in the country.

the only telegraph office, kept the news to himself and moved immediately, with loyal soldiers and copious funds, towards the stronghold town of Hajjah amidst the northern Zaydi tribes. The group commissioned to murder him in Ta'izz did not hear of the events ni San'â' until Ahmad was safely out of the town.

The Ahrâr of Aden left *en masse* for Ta'izz and San'â'. The British Administration assisted the Ahrâr by flying some of them over the Yemen and allowing them to throw down leaflets which called the people to stay quiet and give their allegiance to the new Imam. (29) It was clear that the Wazir Government was counting on the support of Britain. In its first cable to the Ahrâr in Aden, the government expressed its wish for «unlimited co-operation with Great Britain». (30) A British destroyer came from Aden to Hudaydah, in an obvious gesture of solidarity, carried out manoeuvres in the Red Sea and saluted the representative of the new government. (31) However, the British were to regret the passing of Imam Yahyâ when, later, Ahmad took a more militant attitude in the dispute over the borders.

A few days after the coup, a delegation from the Muslim Brotherhood, headed by their general secretary, 'Abd al-Hakim 'Abidin, visited San'â to congratulate the new Imam who promised them that he would abide literally by the agreed Sacred National Pact. (32) The visit was intended to give a needed moral support to the government and to inform the Brotherhood about the real situation in the country.

The Sacred National Pact :

The pact, which was written by al-Wartalâni, some months before the revolt, *summarized the ideas of the Ahrâr on reform. Not surprisingly, it contained a great deal of the Brotherhood's thoughts.* The pact made a strong commitment to the Shari'ah, gave the principle of *shurâ* a broad interpretation to include democratic restraints on the Imam's authority and pleaded the cause

He was also encouraged by the tense atmosphere created by the activities of the young Ahrâr who, beside the distribution of leaflets, planted some mines around the capital.

It appears that an assassination plan on Yahyâ's life was fixed for the 14th of January 1948 but was not carried out. The Ahrâr in Aden, who were prepared for the news, received the agreed telegram and immediately published the 'news' of Yahyâ's death and the formation of al-Wazir's government. (26) Imam Yahyâ asked al-Wazir for an explanation of the 'news'. Al-Wazir denied any part in the disclosed plans and issued a statement confirming the designation of Amir Ahmad as the successor to the Imamate. (27) Yahyâ made a show of satisfaction but went on collecting evidence against al-Wazir and sent for Ahmad to come to San'â'. It was strange that Ahmad, despite the disclosure of the plot and the invitation of his father, never attempted to go to San'â'.

On the 17th of February 1948 Imam Yahya, his chief aide 'Abd Allah al-'Amri, a grandson of Yahyâ and two companions were shot dead in their car outside San'â' by an assassination squad led by a tribal shaykh from Murâd, Sâlih 'Ali al-Qurda'i. As soon as 'Abd Allah al-Wazir received the news he moved in to seize the Imam's palace. He then gathered the ulema, army commanders and notables of San'â', informed them that Yahyâ had died suddenly of 'a heart attack' and asked them to recognize him as a 'constitutional' Imam. (28) The capital fell easily to Imam al-Wazir who assumed the title of *al-Hâdi*. Most of the people in the capital, especially the literary men and the young generation, welcomed the new regime. *A minor clash occurred in front of one of the palaces in which the Iraqi officer Jamal Jamil*, who supported the revolt, killed Amirs al-Husayn and al-Muhsin. The Ahrar paper in Aden rejoiced over the news, calling it the «greatest event in Arabia after the advent of Islam».

Crown Prince, Ahmad was cabled about the event on the same night of the assassination. In a clever move he closed down

time, he was suspicious of Amir Ahmad's Treaty of 1934. At the same time, he was suspicious of Amir Ahmad's intentions who denounced the treaty as a surrender to the Saudi aggression. 'Abd al-'Aziz promised his support on condition that nothing should be attempted during Imam Yahyâ's life. However, when he saw issues of *Sawt al-Yaman* in which there was an attack on Imam Yahyâ, on kings and despotism, he expressed to the messenger his anger that al-Wazir should have links with such 'a subversive voice'. (25) He immediately withdrew his promise of support. The Ahrâr in San'â' concealed this latter development from al-Wazir.

The Ahrar in Aden were heartened by the activities of their colleagues in San'â' and by the public stir caused by al-wartalâni. The alliance with al-Wazir family and other Sayyids came as a pleasant surprise to them. Praise for the Wazirs appeared in their paper in April and June 1947. These developments made the Ahrâr believe that their movement was on the verge of success. At one time they claimed that they commanded the support of 99 per cent of the Yemeni people. In May 1947, al-Zubayri wrote that the Ahrâr could topple down the Mutawakkilite Government in a few weeks.

The Revolt of 1948 :

By the end of 1947 the Ahrâr in San'â', led by Ahmad al-Mutâ' and Sayyid Husayn al-Kibsi, reached an agreement with 'Abd Allah al-Wazir on the members and basic principles of the government which was to seize power after the passing of Imam Yahyâ. The agreement was set up in a comprehensive constitutional document known as *al-Mithâq al-Watani al-Muqaddas* (the Sacred National Pact). It was formulated mainly by al-Fudayl al-Wartalâni. *Copies of the Pact were sent to the Ahrâr in Aden and to the Brotherhood in Egypt. At first 'Abd Allah al-Wazir was of the opinion that they should wait for the natural death of Imam Yahyâ before carrying out their plans. He changed his mind when realizing that Yahyâ began to suspect him and might strike first.*

rule of Sayf al-Islam al-Hasan, the Governor of Ibb. The *Jam'iyyah* sent its draft constitution to al-Zubayri in Aden when amended it, printed many copies and sent them back. Before the year was over members of the *Jam'iyyah* were imprisoned in Hajjah and Ta'izz.

Secret distribution of leaflets in the streets of the capital and big towns became more frequent. The government was annoyed by the activities and took strict measures against suspects. The government paper, *al-Iymân*, responded by vigorously attacking the leaders of the Ahrâr, questioning their integrity and aims and describing them as 'irresponsible laymen who were neither Sayyids nor ulema'. The increase in the Ahrâr activities and their apparent publicity success attracted a new group to their side, although for a different reason. Certain distinguished Sayyids, who were indignant that the Hamid al-Dins had monopolized all power and dreaded the prospect of Crown Prince Ahmâd succeeding his old father, allied themselves with the Ahrâr. The Wazir family was the most prominent to join ranks with the Ahrâr.

The Wazirs, who served Imam Yahyâ for over two decades, were more strict Zaydis than the Hamid al-Dins. (24) Since the designation, in 1937, of Amir Ahmad as the crown prince, the two senior members of the family, 'Abd Allah and 'Ali, made a secret pact with Amir al-Husayn to prevent this anti-Zaydi step being fulfilled. 'Ali had a personal grudge against Ahmad: as the latter unceremoniously dismissed him from the governorship of Ta'izz which he held for twenty years. 'Abd Allah was also removed from his governorship in Hudaydah.

By October 1946 the Wazirs and members of the Ahrâr in San'â', led by Ahmad al-Mutâ' and 'Abd al-Salâm Sabrah, began to draw plans for a joint action. They sent a messenger to King 'Abd al-'Aziz b. Sa'ud to find out if he would support 'Abd Allah al-wazir in ascending the throne instead of Crown Prince Ahmad. King 'Abd al-'Aziz had evolved a friendship with al-Wazir, with whom he negotiated the Yemeni-Saudi Treaty of 1934. At the same

ing his religious enthusiasm, Imam Yahyâ requested al-Wartalâni to write a report on how to develop the country's economy, which he did. The Ahrâr hailed the report, published it in their paper and asked for its implementation. Al-wartalâni soon despaired of Imam Yahyâ ever carrying out the necessary reforms and, thus moved over to the side of the Ahrâr. He played a unifying and a revolutionary role in bringing together the different groups opposing the Imam and in urging them to take a decisive action.

The Ahrâr in Aden, wanting to make full use of the Muslim Brotherhood's support, asked al-Banna to be their authorized spokesman before the Arab League and the Arab governments. Al-Banna accepted the proposal and wrote to 'Abd al-Rahman 'Azzam, the Secretary General of the Arab League, to facilitate his visiting the Yemen. It appears that the Ahrâr had a fanciful idea about the authority and power of the Arab League regarding it, more or less, as the overall government of the Arab states. They sent several memoranda to the organization complaining about the 'serious conditions in Yemen' and calling for it to intervene in order to put things right. They were also too innocent to comprehend that Arab rulers, no matter how strong they appreciated their reformative views, would act differently in the case of a revolt against a reigning monarch. In a sense, the Ahrâr fell victims of their own successful publicity campaign outside the Yemen which they mistook for more than it was worth.

Inside the Yemen the effects of the Ahrâr was less spectacular, nonetheless, significant, and in terms of real power it was equally delusive. The Ahrâr paper, *Sawt al-Yaman*, and the sympathetic *Fatât al-Jazirah*, *al-Sadâyah* and *al-Râbitah* were surreptitiously circulated among literary groups in San'â', Ta'izz, Ibb and Hudaydah agitating the feelings against the government. The members of the old *Hay'at al-Nidâl* in San'â' became active again and new clandestine groups emerged. The most important of them was *Jam'iyyat al-Amr bi-'l-Ma'ruf wa-'il-Nahy 'an al-Munkar*, established in 1944 by Qâdi Muhammad al-Akwa' and Qâdi 'Abd al-Rahmân al-Iryâni in Ibb. It was directed mainly against the rigid

world, burdened with historical deviations, oppressed by ages of despotism and repeatedly subjected to the deception of colonialism to the results of moral failings and outmoded superstitions, *would only be saved through a courageous march on the path of Muhammad.* (20)

The Effects of The Ahrâr

Organizing political opposition to the Imam's rule was in itself a significant achievement. The Ahrâr succeeded in attracting attention to the conditions of the Yemen. Many newspapers in the Arab world started to write about the Yemen, more or less supporting the Ahrâr's view on the need for change and reform. Most important among them were the Egyptian papers, *al-Sa-dâqah* and *al-Râbitah al-'Arabiyyah*, which defended the Ahrâr's cause and allowed Yemeni emigrants to write about their grievances. (21) Yemeni emigrants in East Africa, Europe and America supported the Ahrâr and made contributions to their finance. *A few political parties like the Young Egypt Party (Hizb Misr al-Fatât), and more important, the Muslim Brotherhood gave a public support to the movement. Imam Yahyâ was so concerned with his criticism in the Cairo press that he made a formal protest to the Egyptian Foreign Office.* Certainly, the Imam's suspicion of establishing close links with the Arab world did not help him to gain a favourable image in the Arab nationalist press.

Al-Zubayri and Nu'mân came in contact with members of the Muslim Brotherhood during their stay in Cairo in the late thirties. Their influence was clear in the manifesto written by al-Zubayri for the society he founded in 1941. (22) A closer relationship developed when an Algerian member of the Brotherhood, residing in Egypt, *al-Fudalyl al-Wartalani, came in March 1947 to the Yemen as a representative of a commercial company* (23). He caught the imagination of the young generation in San'a' and Ta'izz by his impressive religious speeches which called for the regeneration of the Muslim nation. Seeing his influence and trust-

its deep social causes. The Ahrâr thought themselves capable of modernizing their society by the virtue of their limited experience in the more advanced Arab countries. Their insistence on a 'constitutional consultative government' was meant to get educated men, like themselves, to share power with the Imam so as to bring about the necessary change. By accepting this principle, the Ahrâr claimed, the Imam would have taken the whole Yemeni people from misery to happiness in one day. (17)

It is interesting to note how the Ahrâr were influenced by Muslim activists like al-Afghani, 'Abd al-Rahman al-Kawakibi and the Muslim Brotherhood (al-Ikhwân al-Muslimun). It was manifested in their understanding of the role of Islam in society. «Islam is a struggle, a truthful saying, a continuous labour and a forceful faith which rings in the heart and runs into the blood... A man cannot be a soldier of Islam unless the Shari'ah dominates his mind and his heart transforming him into a block of dynamite.» (18) Islam was referred to as a spiritual force through which the educated youth should communicate their ideas to the public because of its effective impact on them. The struggle of the Palëstinians and the recent independence of Pakistan were pointed out as successful examples of the effect of religion on the public. The Ahrâr's paper advocated that Islam accept all the requisits of the modern age. An Azharite Yemeni, who was a regular contributor to the paper, called the Yemenis to wage jihad by building mosques, schools, hospitals, orphanages and by providing work for the unemployed. «If the Yemenis want strength, power and dignity», the papersaid, «they should have a strong, healthy and pure body of civilization that derives from Islam its rightly-guided spirit». (19)

When Hasan al-Bannâ, the leader of the Muslim Brotherhood in Egypt, was approached and accepted to take up the Ahrâr's cause before the Arab League, Sawt al-Yaman hailed the decision and ascribed to a view of Islam similar to that of the Brotherhood. It said that Islam is a complete way of life which could rid the whole human race of evil and darkness; that the Muslim

launched on the way the *zakât* was expended. Instead of collecting the *zakât* from the rich and distributing it to the poor, as Islam commands, the government did exactly the opposite. It was spent on members of the royal family, favoured Sayyids, or stored in the Imam's treasury.

The Ahrâr couched their criticism of the government in religious terms, accusing it of not applying the 'true' Islam. (15) They called their opposition to the government as a holy struggle (*jihâd*) waged in the name of Allah and His Messenger against those who toyed with His people and violated His Shari'ah. It originated from following the Prophet's teaching of 'enjoining good and forbidding evil'. They claimed that they had only asked the government for what the Qur'ân and the Sunnah demanded. The Ahrâr were at pains to defend themselves against the accusation, thrown at them by the official Yemeni paper '*al-lymân*', of breaking their pact of allegiance (*bay'ah*) to the Imam, selling themselves to the Christians (the British in Aden) and bearing hatred to the descendants of the Prophet just like apostates and infidels. These were grave charges in the Yemen and the failure of the Ahrâr to satisfactorily dispel them among the majority of illiterate tribesmen was fatal to their movement.

In the beginning, the Ahrâr conceived their role as that of a pressure group to bring about certain political and economical changes in the Yemen. They declared five conditions on the basis of which they would support the government of the Imam: the appointment of a ministry of able men; the setting up of a consultative body (*Majlis shurâ*) comprising ulema, notables and men of wisdom; the exclusion of the Imam's sons from administrative posts; the transfer of the country's treasury into the hands of the new ministry; and the introduction of experts from other Arab countries in fields where they might be needed. (16) The Ahrâr cherished a rather vague and simplified notion of reform and development. Like pioneers in many traditional societies, they were much concerned with the symbols of modernization, which their country lacked, rather than with

Yemenis behind the cause of reform. In the beginning they avoided a direct attack on the Imam, blaming his sons: Ahmad, al-Hasan, 'Abd Allah and al-Qâsim for misgovernment, as Yahyâ himself was too old to control the country's affairs. The Ahrâr resented the monopoly of power by Hamid al-Din's Family, considering it a violation of the principles of Islam which enjoin the rule of *shurâ* and reject despotism. The designation of Amir Ahmad as a crown prince was correctly criticized as a practice alien to the Zaydi doctrine. (11) In a rare attack, the Imamate itself was described as an obsolete and backward system which corrupted the teachings of religion. Other Arab and Muslim countries, the Ahrâr asserted, successfully followed modern and useful systems of government without abandoning Islam. (12)

The Ahrâr felt deep humiliation when comparing their country in aspects of education, health, transport, organization of government etc. with other Arab states. They held the Yemeni Government responsible for their backward conditions. In comparison they admitted that the Ottomans had done more to the development of Yemen than the Imamate and the Colony of Aden was better governed. (13) The conditions of the country were attributed to the rigidity of the system, which isolated the Yemen from the rest of the world, and to the miserly attitude of Imam Yahyâ in spending the wealth of the nation which he amassed in his hidden treasuries. The Ahrâr claimed that this wealth, denied to the welfare of the people, was lavishly spent by Yahyâ's sons on their journeys abroad. (14)

The injustice that accompanied the collection of *zakât* found wide publicity in the Ahrâr's literature. They criticized the extra levy (*dam*) put over the *zakât* and the unjust way of over evaluating the crop as against the Shari'ah. The soldiers and government officials, due to their inadequate pay in the Ahrâr's view, laid further burden on the peasants, especially the Shâfi'is, through bribery and abuse of power. Discrimination against Shâfi'is and Ismâ'ilis was publicized, but in moderate tones as the Ahrâr were keen not to appear as a sectarian group. An appealing attack was

rule of the Hamid al-Din family until the revolution of 1962. Al-Mushiki and al-Shâmi soon disagreed with them and, in early 1945, returned to Ta'izz. Being Hashimites themselves they, probably, feared that the movement would be anti-Sayyid.

An Aden paper, *Fatât al-Jazirah*, sponsored the cause of disenchanted liberals and published articles critical of the state of affairs in the Yemen. They received a sympathetic response from the many Yemeni immigrants working in Aden, especially from the Shâfi'is. (8) Following a protest from Imam Yahyâ, the British Administration in Aden stopped, for some time, the publication of such articles. However, in February 1945, al-Zubayri and Nu'mân resumed their political campaign under the association of '*Hizb al-Ahrâr al-Yamaniyyim*'. The Yemeni Government was so disturbed that Sayf al-Islâm Ahmad, in April 1946, visited Aden to persuade the Ahrâr to stop their propaganda against the government. Failing to do so, he attempted to counter their attack by telling the press that the Yemeni Government was about to introduce certain reforms concerning education and economic development.

Ironically, Ahmad's visit injected new impetus into the activities of the Ahrâr. Immediately after his departure, some wealthy Yemenis, most of them Shâfi'is, contributed 30,000 *riyâls* (about £ 7,000) for the purchase of a printing press to publish a weekly paper, *Sawt al-Yaman*, as the organ of the Ahrâr Party. (9) The Ahrâr morale was significantly boosted when, in November 1946, Sayf al-Islâm Ibrahim, renamed by the Ahrâr Sayf al-Haqq (the Sword of Truth) in order to distinguish him from the other princes, joined their ranks. (10) His support gave the party prestige and recognition and he was proclaimed leader of the Ahrâr.

The Ahrâr's Ideas On Reform :

Through their political activities, the Ahrâr aimed at exposing the backwardness of their country and the way it was misgoverned in order to win the sympathy of the Arab world and to rally the

a camel, will die as a martyr. You Yemeni people, your wealth, which is your right, is stored by the Imam while you are starving.» The Government arrested many suspects, among them : Qâdi Muhammad Mahmûd al-Zubayri, Muhammad Abu Tâlib, Ahmad al-Marwani, Ahmad al-Hawrash, Muhyi 'l-Din al-'Ansi and Muhammad al-Khâliidi. (6) Al Zubayri and Abû Tâlib used to give speeches in mosques which irritated the Imam with their critical overtones. They also wrote a memorandum to the Imam suggesting certain reforms. Yahyâ wanted to use the memorandum as a justification for taking a strong action against them; but he failed to obtain the approval of the ulema that the recommended reforms were a breach of the *Shari'ah*.

Crown Prince Ahmad governing, almost independently of his father, over the rich province of Ta'izz, began to attract the discontented liberals around him. He invited al-Zubayri, al-Mûshiki and Ahmad al-Shâmi to come and stay with him in Ta'izz. They were joined by Ahmad Mu'mân who had been a friend of al-Zubayri since they had studied together in Cairo. Unlike his father, Ahmad was a generous man of literary taste. He appreciated and rewarded the talents of those young men who, in turn, admired him and composed poems in his praise. They saw in his strong personality a hero who, on ascending the throne, would liberate the whole of Yemen (Aden from the British and 'Asir from the Saudis), eliminate corruption in government and would achieve the needed development. (7) The honeymoon, however, was short and Ahmad became suspicious of those restless liberals who spoke a 'dangerous' language which might alienate him from the bulk of his traditional supporters. Thus his attitude towards them changed and, at one time, he threatened to soak his sword in the blood of the 'modernists' who read the books of Taha Husayn, al-'Aqqâd, al-Râfi'i etc.. His wish was prophetically fulfilled a few years later. In a mood of despair, some of the liberals fled the country: in June 1944 al-Zubayri, Nu'mân, al-Shâmi and al-Mushiki left for Aden; al-'Ansi and al-Hawrash for Egypt. The first two were politically the most active and formed the acknowledged leadership of the Ahrâr movement which continued to oppose the

tenaciously faithful to their well-established values. The politically conscious among them began to advocate economic and political reforms, and return to the rule of *shûrâ* (consultation). This group constituted the nucleus of the Ahrâr movement.

In 1935 Sayyid Ahmad al-Mutâ'founded a loose circle '*Hay'at al-Nidâl*, (the Society for Struggle) which represented the earliest association of Ahrâr elements. Despite its high-sounding name, the objective of the Society was simply to counter the conservative Zaydi trend that appeared after the Saudi war demanding the tightening of the Zaydi doctrine. The Society supported the young liberal amirs: 'Abd Allah and al-Husayn. (3) However, the activities of al-Mutâ'led to his arrest and a few of his fellow-Ahrâr for a short time. It was the first political imprisonment ordered by Imam Yahyâ. In 1939, Sayf al-Islâm 'Abd Allah (4), in his capacity as a Minister of Education, established a monthly magazine *al-Hikmah al-Yamâniyyah* which, under its young earnest editor 'Abd al-Wahhab al-Warith, led the way to political and literary change. From the first issue, al-Warith started a series of articles under the title '*al-Islâh*' (the Reform), in which he stressed the need to regenerate the Muslim *ummah* on the basis of Islam that calls for real progress and useful civilization. (5) *Al-Hikmah* was soon stopped by the Imam whose aides went around circulating the accusation that al-warith and his friends, presumably because of their call for reform, wanted to suppress part of the Qur'ân. To the irritation and embarrassment of the Ahrâr the accusation found wide acceptance.

A significant act of clandestine opposition to the Imam occurred, in 1941, when some Yemeni students studying abroad had returned to the country. Leaflets were secretly distributed in the streets of San'â' and sent by post to senior government officials. Appearing at a time of famine and being written in a religious tone, the leaflet stirred public interest and annoyed the Imam. It urged the people to die, if necessary, in order to obtain their rights from the government. It told the Yemenis that the Prophet said: «he who dies defending his right even if it has been a rope of

After his long and successful struggle against the Turks, Imam Yahyâ extended his authority over the whole of Yemen with the exception of the Aden Protectorates. He built his army from the Zaydi tribes of Hâshid, Bakil and Khawlân, and depended in the administration of the country on *Sayyids* (Hâshimites) and the Zaydi qâdi class. Fearing that a Sayyid wielding too much power might threaten the rule of his family, Yahyâ gradually transferred senior posts of the government from former aides to his own sons. (1) Imam Yahyâ was highly suspicious of foreigners, especially Europeans, coming to the Yemen. The colonization of Arab countries by Britain and France and of Abyssinia by Italy was a lesson fresh in Yahyâ's mind. Thus, he jealously guarded the sovereignty of his country and its traditional religious way of life by isolating it from foreign influence. He refused to allow in the country diplomatic missions or western commercial companies or to encourage any form of contact with the outside world. He answered a critic, who pointed out the economic benefits that foreign firms would bring to the country, by saying that they did not help India to avert repeated famines; and that he and his people would rather eat straw than allow foreigners into the Yemen. (2) Imam Yahyâ, who never travelled outside Yemen, did not appreciate modern conveniences of life which were enjoyed by other Arab countries. But the Yemenies who visited those countries were impressed by them.

The Saudi war of 1934 which resulted in the defeat of Imam Yahyâ and his loss of 'Asir province triggered off the opposition to the Imamate. The early criticism of the state of affairs in the country took the indirect form of a new approach to literature. Young writers, who read Arabic books and magazines infiltrating through Aden and Mecca at the time of the pilgrimage, were impressed by their novel ideas and began to imitate them, breaking away from the traditional Yemeni forms of prose and poetry. In a derogatory sense those writers were called '*al-buzghah*' (the bud) and '*al-'asriyyin*' (the modernists); suggesting that they were of a fragile nature when compared with Yemenis who remained

The Free Yemeni Movement (1940-48)

And Its Ideas On Reform

By : Dr. al-Tayib Z. al-Abdin

Institute of African & Asian Studies

University of Khartoum

Emergence of the Movement :

North Yemen, which was the last country in the Muslim world to overthrow its traditional Imamate, had, in fact, seen the first coup to occur in the Arab world after the Second World War. It was engineered, in 1948, by the Free Yemeni Movement (*al-Ahrâr al-Yamaniyyûn*) which managed to seize power for twenty six days. The Zaydi Imamate had survived in the Yemen for eleven hundred years (A.D. 897-1962), mostly in the area north of San'â'. Traditionally the opposition to Zaydi Imams came from other claimants of the throne or from tribes revolting in order to assert their own independence. During his long reign (1904-48), Imam Yahyâ Hamid al-Din faced both types of opposition but the one which led to his assassination was of a different nature. Although it allied itself, at times, with aspirants to the Imamate and with some discontented tribal *shaykhs*, the Free Yemeni Movement remained basically a political opposition seeking certain social and political reforms. The movement began with young men who studied in Cairo or Baghdad or had some knowledge about the outside world. They resented the backwardness of their country, its isolation from the rest of the world and the autocratic rule of the Hamid al-Din family.

ب - المراجع العربية :

- ١ - انيس ، دكتور ابراهيم . من اسرار اللغة . الطبعة الثالثة . مكتبة الأنجلو - مصرية - القاهرة ١٩٦٦ .
- ٢ - وافي ، الدكتور علي عبد الواحد . فقه اللغة . الطبعة الخامسة . البيان العربي . القاهرة ١٩٦٢ .
- ٣ - الحماس ، الدكتور خليل ابراهيم « دراسة مقارنة للنواحي في كتاب العين والنظرية اللغوية الحديثة » مجلة السادس عشر ، ١٩٧٣ .
- ٤ - منتصر ، الدكتور عبدالحليم « خصائص اللغة العربية التعبير العلمي رسالة العلم . المجلد ٤١ . العدد ١٩٧٤ .
- ٥ - فريحة ، الدكتور انيس . نحو عربية ميسرة . دار البيان . بيروت ١٩٥٥ .
- ٦ - الصالح ، الدكتور صبحي . دراسات في فقه اللغة . الطبعة الثالثة . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٨ .
- ٧ - البياتي ، الدكتور عادل جاسم « الملاحم العربية بالملاحم الكونية » مجلة الكتاب ، العدد الرابع .
- ٨ - ابراهيم ، الدكتور محمد حسن « نشوء اللهجات » بحث مطبوع على على الآلة الكاتبة ، معد للنشر في العدد ٢٤ ، ايلول ١٩٧٤ .

7. Hall, Jr., R.A. «Pidgins and Creoles as Standard Languages», (1972). Cited in *Socio-Linguistics*, pp. 142-154.
8. Haugen, E. «Dialect, Language, Nation», (1966). Cited in *Socio-Linguistics*, pp. 97-111.
9. Hoijer, Harry. «The Relation of Language to Culture». Cited in *Anthropology Today : Selections*. Edited by Sol Tax. Phoenix Books. The University of Chicago Press, Chicago, 1963.
10. Labov, W. «The Study of Language in Its Social Context», (1970). Cited in *Socio-Linguistics*, pp. 180-202.
11. Pride, J.B. and Holmes, J. «Introduction» to *Socio-Linguistics*, pp. 7-11.

BIBLIOGRAPHY

English Sources

1. Andrzejewski, B.W. «Poetry in Somali Society», (1963) Cited in *Socio-linguistics*. Edited by J.B. Pride and Janet Holmes. Penguin, Aylesbury, Bucks, 1972. pp. 252-259.
2. Bright, w. and Ramanujan, A.K. (1964,) «Socio-linguistic Variation and Language Change». Cited in *Socio-Linguistics*, pp. 157-166.
3. Cazden, C.B. «The Situation: A Neglected Source of Social Class Differences in Language Use», (1970). Cited in *Socio-Linguistics*, pp. 294-313.
4. Corder, S. Pit. *Introducing Applied Linguistics*. Penguin Education, 1973.
5. Dil, Anwer S. «Towards a General Model of Language Policy Planning», *Anthropology and Language Science in Educational Development*, UNESCO, Educational Studies and Documents, No. 11, 1973.
6. Ferguson, C.A. «The Role of Arabic in Ethiopia, A Socio-Linguistic Perspective», (1970). Cited in *Socio-Linguistics*, pp. 112-124.

IV. *Summary and Conclusions*

Arabic receives a positive mark in each of the twelve criteria outlined above.

However, more effort is needed for the purpose of enriching the Arabic language in the following areas :

1. More flexibility and less rigidity in attitude towards new inescapable changes in the language are needed. Since Arabic has proved itself a language that is highly codified, the «intrusion» of few words will never endanger the language. In order to continue to be living, Arabic must be permitted to change and to accept what is new and what can be assimilated.
2. More unified effort is needed in the direction of standardizing modern technical and scientific terminology.
3. More work is needed in the direction of perfecting the Arabic writing system especially in standardizing the use of punctuation marks and in creating technical symbols and handy abbreviations. Arabic should benefit from other modern languages in this respect.
4. Deeper Analyses of the sound system of standard Arabic and studies on dialect variation are needed.
5. Contrastive analyses of Arabic and other living languages (though have started recently) need to be organized and systematically done.
6. Studies on word frequency and word counts for various purposes are lacking.
7. An intensive campaign on translating scientific texts and Arabizing technical terms is needed.

- e. A pidgimized form of Arabic (simplified in terms of structure and vocabulary) is being used by speakers of Turko in the area of Lake Chad and Central Africa. The Bum-bashi language is another example of pidgin Arabic.

11. Arabic is equipped with productive mechanisms that enable it to «generate» new terms in various means. Some of these mechanisms are the following :

- a. *Analogy.* A process by which a known form generates a completely new form in imitation of a pattern predominant in other forms. This process enriched Arabic with forms like - hattaab - (wood-cutter) taken from - hatab - (wood) in imitation to the pattern - fa (aal - . Similarly, forms like - haddad -, - baqqaal -, - hammal -, etc. (Anis, p. 16).
- b. *Derivation.* A process by which a noun is derived from verb and vice versa; an adjective from a noun and vice versa, etc.
- c. *Blending.* A process in which forms are reduced and fused together, e.g., - basmala - (said - bismillah -) - (abdali - (of the family of Abdulla), - mi (lawz - = - mi (mi (- + - lawz -, etc.
- c- *Creation.* A process by which a new term is created to fit a felt need such as -haatif- (telephone) - mi) yaa (- (radio), etc., Such terms receive little acceptance at the beginning, but gradually and through constant use by mass media they gain acceptance.

12. Arabic is a living language. It unifies the Arabs in its standard form and caters for their needs in the local dialects. A speaker of Arabic is distinguished from speakers of other language by the «character» of his language.

native speakers, including studies on the teaching of Arabic handwriting to the garden variety of citizens.

- g. Studies on word frequency and word counts.
- 9. For the last 1500 years Arabic remained one of the greatest languages of the world. The amount of literature written in it is gigantic. In poetry and other types of literature, Arabic is perhaps the richest language. In manuscripts, Arabic is one of the leading languages. Works of Ibn Rushd, Ibn Sina, Al-Farabi, Al-Khawarizmi, Al-Razi, Ibn Khaldoun and Al-Bayrouni are all in Arabic.

In modern times, Arabic is picking up the trail, but slowly. Baghdad, Cairo and Beirut are becoming important publication centres. Books and journals of all kinds are being issued by universities, specialized government organs and by various private and public organisations. Because the Arabs are divided into numerous states, modern Arabic publications remain limited in distribution. What is available in one country is hardly known in another.

10. Arabic is used outside the Arab homeland in the following areas :

- a. In world organizations, e.g., the UN and UNESCO.
- b. In mass media particularly by radio in almost every major broadcasting agency.
- c. In religious affairs all over the Moslem world.
- d. As a lingua franca in Ethiopia (Ferguson, p. 120) Kenya and Somalia. As a matter of fact, much of what is called modern Somali literature is written in Arabic (Andrzejewski, pp. 252-253).

- (8) In scientific methodology, he insisted on deriving rules and conclusions from available data, not on the basis of speculations *Al-Farahidi's* students such as *Sibawaih* carried over the ingenious observations he made on language. (Al-Hamash, p. 20).
- b. In semantics and rhetorics the prominent figures were *Al-Jahidh*, *Abi Ubaida*, *Ibn Al-Mutaz*, *Al-Mubarrid*, *Al-Askari* and *Al-Jurjani*. In vocabulary studies, word lists and dictionaries, masterpieces were produced. Some of these dictionaries are the following : *Al-Ain* by *Al-Farahidi*, *Al-Jamhara* by *Ibn Duraid*, *Al-Tahthib* by *Al-Azhari*, *Al-Muhiit* by *Ibn Abbad*, *Al-Sahaah* by *Al-Jawhari*, etc. There is no denying that modern times are witnessing a recess in scientific analyses of Arabic. Current studies are more or less re-statements of what was written about Arabic. Modern linguistic ideas have not been given adequate attention. The following areas need to be scientifically investigated in line with modern ideas in language studies :
- a. Analyses of the sound systems of Arabic dialects.
 - b. Modern dictionaries listing currently-used Arabic words and expressions.
 - c. Philological studies on Arabic loan words.
 - d. Dictionaries specializing in various branches of human knowledge.
 - e. Contrastive and comparative analyses setting Arabic against cognate semitic languages and other foreign languages.
 - f. Studies on learning and teaching Arabic to foreign and

- e. Arabic is rich in masterpieces in symbolic literature. *Kaliila wa dimna* and *alf Layla* are just two such masterpieces. The Quran itself is loaded with symbolic references.

Arabic, however, still needs more effort in the direction of popularizing abbreviated forms. It is very discouraging to hear Arabic speakers refer to OPEC either as - opek - when abbreviated or to that organization's full title. Arabic should benefit more from European languages but it should be enabled to have its own means of abbreviating lengthy terms or titles.

- 8. Old analyses of Arabic are really admirable in depth and coverage. The following areas were studied extensively:

- a. In linguistic and phonetic analysis the most prominent scholar was *Al-Khalil bin Ahmad Al-Farahidi* of the Basrah school of linguists. In his famous book *Al-Ain*, he made a number of contributions which are still valid in modern phonetics. Some of these contributions are the following :

- (1) The adoption of form, not meaning, as the subject-matter of language study.
- (2) The use of sound symbols to represent sounds.
- (3) The distinction between consonant sounds and vowel sounds.
- (4) The discovery of the role of stress in signalling different meanings.
- (5) The use of point of articulation (bilabial, labiodental) in the classification of consonants.
- (6) The use of the criterion of frequency in determining the relative value of utterances.
- (7) The use of opposition as a basis for distinguishing one phoneme from another.

other languages and has assimilated what it has borrowed. Before the advent of Islam, Arabic borrowed many religious and cultural terms; during the Abbasid period Greek and Latin gave Arabic many philosophic and scientific words and in modern times Arabic has taken extensively from European languages. Arabic has also taken from Turkish and Persian.

Borrowing is not limited to vocabulary. It includes some structural arrangements and styles of expression. However, the major contemporary problem that Arabic speakers are facing now is disorganized borrowing of modern technical and scientific terminology. Some Arab countries borrowed from French, others borrowed from English or German. What is urgently needed is unified effort towards organizing the process of Arabizing modern foreign technical terms. The organ of the Arab League stationed in Rabat seems to be registering some success in this direction.

7. Arabic is capable of symbolic expression like all other major languages of the world. The following are some instances :

- a. *Abbreviation.* In Classical Arabic - ?alla - means - ?an laa -. In Iraqi Arabic - lees - means - li ?ay - ay - and so on.
- b. *Abstraction.* In Classical Arabic - aql - means «mind» now. It was formerly used to refer to the rope that ties the camel's leg. Also, - majd - (glory) was used originally to refer to filling one's stomach.
- c. *Blending, i.e.,* assigning new meanings to fractions of words put together. - qarawuusti - is taken from - qu - ruun - (centuries) and - wusta - (middle).
- d. Arabic rhetorical studies are well-known for their wide coverage and accuracy.

From the previous table the following observations can be made :

- (1) English texts use more punctuation marks than what is found in Arabic texts.
- (2) English texts employ a wider variety of marks than those of Arabic texts.

A close examination of the two modern Arabic texts mentioned above has revealed the following :

- (1) Many punctuation marks are used for no particular reason. For example, a series of dots are often used. Also, quotation marks are used together with bold types or italics.
 - (2) The use of many marks lacks consistency. Some sentences are heavily punctuated, while it is often possible to find a whole paragraph with not a single punctuation mark used.
- d. Arabic writing is still in need of symbols such as the phonetic symbols. Also, Arabic writing needs to be enriched with symbols for measurements and weights as well as symbols for more than one hundred chemical elements (Muntasir, pp. 8-9).
5. On the whole, Arabic has given to other languages more than it received. Almost the whole of the cultural and religious vocabulary of Persian, Turkish, Urdu, Malay and of many African languages was taken over from Arabic practically with no changes. These languages also borrowed Arabic script and metric. Arabic has also given a considerable number of cultural and scientific terms to Spanish and Portuguese and thence to the other languages of Western Europe.
 6. Like all other living languages, Arabic has borrowed from

THE USE OF
PUNCTUATION MARKS IN
ARABIC AND ENGLISH

		Types of Marks used	Number of Marks used	Number of words
Arabic	Text 1	9	166	1789
	Text 2	11	241	2264
	Total		407	4053
English	Text 1	13	247	1810
	Text 2	14	282	2241
	Total		529	1051

4. Arabic has its own writing system. Thus it occupies the highest rungs of the ladder in this respect. The Arabic writing system is alphabetic consisting of 28 characters. Early Arabic inscriptions used Nabataean. Later, an inadequate form of Arabic writing evolved. When Quran was recorded, the need to distinguish one letter from another similar to it was felt. Dots were used above and below characters to enable writers to make finer distinctions. Later, short vowels and stress (emphasis) were indicated by diacritical marks in the first century of Hegra (wafi, p. 246).

The Arabic writing system also involves the use of ten numerals: 1-9 and the zero. In modern times punctuation marks have been added.

However, in spite of these achievements in the development of the Arabic writing system, some weaknesses can still be identified.

- a. Because the majority of Arabic words can be vocalized from the syntactic context the majority of written material is produced without any diacritics. This creates a pronunciation problem especially observed in writing foreign names (Wafi, p. 253).
- b. Arabic writing uses relatively large number of dots. English, for instance, uses only two dots while Arabic uses 22 dots. The frequent use of dots hinders the flow of handwriting and makes reading a problem especially in the early stages.
- c. The punctuation system in Arabic writing has not been formalized yet. No explicit rules have been set so far to control the use of punctuation marks. Many writers use these marks for purposes of ornamentation and other rather inconsistently. For purposes of contrast I counted the number and types of punctuation marks in two English and two Arabic texts. The results are presented in the following table :

- f. Basic background materials on sciences such as physics, mathematics, chemistry, etc.

Arabic is not yet widely used in the teaching of medical sciences, engineering and advanced pure sciences.

3. Arabic is definitely the richest semitic language in vocabulary. As a language it has risen from obscurity to full maturity without undergoing a period of infancy and puberty. Arabic vocabulary even as far back as the sixth and seventh centuries is abundant and adequate.

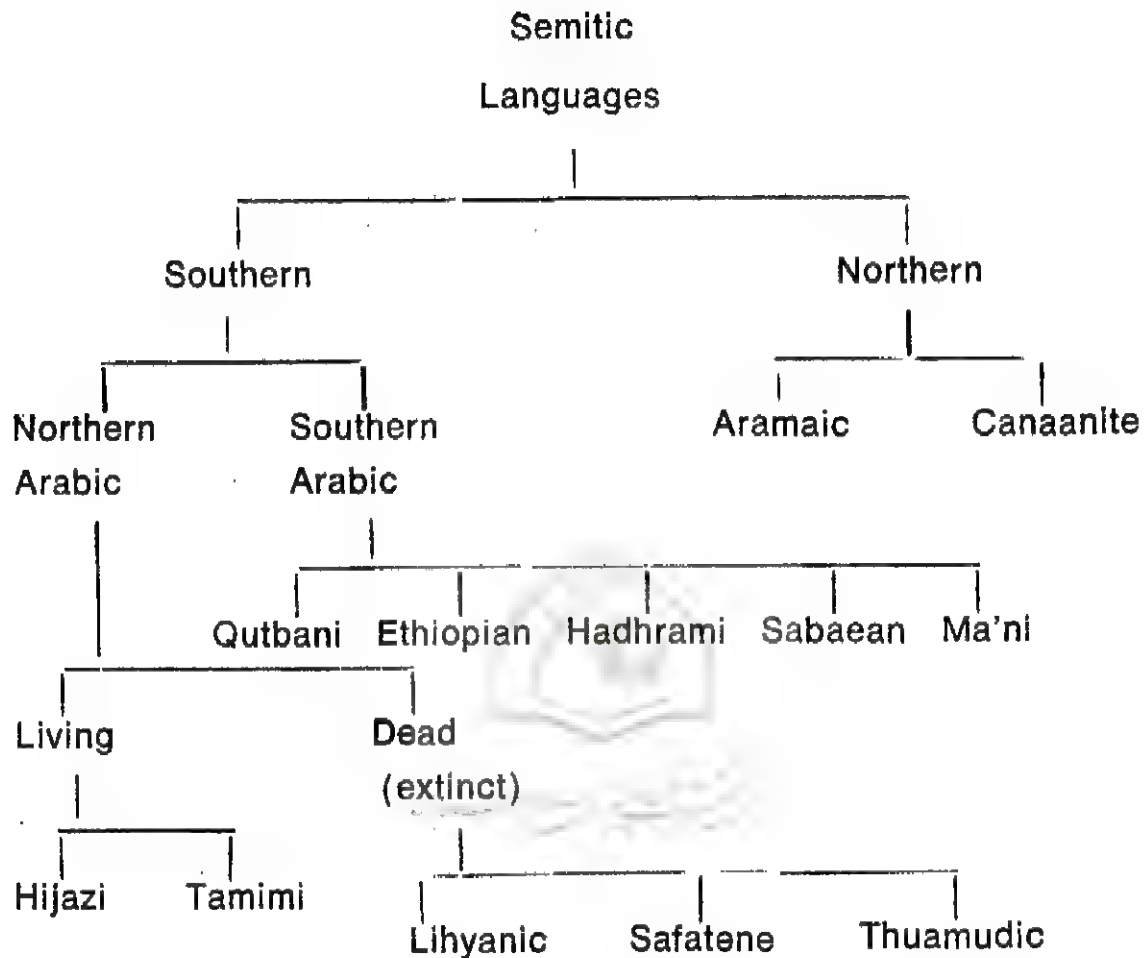
Arabic vocabulary is well-known for its 2-4 consonant roots and the internal vowel changes (infixes) that would yield a rich variety of words each expressing a different semantic and grammatical function. For example - qtl - as a root can yield - qatl - (killing) - qatil - (killer) - qitaal - (fighting), - qatala - (killed) - yaqtulu - (kills) - muqaatil - (fighter), - qatiil - (a person killed) - maqtuul - (killed, past participle) etc.

This flexibility of inflexion and derivation has guarded Arabic vocabulary from too much admixture. Foreign loan words have been taken and subjected in most cases to the morphological patterns of Arabic.

In pre-Islamic periods Arabic has borrowed many terms from other semitic languages. During the Abbasid period Arabic has borrowed extensively from Greek and Latin, but what has been borrowed has been assimilated into the vocabulary of the language. It has been subjected to the phonetic and morphological rules of the language.

In modern times, Arabic vocabulary has been enlarged in areas where Arabic has been used. What is still lacking is a unified terminology for some of the advanced levels of pure science, engineering and medicine.

out of danger of being washed away by any additions. Quran constitutes its solid undefiable basis.



2. It is true to say that Arabic can be what its speakers want it to be. It has been so far enabled to function as a means of communication in the following areas :
 - a. Business transactions and banking.
 - b. The courts of law and the most advanced legal studies.
 - c. Affairs related to government and administration.
 - d. Mass media of all types are effectively using Arabic.
 - e. Almost all fields of the humanities.

mation and borrowing. Other languages have other unique means of creation.

12. The efficiency of the language in representing the unity of the nation as well as catering for the diversified needs of the speakers. In this the language should be capable of providing means of communication in situations common to all speakers (standard language), everyday situations (spoken forms), situations varying according to geographical and social contexts (dialects). A dead language has one form; a living language has several forms.

III. *The Cultural weight of the Arabic Language*

In this section I shall state where the Arabic language stands in relation to the twelve criteria outlined above, then I shall summarize the findings into two types: points of strength and points of weakness. The latter constitute the recommendations for means of enriching Arabic if more cultural weight is to be given to it.

1. The Arabic language we use today was originally the *Hijazi* dialect as distinguished from *Tamimi*. Both belong to «living» Arabic as distinguished from «dead» forms of Arabic. In turn, it belongs to Northern Arabic as distinct from Southern Arabic. The two belong to the Southern branch of the Semitic family of languages (Al-Salih, p. 71).

After the advent of Islam the *Hijazi* dialect became the standard language for all the Arabs as well as for all Arab and Islamic states that followed. The chief stabilizing factor behind that was the Quran (The Holy Book).

All speakers of Arabic aspire to approximate the language of Quran. This contributes towards the codification of Arabic in its sound system and structure. Arabic is and will always be

8. The availability of accurate analyses of the language itself. Prominent languages of the world are more accurately analysed and in a greater variety of ways than obscure languages. Such analyses usually involve :
 - a. Phonetic and phonological analyses of the sound system of the language.
 - b. Comparative and contrastive analyses that show differences and similarities between the language and other languages.
 - c. Syntactic and morphological studies of the structure of the language.
 - d. Analyses of the writing system of the language.
 - e. Studies related to the teaching of the language to native as well as foreign speakers.
 - f. Stylistic and rhetorical studies of modes of expression.
9. The amount of literature written in the language including world masterpieces.
10. The extent to which the language is used by other nations especially in the following fields :
 - a. Business and commerce.
 - b. Science and technology.
 - c. In international mass media.
 - d. As a lingua franca.
 - e. In a pidginized form.
11. The degree of productivity of the language. Some languages have unique methods of producing new forms. English, for example, has reduplication, blending, back for-

They include :

1. words' referring to cultural items that are peculiar to the speakers of the language;
 2. general words with lexical function, whether such words are inherited or newly created.
4. Availability of an adequate writing system by which the language is represented. On the basis of this criterion languages vary from those that have no writing system whatsoever to those that have borrowed the language system of another language to those that have their own writing system.

In alphabetic languages the writing system usually comprises the alphabet, the numerals, punctuation marks and the special symbols used in various fields of life.

5. The amount of influence that the language has exerted on other languages in vocabulary, structures and writing.
6. The amount of benefit the language has acquired from other languages but still maintaining its independent identity. This includes what the language has been able to borrow and assimilate from other languages including what has been translated into it from other cultures (Muntasir, p. 5).
7. The degree of symbolic competence of the language. Since language is essentially a complex set of symbols, its unique function is symbolic reference to things, events and relationships. If the language is capable of performing that function in an economical way it acquires more weight. This demands the development of complex sub-systems of abbreviated symbols. It also depends upon the richness of its literature in symbolic and original ways of reference.

To discover a scale by which languages can be culturally «weighed» one has to examine the features of the prominent, living languages of the world and to note down the characteristics of those languages. By doing so I have developed a set of twelve criteria for this purpose. These criteria are continual rather than binary scales. Languages vary in the degree of availability of each feature quantitatively.

1. Codification, i.e., the degree of stability of the basic features of the language. By «basic features» we mean the sound system and the grammatical system. This demands the existence of a standard form respected and imitated by the majority of speakers and also the use of the standard form in writing (Bright and Ramunjan, p. 159).
2. Flexibility, i.e., readiness to change in response to the changing needs of the speakers. A balance should exist between feature: (1) and this feature. Too rigid codification results in stagnation, while too much response to change would lead to drift and may lead to the loss of the basic features of the language (Prise and Holmes, p. 8).
3. Abundance of vocabulary. This does not only mean the sheer number of words but the adequacy of the language vocabulary in terms of coverage. Although a language vocabulary is subsidiary to its structure, yet the stock of words of varying shades of meaning give the language flexibility of use. It is necessary here to distinguish between these types of words in any language :
 - a. Structure words — usually small in number but of high frequency. They include pronouns, helping verbs, articles, prepositions, conjunctions and the like.
 - b. Content words of words with dictionary meaning. They constitute the bulk of the language stock of words.

The behaviourist definition of «language» by itself is not fully adequate. Language behaviour is different from other types of behaviour such as walking. The latter does not involve a body of objective facts while language does. We often refer to this or that person's language as poor, polished, growing, etc., while walking is mere behaviour, i.e., it does not involve any objective fact outside it.

From a physical point of view, language is essentially a set of sound patterns to which the speakers have arbitrarily assigned meaning or reference on which they implicitly agree.

Language changes according to a number of matrices: historically over the passage of time, geographically from place to place, socially from one social class to another and individually from person to person at the same time, in the same locality and social class (Haugen, p. 90). Such variation results in dialects and idiolects.

In addition to the factors of variation, language also manifests a certain degree of unity in the form of a «standard language», which often represents the ideal form of a given language. The standard form ideally should manifest a minimum of variation and a maximum of variety of purpose (Haugen, p. 107).

II. *Elements of the Cultural Weight of Language.*

What makes a language more culturally advanced than another? It is true that any language acquires more importance if more people begin to use it? Yet this factor alone is not a decisive one. It is possible to find an «advanced» language spoken by a relatively small number of people. The reverse is also true. It is possible to find a language that is culturally behind in spite of the fact that it is used by hundreds of millions of people.

5. Language is a tool of communication. Like any tool when used in various fields it acquires sharpness and flexibility. Lack of use creates inadequacies.

Definitions

Three basic terms have occurred in the preliminary remarks: nation, culture and language. They need to be specified :

1. *Nation*. The term «nation» is one of the most difficult sociological terms. Different scholars adopt different definitions of «nation». Here I define «nation» from the language point of view. According to this view, nation is a group of people who consider themselves speakers of one language. In actual use the speakers may vary. Identity is neither necessary nor possible. What matters is the belief that the speakers hold among themselves that they use one language. Such a belief requires the acceptance of definite, and unified, linguistic norms which all speakers aspire to realize (Corder, p. 53).
2. *Culture* as a sociological term is often set in contrast to «civilization». «Culture» refers to the set of values accepted by the majority of the individuals of a nation. Such values can be inherited from the past and they can be created by contemporary circumstances. Such values lead to the adoption of certain modes of behaviour and explicit as well as implicit modes of living accepted by the members of the community (Hoijer, p. 26).
3. *Language* is a complex phenomenon. From a psychological point of view it is basically vocal behaviour that takes place as a response to certain stimuli. Since language involves communication among individuals, it is also some kind of social behaviour.

each solution a number of problems are encountered. However, when the nation already possesses a qualified well-developed language these problems are minimized.

What makes a language more adequate or more developed than another? Is Arabic a highly-developed language? Finding acceptable answers to these two questions is the major purpose of this paper.

Basic Assumptions

It is necessary to state at the outset a number of ideas that I assume to be widely accepted by modern scholars.

1. All living languages of the world have equal potential of competence. They are equally applicable to all fields of life.
2. It is not possible to classify languages on a binary scale into primitive and developed, adequate or inadequate, mature and immature, etc. The degree of adequacy of a language is decided by number of factors that ought to be identified and weighed.
3. The degree of adequacy is not decided solely by the sheer number of people using the language, but by a complex of features that it possesses.
4. It follows from (1) above that it is not right to blame the language for certain inadequacies in application to certain fields of life. It is the speakers of the language who are to blame for not exerting effort in the direction of enriching their language with a sufficient amount of flexibility acquired from applying the language in various fields of life.

1. Introduction

Purpose of the Paper

A number of factors contribute to the determination of the rate of progress that nations of this world undergo. Some of the factors are economic, some are geographic and climatic, and some are social. Language is an important social factor. Anthropologists unanimously agree on the fact that language is an essential part of any nation's culture. As cultures are various so are languages. Like culture, language is acquired through the learning of broad behavioural patterns on the basis of which detailed and minute events can be explained. Also, language and culture are subject to change as a result of the tremendous accumulation of experiences that the nation undergoes (Hoijer, p. 26).

In periods of accelerated cultural growth, a nation needs a language to facilitate the process of growth. When the nation already possesses a language that is highly developed then the process of change is facilitated in part at least. Cultural growth may be hindered if the nation is not in possession of such a language.

This need (among others) is acutely felt by developing or newly-developed nations. When no effective solutions are found, problems that may endanger the integration of the use a *lingua franca*, other nations shift completely or partially to the use of a foreign language and some nations revert to old forms of language that have little contact with the realities of the age. In



THE CULTURAL WEIGHT OF THE

ARABIC LANGUAGE



By

Khalil I. Al-Hamash, Ph.D.

- 12- Dr. Abdullah Youniss Al Shebl : General Guardian of Imam Mohammed Ben Saood Islamic University / Al Riyad.
- 13- Mr. Sabah Ghazal Rahim Al Samarraée : Secretary Technical Editor.
- 14- Mr. Ismaéel Al-Bayati : Secretary Administrative Editor.



Consultative Board

- 1- Dr. Hussein Amin : General guardian of Arab Historian Unity. Head of editing board.
- 2- Dr. Mukhtar Al-Abbadi : History Department / Alexandria.
- 3- Dr. Youssef Fadhl : Director of African Studies Institution. / Khartoum.
- 4- Dr. Abdul-Amir Mohammed Amin : History Department. / Baghdad.
- 5- Dr. Mohammed Zneiber : Head of History Department Mohammed Al Khamiss University.
- 6- Dr. Abdul-Karim Ghoraibeh : Vice-President, Jordanian University.
- 7- Dr. Abdul Kader Zabadia : Head of History Department. / University of Algiers.
- 8- Mr. Ibrahim Al Baghli : Director of Antiquities and Museums. Kuwait.
- 9- Mr. Shaif Abdoh Saéed : Head of History Department. / University of Aden.
- 10- Dr. Abdul Malik Khalaf Al Tamimi : History Department / University of Kuwait.
- 11- Mr. Salem Al Shibani : Vice-President University of Qarbouniss / Binghazi.



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی



THE ARAB HISTORIAN

A BULLETIN OF HISTORICAL RESEARCH



1980
مركز بحوث ودراسات
مكتبة واداء الوثائق

EDITOR - IN - CHIEF
Prof. Dr. HUSSEIN AMIN

VOL. XV

Issued By
THE UNION OF ARAB HISTORIANS
BAGHDAD - IRAQ